جمال الدين العراب

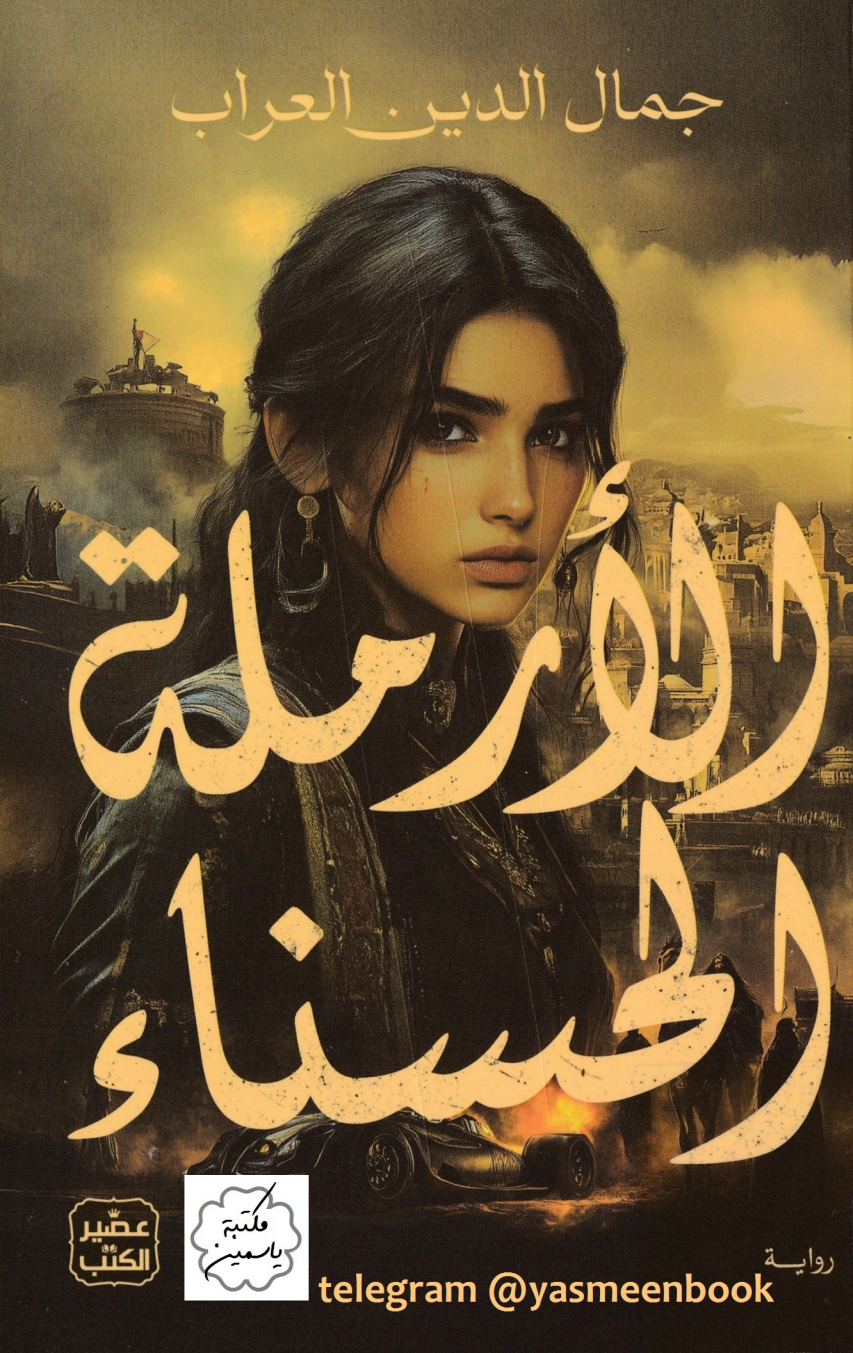

أرملة الحسناء

رواية

عصير الكتب

مكتبة ياسمين
telegram @yasmeenbook

مكتبة ياسمين

الأرملة الحسناء

عصير الكتب

telegram @yasmeenbook

- الطبعة الأولى: يناير 2025م
- رقم الإيداع: 30553/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-83-4
- تأليف: جمال الدين العراب
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

جمال الدين العراب

telegram @yasmeenbook

الأرملة الحسناء

رواية

إهداء

إلى أصدقائي المحترمين على فيسبوك في كل مكان..
إلى الذين ينتظرون «العطر والنار» بعد كل هذه السنين..
باولو فالنتينو يرسل إليكم تحياته ويقول: «إنها باتت أقرب إليكم من أي وقت مضى».
إلى العائلة شمالًا وجنوبًا
فردًا فردًا لا أستثني منهم أحدًا
أهدي هذه الرواية.

مدخل

سارع رجال المخابرات لمحاصرة المكان قصد منع أيِّ خبر من التسرب للصحافة، وعلَّق المحققون من رجال البوليس السرِّي شريطًا أصفر على مدخل الجناح إذ منعوا أي شخص مهما كانت صفته من الصعود إلى الطابق الرابع الذي أُخلِيَ تمامًا وأرسل جميع نزلائه إلى دائرة الأمن للتحقيق معهم واحدًا تلو الآخر، ازدحمت الغرفة 4007 بالمحققين وأفراد الشرطة العلمية الذين راحوا يصوِّرون كل زاوية في المكان، ومن أمام مدخل الفندق احتشد عشرات الصحفيين لمحاولة اصطياد أيِّ خبر هنا أو هناك، لقد كانوا يعرفون بأن جريمة مروِّعة حدثت بأحد الأجنحة الفاخرة في الطابق الرابع لكن درجة التعتيم والتحفُّظ الشديدين من طرف رجال الأمن والمخابرات جعلت الجميع يدرك بأنها ليست جريمة قتل عادية على الإطلاق.

وقف نقيب الشرطة ومعاونه أمام الجثَّة ينظران إليها بحيرة وخوف، ما يزيد على الساعتين من البحث والتمحيص والتفتيش الدقيق داخل مسرح الجريمة دون أي نتيجة تُذكر حتى الآن، أعاد رجال الشرطة فحص الكاميرات مرارًا والنتائج كانت بلا جدوى، حيث تعرض نظام المراقبة في الفندق لعُطل مفاجئ ساعة وقوع الجريمة ولم يكونوا بعدُ متأكدين إن كان ذلك قد حدث بالمصادفة المحضة أم أن هجومًا سيبرانيًّا مفتعلًا هو السبب.

قال أحد المحققين وهو يقف بطوله الفارع في مسرح الجريمة بعدما فحص الجثة جيدًا:

- لقد كان الضحية في صدمة شديدة ساعة موته، إمساكه بالكرسي بقبضتَي يده بهذه الطريقة أكبر دليل على ذلك، وعيناه الجاحظتان كما هو معروف تشيران إلى أن الضحية يعرف القاتل جيدًا.

تبادل الجميع النظرات، وعمَّ صمتٌ مقلق في المكان لم تقطعه إلا أصوات آلات التصوير وأضواؤها الساطعة، ثم قال مساعد النقيب متهكمًا وهو يشير إلى رقعة الشطرنج على الطاولة بجانب الجثة:

- لقد خسر اللعبة.

التفت إليه المحققون الذين كان كل واحد منهم مشغولًا بركنٍ ما من الغرفة، وقال النقيب ممتعضًا:

- ماذا تعني؟

- الضحية لعب على رقعة الشطرنج قبل موته، غالبًا ضد القاتل.

اقترب المحقق من الرقعة وأمعن النظر فيها بينما توجَّه النقيب بالكلام إلى أفراد الشرطة العلمية:

- تفحصتم البصمات على البيادق؟

- أجل سيدي، التي باللون الأبيض عليها بصمات الضحية، البيادق السوداء خالية من أي بصمات.

قال المحقق وهو يحكُّ ذقنه ناظرًا إلى الرقعة:

- لقد حرَّك كل منهما ثلاثة أحجار في الرقعة، لاحظوا الأحجار البيضاء، كل واحد منها لا يتمركز وسط المربع بالضبط، الضحية كان يرتعد رعبًا في أثناء اللعب، بينما وضعت الأحجار الثلاثة

السوداء في مركز كل مربع حيث كان القاتل على درجة عالية من الثبات والتركيز.

ثم ارتفع من جديد ونظر إلى الجميع وهو يضيف:

- لا أدري إن كانت هذه النتيجة قد تساعد في الوصول إلى القاتل بشكلٍ أو بآخر، لكن من الواضح لاعب شطرنج ماهر، إذ تفوَّق على الضحية في ثلاث خطوات وحسم اللعبة لصالحه، كما أنه على درجة عالية من الاحترافية.

أشار محقق آخر إلى الجثة وهو يقول:

- ثمة آثار شظايا حارقة على رأس الضحية، يبدو أنه تلقى الرصاصة من مسافة قريبة... أجل لقد كان القاتل يجلس قبالته على الكرسي، تبادلا أطراف الحديث لفترة... ولعبا الشطرنج، ثم برصاصة واحدة في الدماغ... انتهت اللعبة!

حدَّق النقيب بعمق إلى الأحجار على رقعة الشطرنج الغامضة وتنهد متمتمًا:

- فندق الدمى الراقصة... الغرفة 4007، الكاميرات لا تعمل ولا شاهد عيان رأى ما حدث، الأحجار البيضاء عليها بصمات الضحية، الأحجار السوداء لا بصمات عليها... أي غول هذا الذي كان هنا قبل ساعات؟

ثم تشمم الهواء بأنفه جيدًا، وبين ثنايا الغرفة التي جمَّدتها برودة الرعب والموت التقط النقيب رائحة خفيفة لبقايا دُخان التبغ الكوهيبي العتيق.

قنوع الإسكافي

تسارعت أسراب الطيور في السماء مُشكِّلةً زوايا حادَّة جماعات تتلوها جماعات في هجرتها الموسمية إذ لا طاقة لها بأهوال الشتاء القادم، قبيل غروب الشمس أطل قنوع الإسكافي من باب دكَّانه لبيع الأحذية وتصليحها، وكما كانت الطيور تهاجر في السماء، كان البشر يغادرون السوق إلى بيوتهم وفي يد كل واحد منهم ما تيسر من قوت عياله، راقبهم قنوع جميعًا وهو يتلذذ بطعم التبغ الذي يستمده من غليونه الخشبي العتيق، وسقطت ورقة كستنائية اللون من شجرة السنديان العملاقة عند قدمه فنظر إليها مبتسمًا، ها قد أتى أيلول وجاءت معه رياح الخريف الدافئة، الجو يتقلب ليتحول حرُّ الصيف اللاذع إلى شتاء باردٍ محمَّل بالثلوج والأمطار، ولكي يحدث ذلك، لا بدَّ أن يأتي أيلول بالخريف الذي يحاول أن يصلح بين الشتاء والصيف لكنه عبثًا يحاول، فكلما طغى الصيف في منتصف السنة لا بدَّ أن ينتصر عليه الشتاءُ في نهايتها.

الطيور تهاجر وتجوب العالم بينما الواحد يلزمه ألف إجراء ليعبُر خطًّا مرسومًا على الخريطة بين دولتين. سخر قنوع من نفسه وهو ينظر إلى الأرجاء مبتسمًا، لقد كان يومًا طويلًا وشاقًّا، فكأيِّ صنائعيٍّ يحب مهنته ويحترمها كان قنوع لا يتوانى عن الاهتمام بأدق التفاصيل في كل فردة حذاء يضعها بين يديه، لا شيء يرهق فؤاد الإنسان وعقله كالتفاصيل، وهذه الحرفة التي أخذت من حياته زهاء الثلاثين عامًا في

تعلُّمها وتطويرها وإتقانها تتطلب هكذا نوعًا من الاهتمام، لذلك ها هو كعادته بعد كل يوم يقضيه في معمله، يقف في نهايته هنا عند باب دكانه ليمنح نفسه استراحة تستحقها، لينظر إلى قنليجيا وسكانها، إلى الوجوه التي تجيء السوق صباحًا بنشاط وحيوية، وتغادرها مساءً وقد ارتسمت عليها ملامح الإنهاك والتعب، وبينما كان الإسكافي مستغرقًا في تأملاته وقع بصره مرة أخرى على شابٍّ لطالما لفت انتباهه في الأيام الأخيرة، إذ كان يعبر عادةً من هذه الطريق وهو يمشي الهوينى خلاف الاتجاه الذي تسير عليه تيارات الخارجين من السوق، كأنه طيرٌ كسيح يحاول التحليق عكس أسراب الطيور، هي تهاجر هربًا من الشتاء وهو يعود ليعيش الأهوال وحده، كان رثَّ الثياب شاحب الوجه ذا لحية طويلة وعينين ضيِّقتين، يستند إلى عصا بيده ويمسك بيده الأخرى ظهره المقوَّس كعرجون تمر نضجت ثماره قبل ميعادها من شدَّة لهيب الحرِّ الذي مرَّت عليه، استغرق النظر إليه ولم يتبين إن كان شابًّا في مقتبل العمر أم شيخًا يقف على أعتاب التسعين. «*وإنك لتشعر بالقرف من الحياة إذا نظرت إلى شاب شاخ قبل أوانه*». خاطب قنوع نفسه وهو ينظر إلى حذاء الفتى فرآه على أسوأ حال تقع فيها عين إسكافيٍّ على حذاء... وناداه بصوتٍ مرتفع:

- أنت هناك... هاي... السلام عليكم!

توقف الشاب عن المشي ونظر إلى الإسكافي.

- هلم إليَّ أُصلح لك هذا الحذاء الذي تنتعله.

طأطأ الشابُّ رأسه ونظر إلى حذائه نظرة عميقة كأنه يستوعب للتوِّ أن له قدمين تنتعلان حذاءً، ثم رفع رأسه إلى الإسكافي وقال متنهدًا:

- ليس معي ثمنٌ لإصلاحه.

أزاح قنوع شراشف ستارة باب دكانه من أمامه واندفع نحو الشاب الواقف على قارعة الطريق:

- أين تقصد؟ الناس تغادر هذه السوق مساءً وأنت تدخل إليها؟

قال الشاب متواقحًا:

- وما دخلك أنت؟

ظلَّ الإسكافي ينظر إليه مبتسمًا وقد ربت على كتفه بحنان الأب، فشعر الشاب بالخجل من نفسه واستدرك متألمًا:

- دعني وشأني أيها العم الطيِّب، لست في مزاجٍ يسمح لي بالتقيد بآداب اللباقة في الكلام... ولربما، ولربما ما كان حريًّا بأمثالي أن يتكلموا مع أمثالك أبدًا.

قال الشاب متحسِّرًا وهو يشمُّ مزيجًا من روائح التبغ والطيب والمسك تهب نسائمها من هذا العم الإسكافي الذي يربت على كتفه بينما تفوح منه هو روائح الخبائث كلها.

- سألتك سؤالًا واضحًا يا بني، لماذا لا تجيبني دون أن تعقِّد الأمور على نفسك؟

قال الشاب بنبرةٍ حادة:

- أنا ذاهب إلى الخمَّارة... أهذا ما تريد سماعه؟

أشار قنوع إلى حذاء الشاب وهو يقول:

- وهل ستذهب إلى الخمَّارة بحذاء ممزق؟ تعالَ معي إلى دكَّاني ها هنا وسنصلحه معًا، ونشرب قهوة، وبعدها أنت حرٌّ في الذهاب إلى وجهتك.

ارتسمت ملامح الغيظ والسأم على مُحيا الشاب إذ أجاب:

- يا عمَّاه... يا عمَّاه دعني وشأني، ليس معي إلا بعض الفكَّة التي أريد أن أصفي بها ذهني لهذه الليلة... لو كان معي ثمن إصلاح حذائي لما انتظرت أن يقطع الإسكافي طريقي ليعرض عليَّ ذلك.

- سيكون ذلك على حسابي.

قال قنوع ثم التفت إلى رابح القهوجي الذي كان يمسح طاولات المقهى وهتف به مخاطبًا:

- أرسِل إليَّ فنجانين لو سمحت.

أشار إليه النادل من بعيد بأن حاضر... وسار الشاب مقوَّس الظهر يتبع قنوع إلى دكانه متمتمًا:

- والقهوة أيضًا على حسابك يا عم؟

ضحك الإسكافي وهو يمسك بغليونه لكي لا يقع من بين شفتيه:

- والقهوة أيضًا على حسابي يا بني.

جلسا إلى الطاولة الخشبية التي تنتصف الدكَّان والتي وضعت عليها كل أنواع المخارز والشفرات والخيوط وبعض علب الغراء الملطخة ببقاياه القديمة، نزع الشاب فردتَي حذائه ووضعهما بين يدَي العم ودلف القهوجي في تلك الأثناء إلى المحل مرسلًا تحية رسمية ووضع فنجان قهوة بجانب الإسكافي وآخر بجانب الشاب الهزيل وغادر مستأذنًا:

- هذا... كثيرٌ عليَّ يا عم.

- اشرب بالصحة والعافية يا بني، لم تقل لي... ما اسمك؟

ردَّ الإسكافي بوجه بشوش، فقال الشاب وهو يمعن النظر إلى الانعكاس الأسود لصورته في فنجان القهوة:

- عُقاب... برفع العين، وإن كنت أشعر أحيانًا أنَّ كسرها أولى.

تبسم الإسكافي ضاحكًا من قوله:

- فصيح... وأنا اسمي قنوع، لدى اسمك صدى قوي يا عُقاب، أليس العُقاب هو سيِّد الطيور في السماء؟

قال الشاب مبتسمًا بحسرة:

- هو كذلك، ولكني كما ترى عُرَّة الناس في الأرض.

تجاهل الإسكافي تهكُّم الشاب على نفسه وقال وهو يتفحص الفردة اليمنى من حذائه ليعرف من أين يباشر ترقيعها:

- أأنت غريب على المدينة؟ أعني، لم أكن أراك في السوق من قبل... «...*وإن كنت قد رأيتك من قبل في المشفى*». قال قنوع مخاطبًا نفسه.

ومن غير أن يرفع الشاب نظره عن الفنجان قال بصوتٍ ضعيف خامل:

- أنَّى لك أن تراني يا عم؟ طريقي وطريقك لا يتقاطعان، أنت تقصد المساجد وأنا أقصد حانات الخمور.

وضع الإسكافي غليونه وحمل مخرزًا بدلًا منه وراح يركب الخيط عليه:

- ورغم ذلك التقينا اليوم.

- أنا لا أتجول كثيرًا في طرقات المدينة، وفي الواقع... لم أكن يومًا في حاجة إلى أن أقصد السوق ولذلك لم ترني من قبل، لا أنا كنت أقصد السوق ولا أنت كنت تأتي إلى أماكن المجون التي أقصدها... فكيف لنا أن نلتقي؟

تبسَّم الإسكافي وقد شعر بالشفقة على الشاب الذي أضاف:

- إن كل شارع في هذه المدينة يلعنني، وتلعنني الأرض التي أمشي عليها... لذلك لا تراني كثيرًا، لا أخرج من بيتي إلا لأقصد الحانة،

ولا أخرج من الحانة إلا متمايلًا في وقتٍ متأخر من الليل، أقضي بقية ليلتي في الشارع تارة، وتارة يوصلني بعض المحسنين من أمثالك إلى باب البيت بينما هم في طريقهم لصلاة الفجر.

- هل ظلمتك الحياة إلى هذا الحد؟

- ليس إلى الحد الذي ظلمتُ فيه نفسي، إنني أستحق كل ما نالني وأكثر.

قال الإسكافيُّ مواسيًا:

- أنت تستحق كل الخير يا بني فلا تقل على نفسك مثل هذا الكلام.

أشار الشاب إلى حجر الإسكافي وقال:

- الخير الذي صنعته أنت معي؟ وضعت بين يديَّ فنجان قهوة دافئ، ووضعت بين يديك حذاءً باليًا كريه الرائحة.

كان الإسكافي قد أنهى ترقيع الفردة اليمنى حين استلم اليسرى وهو يقول مبتسمًا بعطف:

- هوِّن عليك يا بني... لا شكَّ وأن لك حكاية، وأنا سأحب سماعها، قلت لي إن اسمك عُقاب... وفهمت من كلامك أنك من هذه المدينة.

- أجل.

- أيُّ عائلة؟

سكت الشاب قليلًا، ثم تنهد وقال على مضض:

- عُقاب بن هبَّار... هذا اسمي الكامل.

وضع الإسكافي المخرز، ثم فردة الحذاء... ونزع نظاراته الطبية وقبل أن يقول أي كلمة قال الشاب مبادرًا:

- أجل يا عم أجل، أنا عُقاب ابن التاجر الشهير أسعد بن هبَّار رحمه الله.

ظلَّ الإسكافي ينظر إليه متعجبًا وقد سبَّح الله عز وجل في قرارة نفسه، ثم ابتلع ريقه وحاول جاهدًا أن يخفي صدمته، لكن الشاب ابتسم ساخرًا:

- ها هي تلك النظرة ذاتها مرة أخرى، النظرة التي تعلو محيا المحسنين حين يوصلونني إلى باب بيتنا في ساعةٍ مبكرة من الصباح ويرون الحالة التي التقطوني منها في الشارع والبيت الفخم الفاخر الذي أسكنه... تلك النظرات التي تسألني ماذا فعلتَ بمال أبيك وإرثه يا لعنة الله عليك؟

- لا تقل هذا يا بني فاللعن هو الطرد من رحمة الله...

قال الإسكافي مهدِّئًا لكن الشاب انتفض في وجهه مقاطعًا:

- وأين تحسبني برأيك ها؟ انظر إليَّ... أأنا في رحمة الله أم مطرود منها؟

تبسَّم الإسكافي مرة أخرى وقد بدأت ملامح الدهشة تتبدد من وجهه:

- أنت في رحمة الله ما دامت أبواب الإنابة إليه مفتوحة أمامك يا بني...

(الله أكبر الله أكبر)

(أشهد أن لا إله إلا الله)

أطلق المؤذن أذان المغرب من فوق صومعة «مسجد الأرقم» العظيم... كان الإسكافي في تلك الأثناء قد رمى فردتَي الحذاء جانبًا والتقط فردتين جديدتين من رفوف متجره وهو يقول:

- إنني أعرف والدك رحمة الله عليه عز المعرفة يا بني، بل إن كل التجار في هذه السوق يعرفونه، أبوك كان رجلًا كريمًا وإنسانًا

صاحب فضلٍ علينا، خذ هاتين الفردتين والبسهما بالصحة والعافية.

- إنك تعاملني معاملة الشحَّاذ، وأنا لم أكن شحَّاذًا يومًا يا عم، لقد كانت يدنا هي اليد العليا دائمًا.
- أعرف ذلك، ولست أتكرم عليك بشيءٍ فلطالما عاملني أبوك أفضل معاملة حين كنت أشتري الجلود من عنده من أجل صُنع الأحذية، وحتى لما أقعده المرض كان قد أوصى عمَّاله بي، اليوم خيرُ ما أصنعه من أجله هو أن أردَّ جميله لولده... أليس كذلك؟

خفض عُقاب بصره، ونظر إلى الفردتين الجديدتين في الأسفل، ثم اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينتعلهما قائلًا:

- لو تعرف يا عماه... كم كانت تلك الفردتان الباليتان تؤذيان قدميَّ... كانتا آخر ما أملك.

مسح الإسكافي على ظهره مواسيًا، وودَّعه عُقاب وهمَّ بمغادرة المكان، لكن قنوع لم يدعه يذهب حتى أخذ منه أوثق الوعود بأن يعود إليه نهار اليوم الموالي لكي يسمع منه حكايته ويرى كيف يستطيع مساعدته، أومأ الشاب برأسه موافقًا، وذهب كلٌّ منهما إلى وجهته، الإسكافي إلى المسجد من أجل صلاة المغرب، وعُقاب إلى طريق الحانة من أجل ليلة أخرى يشرب فيها حتى يُذهب عقله قبل أن يذهب عقله به.

أسعد

(قبل 38 سنة)

كانت الساعة الرابعة عصرًا، حجبت الغيوم نور الشمس ولم تُبقِ منه إلا النزر اليسير ليضيء هذه الأرض التي غرقت في الظلمات، ارتدى المعزُّون ثيابًا سوداء ووقفوا بباحة بيت آل الهبَّار في تلك اللحظة التي وصلت فيها عربة الجنازة السوداء المهيبة وقد رافقتها سيارتان للشرطة وسط استغراب الحضور لوهلة حيث كان مشهد مرافقة سيارة الشرطة لجثمان رجلٍ أفضى إلى ربه منظرًا غريبًا بالنسبة لهم، نظر أسعد إلى العربة وهي تقترب، وبدا كأنه لم يكن يصدق المشهد برمته، ما أعظم أن يقف الرجل في جنازة أبيه، يتوقف الزمن عن الدوران، ويشعر أن الدنيا كلها تراقبه، كل الأعيُن عليه، وهو يقف في ذلك المكان وسط جموع المعزِّين ينظر إليهم كمشاهدٍ لفيلم سينمائي عجز مُخرجه على تعطيل حالة عدم التصديق عنده، اقتربت العربة رويدًا رويدًا، ثم اتخذت مكانها وسط الباحة حيث أفسح لها الحشد الطريق، ونزل محافظ الأمن من إحدى سيارتي الشرطة ونزل معه أربعة من رجاله على الفور، وقال بلهجة واجمة:

- السيد أسعد بن الهبَّار؟

تقدَّم ذاهلًا بين الحضور كأنه واحدٌ منهم، كأنه ليس صاحب العزاء، كأن الأمر برمته لا يعنيه، أو على الأقل هكذا كان يتمنى... وهتف بصوتٍ بالكاد كان مسموعًا:

- أجل سيدي؟

صافحه المحافظ بحرارة، وقال أمام الحاضرين جميعًا:

- السيد وزير الأمن القومي، والسيد المدير العام لأمن محافظة قنليجيا كلَّفاني بشكلٍ شخصي أن أنقل إليك خالص تعازيهما في الوالد، هنا في هذه العربة يرقد البروفيسور ماجد بن هبَّار، وقد أمر الطبيب الشرعي بتشميع صندوق جثمانه فلا يفتح أبدًا.

هتف أحدهم بين الحاضرين:

- أليس من حقِّ أهله رؤية ميِّتهم؟ ما هذا السخف؟...

ردَّ عليه المحافظ بنبرةٍ رسمية فيها الكثير من الصبر والتفهُّم:

- هذا ليس سخفًا يا سيدي هذه تعليمات من...

قاطعه شخصٌ آخر:

- حتى الموتى قيَّدتم حُريَّتهم؟ كيف يمكن أن تكون هناك تعليمات على الموت؟

وانتشر الهمز واللمز بين الحضور الذين استاؤوا من كلام محافظ الأمن، أما أسعد، فلم يبدِ أي ردة فعل، لا استياءً ولا قبولًا، ظلَّ واقفًا هناك لا ينظر من حوله حتى، كان يحدِّق إلى السيارة السوداء ويراوده ذلك السؤال القاسي. *هل مات أبي؟*... ظلَّ شاردًا إلى أن استعاد وعيه وهو يسمع المحافظ يرد على الجميع بصوتٍ مرتفع ونبرة أقل صبرًا هذه المرة:

- للأمر علاقة بأسرار الدولة وهذه تعليمات رئاسية، يمنع منعًا باتًّا فتح صندوق المتوفَّى والكشف عليه، تعازينا الخالصة سيد أسعد مرة أخرى في وفاة الوالد، الرجال الذين معي سيتكلفون بكامل إجراءات الدفن، فيما يمكنكم الصلاة عليه وتشييع جنازته حسب الشرع والأصول والتقاليد.

أومأ له أسعد موافقًا، وما هي إلا لحظات حتى انتظم الجمع الذي ضمَّ بعضًا من كبار العلماء في التاريخ والأثريات وأصدقاء المرحوم وزملائه في المعهد القومي للآثار، وبعضٌ من معارف أسعد وأصدقائه من كبار التجَّار... وساروا في موكب جنائزي رهيب لتوديع هذا الرجل الذي لطالما أدهشت اكتشافاته العلماء وأسهمت في الحفاظ على الذاكرة القومية وحمايتها من التلف والتزوير، ودُفِنَ في أجواء خيَّمت عليها الحيرة والسكوت... ذلك النوع من السكوت الذي هو ليس من علامات الرضا.

* * *

(بعد يومين)

- لم تكن هذه أول مرة يذهب فيها جنوبًا.

قال أسعد وهو يلتقط كوب الماء من يد صديقه عاكف، وأخذ منه شربتين لكي يستطيع تجاوز الغصَّة التي في حلقه، ثم نظر إلى التلال البعيدة من نافذة غرفة الاستقبال وهو يضيف قائلًا:

- أخبرني أنه يعمل على مشروع مهم، لم أهتم كثيرًا للتفاصيل فكل مشاريعه مهمة وهو يتكلم هكذا دائمًا في بداية كل اكتشاف أثري، لكنه بدا أكثر حماسًا هذه المرة، وإن كنت أرى في عينيه دائمًا شيئًا من الغموض كلما تحدث عن مشروعه هذا بالتحديد، كان

يسافر نهاية كل أسبوع إلى الصحراء ويعود قبل بداية الأسبوع الموالي، سفرياته كانت عادية جدًّا... لم أتوقع يومًا أن يذهب إلى هناك بلا رجعة يا عاكف.

قام صديقه بالمسح على ظهره مواسيًا... بينما أضاف أسعد:

- لو حدَّثته بمكالمةٍ هاتفية أخيرة لزالت كل همومي الآن، غدر بي يا عاكف، أبي غدر بي... سافرت إلى البلاد الأجنبية من أجل بعض تجارتي كالعادة، ولدى عودتي لم أجد إلا تابوتًا مشمَّعًا يحرمُ عليَّ مجرَّد فتحه لإلقاء نظرة أخيرة عليه، ألم تكن في الجنازة؟ رفضوا حتى أن يدعونا نقترب من النعش، الأربعة الذين أنزلوه في القبر كانوا يرتدون قفازات وكمامات، هل حضرت في حياتك كلها مراسم دفنٍ كهذه يا عاكف؟

أومأ عاكف برأسه نفيًا، ثم مرة أخرى طبَّب على ضهره وقال مواسيًا:

- هدِّئ من روعك، تناول الدواء الذي وصفه لك الطبيب واخلد إلى النوم لترتاح.

طأطأ أسعد رأسه وتنهد، ثم قال وهو يشدُّ شعره بين مفارق أصابعه:

- في الخامس عشر من يناير سافرت من أجل التجارة، كل شيء كان عاديًّا طبيعيًّا، أنا أعمل في التجارة وأبي في علم الآثار بالمعهد القومي، كلٌّ منا مشغول بعمله، الثامن عشر من يناير اتصلت به هنا في البيت فلم يرد عليَّ، اتصلت به في المكتب فردَّت عليَّ معاونته الباحثة في علوم التاريخ سلمى عاصف، أخبرتني أنه سافر جنوبًا، بدأ ارتيابي يتزايد منذ تلك اللحظة، شعرت بأن شيئًا ما على غير طبيعته، أبي لم يسافر جنوبًا قطُّ في منتصف الأسبوع، يفعل ذلك عادةً في نهايته، لكني لم أُولِ الموضوع أهمية كبيرة باعتبار أنها سفرية عادية من جهة وباعتبار أني كنت أصلًا

في طريقي للعودة إلى قنليجيا... لكن لدى وصولي لم يكن هنالك أيُّ أثر لأبي، لا في البيت، ولا في مكتبه بالمعهد، ولا في أي مكان آخر، ثم استمرت مخاوفي في الغليان إلى أن اتصل بي محافظ الأمن وأعلمني بالخبر المفجع.

في تلك اللحظة دخلت عجوز بدينة إلى الصالون وألقت التحية بحزن، ثم تقدَّمت نحو أسعد متمايلةً في مشيتها وصافحته معزِّية، وبادلها الأخير التحية وشكرها، مسحت بمنديلها بعضًا من الريق المتجمع على أطراف فمها وهي تقول لاهثة:

- اعذرني يا بني، إذ لم أتمكن من حضور الجنازة، كنت في سفرية لزيارة ابنتي في سيزيف عندما وصل إليَّ الخبر، وأنت تعرف زحمة الرحلات الجوية من سيزيف وإليها خاصةً في هذا الوقت من السنة إذ إن نصف شباب البلد يشتغلون هناك.

أومأ أسعد برأسه إيجابًا وقال بنبرة تنمُّ عن حُسن التفهم:

- لقد شعرت بحزنكِ عليه خالة مايا حتى وأنتِ غائبة، تعرفين جيدًا كم كان المرحوم يحبك.

ثم التفت إلى صديقه وقال مشيرًا إلى المرأة:

- عاكف أعرِّفك بالسيدة مايا المقلَّد جارتنا وصديقة قديمة للعائلة... هذا عاكف ابن الضبعة صديقي المقرَّب وأمين أسراري يا خالة.

اقتربت العجوز من عاكف وصافحته هو الآخر، ثم تمتمت وهي تنظر في عينَي أسعد:

- ليته يفعل.

وهمَّت بالخروج من الغرفة قبل أن تلتفت إليهما وهي تقول مستغربة:

- نسيت أن أسألك، لِمَ يقف أربعة من عناصر الشرطة على قبر المرحوم؟

هتف أسعد بدهشة رافعًا ناظريه نحوها:

- ماذا تقولين؟!

- توجَّهتُ اليوم إلى المقبرة لكي أضع إكليلًا من الزهور على قبره، طلبوا مني بطاقة هُويَّتي، ومنعوني حتى من الاقتراب منه!

أصبح الوضع لا يطاق. قال أسعد... وتساءل بذهول وامتعاض لِمَ قد تقوم الدولة بحماية قبر رجل ميت!

أمغار

وضعت الجدَّة عديلة إبريق الشاي على بضع جمرات صغيرات كانت قد سحبتهنَّ من الموقد الحجري العملاق الذي يمد البيت بالدفء، صفَّرت النوافذ من جرَّاء الرياح العنيفة التي تضرب في الخارج محملة بالصقيع، كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلًا وقد انتهت من غسل صحون العشاء ونظَّفت المائدة، وقامت بفرش بُساطَين بجانب الكرسي الأرضي الأشبه بالأريكة والمصنوع من الحلفاء والتبن والخيش، ثم زوَّدت نار المدفئة بمزيدٍ من الخشب وما هي إلا لحظات حتى دخل أمغار يتبعه الصبيان اللذان تسابقا إلى المدفئة وهتفت بهم عديلة منبِّهة:

- جفِّفا نفسيكما أولًا ولا تنزعا جواربكما فالأرضية باردة بعض الشيء.
- يا إلهي الرياح... الرياح قوية في الخارج... قوية جدًّا... جدًّا يا جدتي... لقد كدت أطير بعيدًا لو لم تكن قدماي منغمستين جيدًا في الثلوج.

قالت هديل وهي تبسط يديها أمام المدفئة شاعرة بالدفء يتسلل إلى أناملها كفراشة خجولة... وضحك الجدُّ أمغار الحكيم وهو ينزع معطفه الطويل المصنوع من الوبر المتشابك وقال وهو يجفف خصلات شعره الأبيض بعدما خلع حذاءه العالي:

- الحمد لله أننا أدركنا سقف الإسطبل قبل أن ينهار يا عديلة.
- هل أصلحته؟

قالت بفضول وهي تمسك عنه معطفه وتعلقه في مكانه فأجابها وهو يتوجه نحو مقعده:

- أجل، وضعه ممتاز، بإمكان الخيول أن تنام في دفءٍ وعافية الآن... أليس كذلك يا هديل؟

قالت الفتاة وهي تلتفت إلى جدها بنظرةٍ حزينة:

- أجل، ولكني لم أفرش مزيدًا من التبن الجديد لفرسي المسكينة، ستبرد حتمًا، إنها حامل ولا بدَّ من العناية بها.

قال الصبيُّ الذي كان معهما في الخارج وهو يجلس بجانب أمغار في أحد البُساطَين اللذين وضعتهما عديلة:

- ليس من الضروري أن تفرشي لها تبنًا جديدًا كل يوم يا فتاة الإسطبل... إن لها جلدًا سميكًا كفيلًا بوقايتها من البرد كما أن الإسطبل دافئ بما يكفي.

نظرت هديل إليه وقالت بشقاوة:

- ماذا تعرف أنت حول تربية الخيول يا فتى المدينة المدلل؟

تجاهل الصبي كلامها والتفت إلى أمغار الذي كان يتبادل النظرات مبتسمًا مع عديلة:

- لقد انتهت حكاية العطر والنار أمس يا عماه... أو بالكاد أنهينا سماعها فإحداهنَّ تنام بسرعة ولا تدعك تُنهي سرد القصص.

لم تفهم هديل تلميح الصبي الشقي وجلست على البساط الثاني بالقرب من الجد، وتدثرت بغطائها وأسندت رأسها إلى ركبة جدها التي انسدلت عليها جدائل شعر حفيدته وراح هو يلتقط كوب الشاي من عديلة ويقول مبتسمًا:

- ستسافر بنا المشكاة اليوم إلى رحلةٍ بعيدة أخرى عبر الزمن... فهل أنتما جاهزان؟

قال الولدان وكلٌّ منهما يتكور تحت دثاره:

- أجل.

جلست عديلة بجانب الموقد وحملت مخرزَيها وكبَّة الصوف... وراحت تحبك الخيوط وتشبك بعضها ببعض لتحيك شيئًا ما مصغية إلى زوجها أمغار الذي قال وهو يمسح على شعر الولدين تحت الضوء اللازوردي لمشكاته العتيقة:

- كان مما كان... في سالف الدهر والأزمان، قبل أجدادنا وأجدادهم وقبل هذا العصر والأوان، أن حكم هذه القارَّة رجل قدِّيس، يحكم بالعدل ولا يبيع الحق بالرخيص، يقال له الملك رمسيس.

(حكاية حرب الحواجب السوداء: قبل أكثر من 2500 عام)

كانت بلادنا هذه منارة القارَّة عظيمة وسارَّة، كثيرة المباني والقصور وموطن أعظم حضارات الشرق على مرِّ العصور، كما تميزت بالثروات والأراضي الخصبة والأنهار العذبة وشعبها الذي يقابل الإساءة بالمحبة، فوفدت إليها قوافل التجَّار من مختلف الأقطار، ورست السفن على موانئها من كل البحار، وكما هو الشرق دائمًا، يثير في النفوس الأصيلة شغف الجمال والحب، ويثير في النفوس المريضة مطامع السلب والنهب، كانت القارة الغربية الوسطى في ذلك العصر تحت حكم رجل شديد البطش والغدر ذاع صيته شرقًا وغربًا يدعى الملك «ريتشارد»، وكان لهذا الملك وجيوشه سمعة ملأت البر والبحر فبات معروفًا بأنه إذا غزا انتصر، وإذا بطش اقتدر، وإذا صاحب غدر، وإذا خاصم فجر، وكان إذا أعجب بأرض غزاها وضمَّها إلى حكمه وسباها، ولا يزال على حاله تلك مع كل قارة وبلاد، إلا مع بلادنا هذه يا أحفاد... فإنه لم يقدر

أن يفكر في الاقتراب، بسبب رمسيس ملك ملوك الشرق الذي كان يحمي مملكته بالنار والحديد ويدافع عن حدودها بجيش من الرجال الصناديد، وكان له قادة غلاظ أقوياء، أشدَّاء على الأعداء رحماء على بني قومهم إذا حلَّ بهم كربٌ أو بلاء، وكانوا لا يعصون إذا أمرهم ولا يخونون إذا ائتمنهم، لا يتولَّون عند الزحف ولا يتخلَّون يوم العصف ولا يطعنون من الخلف، ولذلك عاش الشعب في أمان وازدهر وأنتج من كل علمٍ عنوان ومن كل زرع بستان ومن كل ماشيةٍ رعيلًا وقطعان، ذلك أن الشعب إذا شعر بالأمن والأمان أبدع وأمتع، وعاش بما أنتج واستمتع، فعمَّ الخير وساد الوئام بين الناس... وكان ريتشارد صاحب مملكة القارة الغربية الوسطى يفكر في كيفية الاستيلاء على هذه البلاد الجميلة... وفكر في ذلك لسبعين يومًا وليلة، حتى اهتدى إلى أخبث حيلة، فكان أن بدأ بالتقرُّب من الملك رمسيس بالهدايا والعطايا الجزيلة والسفارات والمجاملات، فكانت وفود القارة الوسطى تقف بين يدي رمسيس محمَّلة بصناديق الهدايا والجواري الحسان، حتى سادت العلاقات الطيِّبة بين المملكتين وقويت أواصر المحبة بين الشعبين والدولتين، وباتت قوافل التجَّار وسفنهم تنتقل بين القارتين جيئةً وذهابًا، وذهابًا وجيئةً في رحلة الشتاء والصيف، حتى اتفق الملكان رمسيس وريتشارد على افتتاح سفارتين في المملكتين، وأوفد رمسيس سفيره إلى مملكة القارة الوسطى، وكذلك فعل ريتشارد إذ أوفد أخاه تشارلز إلى مملكة الشرق ليكون سفيره فيها.

وكان تشارلز هذا رجلًا داهية، دقيق الملاحظة شديد المراوغة قليل الكلام كثير الطموح والأحلام، يفكِّر ويدبِّر، وينصت أكثر مما يثرثر، ولا يثق بابن أنثى في هذه الدنيا سوى في ريتشارد أخيه الأكبر، وكان ريتشارد قد أوفد تشارلز في هذه السفارة إلى مملكة الشرق لكي يُراقب

طباع أهلها، ويعرف أسرار دولتها حتى يتصيد الثغرة المناسبة لغزوها، وقد كانت مملكة الشرق منيعة حصينة من الداخل والخارج، فلم تفلح كل سُبل تشارلز للمؤامرة، ولم تفده مهاراته في السياسة والمناورة، وفهم بأن مقامه في هذه البلاد سيكون طويل وأن إنهاء مهمته في فترة قصيرة أقرب إلى المستحيل، فصبر ودبَّر وعاش في هذه البلاد سنين وعاشر أهلها وقياداتها، وقد كان تشارلز رجلًا عقيمًا حُرِم من البنات والبنين وزار الأطباء في كل الأنحاء فلم ينفعه طبٌّ ولا دواء، حتى أقبل إلى عجوز حكيمة يقال لها شفاء فعالجته من العقم وما هي إلا تسعة أشهر ويوم حتى وضعت زوجته صبية جميلة، فكانت لطيفة المنظر، كبيرة الأعيُن، شعرها أسود كالزيتون، ممتلئة الخدَّين، بيضاء البشرة، محمرَّة الوجنتين، أطلق عليها اسم «داليدا»... وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي تحبل فيها زوجته السفيرة، فأحب تشارلز السفير ابنته داليدا كما يحبُّ المالَ الغنيُّ والفقير، وربَّاها في العز ودلَّلها وعلمها من كل الفنون والآداب، ولأن الإنسان ابن بيئته فقد تطبَّعت داليدا بطباع المشرقيين فأحبت الموسيقى والشعر وعزفت على الآلات من كل وتر، وكبرت وباتت في الحسن لا تُضاهى، إذا سارت رافقتها طواويس وأيائلُ تتباهى، وكانت ذات صوت قويٍّ إذا غنت حسبتها رعدًا في هزيمه الأبدي وإذا عزفت أبهرتك بكمانها الحزين الشجي، ونشأت داليدا على هذه الحال سنين طفولتها وكبرت وأزهرت، فنضج دلالها وزاد غنجها وجمالها وباتت أكثر رجاحة وفصاحة..

وفي تلك الفترة من الزمان... كان الملك ريتشارد صاحب الدنيَّة قد راسل أخاه بأن يباشر تنفيذ خطته السريَّة، وهي اغتيال الملك رمسيس سرًّا والقضاء على نسله، حتى يتبادل قيادات الجيش الاتهامات بقتله، ويتحاربون فيما بينهم حول الملك والزرق وتكون تلك فرصة ريتشارد

وجيوشه لغزو الشرق، وما لم يحسب الأخوان الملكيان حسابه هو ابنه البكر الذي يحبه الجميع ويهابه، الأميرُ نارمر بن رمسيس الفارس الشجاع الهمام...

وكان نارمر هذا في مثل سنِّ داليدا حيث وضعته أمه في الشهر الذي وُلدت فيه بنتُ السفير، وهو الشهر الثاني من السنة على أغلب التقدير، ولكنه لم ينشأ نشأتها في العز والدلال، إنما تربَّى على أخلاق الفرسان وتعلم منهم المبارزة والرماية وركوب الحصان، والتخطيط للحروب والكرَّ والفرَّ في الميدان... فبات فارسًا لا يشقُّ له غبار ولا يرضى لأهل مملكته ذلًّا ولا عار...

وفي أحد الأيام أرسل السفير تشارلز دعوة ملكية إلى ملك الملوك رمسيس من أجل حضور مأدبة عشاء فلكية، أقامها سعادة السفير على شرفه بمناسبة مرور نصف قرن على تولِّي حكمه، فلبَّى الدعوة ومعه ابنه نارمر، وجلس الملك وابنه الأمير إلى بهو بيت سعادة السفير على مائدة عظيمة من الطعام فيها من كل فاكهةٍ زوجان، ومن كل طعام أصنافٌ وألوان، وجلست حولهم الجواري الحسان، وحاشية وغلمان، وفي تلك اللحظة من الزمان وقفت داليدا بين يديهما وهي تحمل الكمان، وعزفت عليه أعذب الألحان، فأعجب بعزفها الملك رمسيس، وطاش الدم في عقل ابنه الوريث، وبهت بها وأذهلته بجمالها المشرقي وقدها الممشوق الأجنبي، و خلطت داليدا في العزف وأخطأت، وتلك كانت المرة الأولى التي تغلط في عزفها، حيث إنها هي الأخرى غاب عنها عقلها لما رأت الأمير نارمر وحاولت أن تتحاشى النظر إليه فلم تصبر، وجرَّبت أن تعزف وهي تنظر إليه فلم تقدر، وظلَّ كلٌّ منهما يرسل النظرات إلى الآخر، حتى إذا وقعت العين على العين، والروح على الروح، بات البادئ بالحب أكرم، وأذن بالطعام فلم يستطع الأمير أكل شيءٍ مما

يقابل... حيثُ اختلطت عليه الأفكار والمسائل وتداخل في عقله الحابل بالنابل، وظلَّ يراقب بنت السفير بين الفينة والأخرى ولم يصدق ما كان لتوه يرى... ودهش مما كان يستمع، وحاول الاكتفاء بالنظرات إليها فلم يقتنع، وكان كلما مدَّ يده إلى الطعام تذكر سحر عينيها فشبع...

* * *

توقف أمغار الحكيم عن الكلام حين نامت البنت الصغيرة، فابتسم وهو ينظر إلى الولد الذي قال بشقاوة:

- كما يحدث في كل ليلة، إنها تنام مبكرًا فتوقف القصة في منتصفها.

مسح العجوز على شعر الصبي وقال مبتسمًا:

- إنك دائمًا مستعجل ومندفع، متى تتعلم أن الأشياء الجميلة تأتي بالتأني؟ لِمَ تعشق السرعة هكذا ها؟

نظر الفتى إلى هديل وهي تنام متوسدة ركبة جدها بينما يتوسد هو الركبة الأخرى، وظلَّت الرياح تصفر في الخارج وحبات البرد تنقر نافذة البيت بعنف وعنفوان، والتقط العجوز أمغار كتابه القديم وراح يقرأ منه حتى نام الصبي، فقام بهدوء لكي لا يوقظهما، وحمل كلًّا منهما إلى فراشه... وأطفأ مشكاته وأشعل شمعة وراح يقرأ على ضوئها من كتابه حتى أدركه النعاس فنام، وقامت عديلة من مكانها فالتقطت عنه الكتاب وأرجعته إلى مكانه... وأطفأت الشمعة.

عُقاب

التقط معطفه الجلدي وارتداه بخفَّة بعدما كان قد وضع ساعة معصمه وهو يهمهم بموسيقى تحفيزية ليبعد عن نفسه التوتر والقلق، وحين همَّ بالخروج سمع صوتًا صارمًا يأتي من الطابق العلوي:

- ليلة صاخبة أخرى؟

رفع بصره إلى أبيه الذي كان يستند إلى شباك الدرج الخشبي وهو يقف بصعوبة ويرميه بنظراتٍ حادة:

- ألم تنم بعد؟

قال عُقاب بسأمٍ خفي:

- ولماذا أنام؟ لأرتاح؟ أجابه والده محاوِلًا نزول السلالم بصعوبة وتأفُّف عُقاب وهو يصغي إليه حيث أضاف متهكمًا بغضب:

- ولماذا أرتاح؟ لأن ابني الشهم نائم في غرفته حتى يتمكن من الاستيقاظ لصلاة الفجر ويذهب بعدها لمتابعة أعمالنا في التجارة؟

قال عُقاب وهو يقلب ملامح وجهه بين السأم والمرارة:

- عدنا مرة أخرى إلى هذا الموضوع؟ ألا تتعب؟

ردَّ عليه والده وهو يحاول أن يكون هادئًا:

- ألم تتعب أنت؟ ثلاث سيارات في العام الماضي، سيَّارتان هذا العام والثالثة على الطريق... إلى متى ستظل تخوض سباقات

الموت هذه؟ إلى أن يعودوا بك محمَّلًا في تابوت؟ أو ربما ممزقًا إلى كومة أشلاء موضوعة في كيس أسود؟

قال عُقاب بغضب وهو يتحاشى النظر في عينَي أبيه:

- وهل يهمك حقًّا إن عدت محملًا في تابوت أم في سيارة فارهة؟ الدور الذي تحاول لعبه الآن عفا عنه الزمن يا أبي، في السباق يفوز مَن يصلُ أولًا، لا آخرًا... ربما يجدر بك أن ترافقني إلى المضمار بين الفينة والأخرى لتتعلم بعض أبجديات الحياة.

ارتمى عليه الأب بكل قوته وصفعه بقوة حتى كادا يسقطان أرضًا لولا أن استند عُقاب على الجدار واستند أبوه عليه في اللحظة الأخيرة وهو يعضُّ لسانه لاهثًا ككلبٍ جريح:

- قد أكون جاهلًا بأساسيات الحياة كلها، ولكني لم أخاطب أبي بهذه الطريقة النزقة يومًا.

مسح عُقاب على خده وقال وهو يطأطئ رأسه أرضًا:

- لقد صفعتني ألف مرة، ولكن ذلك لم يغيِّر من الحقيقة شيئًا.

زعق أبوه غضبًا:

- إذن ربما تحتاج إلى الصفعة الواحدة بعد الألف لتفهم.

قاطعه عُقاب وهو يصيح بغضب عارم حتى تردد صوته في كامل أنحاء القصر:

- وكم صفعةً ستحتاج إليها أنت لكي تفهم؟ لطالما كانت تجارتك هي عائلتك الحقيقية لا نحن، حرمتني من أمي، حرمتني منك... ولا تزال وأنت في مرضك العضال هذا تركض وراء جمع المال وتفكر في التجارة؟ بماذا نفعتك أموالك؟ قل لي.

تطاير لعاب عُقاب وهو يصرخ بأعلى صوته مضيفًا:

- انظر إلى نفسك، إنك عاجز عن الوقوف لأكثر من خمس دقائق، الآن وقد أقعدك المرض تريد أن تكفِّر عن ذنبك العظيم بأن تلعب دور الأب الحريص معي؟ ربما لا تستوعب ذلك لأنك تقضي وقتك كله في غرفتك لكني أحب أن أذكرك بأن خمسة عشر عامًا قد مضت وأنت سجينٌ هنا يا رجل... خمسة عشر سنة! وقد بلغتُ أشدي، وصرت رجلًا، أعرف ما يتعين عليَّ فعله لكي أعيش... هذه الحقيقة يجب أن تفهمها وتستوعبها بدلًا من توجيه الصفعات إليَّ.

قال وهو يزم شفتيه مانعًا نفسه من البكاء وقد أشار إلى موضع الصفعة بغضب...

فابتسم أسعد بسمة متهكمة واقترب من ابنه وهو يقول:

- وأيُّ رجل أصبحتَ عليه؟ أيُّ رجل... تنفق أموالي في شراء السيارات وتقودها مخمورًا فتحطمها، أو تقامر بها في سباقات المجون تلك أو تنفقها في أحسن الأحوال على عاهراتك وأصدقائك من أشباه الرجال.

دار عُقاب وهرول متوجهًا نحو المخرج وهو يقول:

- إنني أنفق حصَّتي من المال الذي من أجله حرمتني منك ومن أمي طوال طفولتي، لو كان يهمك كيفية إنفاق مالك لهذه الدرجة لربما ما كان يجدر بك أن تتزوج وتنجبني من الأساس.

لهث الأب وزعق بغضبٍ عارم: أيها الحقير! عد إلى هنا أيها العاق... إنني أكلِّمك فلا تُدِر إليَّ ظهرك يا عُقاب... عُقاااب.

* * *

تجاهل صيحات أبيه الأخيرة، وخرج من المنزل حاملًا مفاتيحه ونزل إلى جراج سياراته، كانت تقف هناك مستندة على السيارة البرتقالية اللون من نوع بي إم، تلوك علكتها بين شفتيها وتنظر إلى مرآتها الصغيرة المحمولة، ارتدت سروالًا ضيقًا قصيرًا مع حذاء بكعبٍ عالٍ بلغت خيوطه إلى ركبتيها، قميصٌ أسود قصير وشعر مصبوغ باللون الفضِّي ينسدل على كتفيها... كانت مثيرة كعادتها وقد نسي عُقاب نصف مشكلاته حين رآها، ونسي النصف الآخر عندما شمَّ رائحة عطرها «ديور»، وقف بجانب سيارته السوداء «الدودج تشالنجر» وقالت حين عبر بجانبها:

- ما به وجهك يا عُقاب؟

كانت آثار صفعة أبيه بادية على وجهه، لكنه لم يهتم للأمر كثيرًا وهو يصعد إلى سيارته فتبعته وجلست بالمقعد الأمامي، أدار المفتاح فأصدر المحرك هديرًا محترمًا في كافة أرجاء الجراج، ثم قاد خارجًا من هناك عبر الطريق الفرعي الذي زرعت على أطرافه أشجار الصنوبر العملاقة التي التمعت جذوعها بفعل مياه الأمطار الغزيرة حيث تساقطت بقوة في اليومين الأخيرين، كان هذا الطريق الفرعي الممتد من جراج قصر آل الهبَّار يقود إلى الطريق العام وفي أثناء ما كانا متوجهين نحوه سألها وهو يقود محاولًا أن يتحاشى النظر إليها لكي لا تبدو آثار صفعة أبيه أكثر:

- هل اتصل عامر؟

مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت علبة مكياج دائرية، ووضعت بعض المسحوق الأبيض في يدها وراحت تمسح به على مكان آثار الصفعة لكي تخفيها وهي تجيبه:

- أجل، قال إنه في بيت عمَّته... طلب أن أخبرك أن نعرِّج عليه قبل الذهاب إلى مكان السباق فأخبرته أن الوقت...

قال عُقاب مقاطعًا:

- لا بأس لا يزال لدينا بعض الوقت، سنعرِّج عليه ونأخذه معنا، لا يمكنني أن أذهب إلى سباقٍ كهذا من دونه.

- وأنا؟ ألا يكفيك وجودي؟

قالت باسمة لكنه لم يَرُد عليها، بل نظر عبر زجاج نافذة سيَّارته وراح يحدِّق إلى زبد البحر الذي يلمع في الظلام على نواصي الأمواج العاتية وهي ترتطم بالصخور كأنها تحاول زحزحة هذه البلاد عن مكانها، وتمتم متنهدًا بينما تمسح عفاف على جرحه:

- ما كان يجدر بي أن أصرخ في وجهه، ما كان يجدر بي ذلك.

- أبوك مرة أخرى؟

نظر إليها في تلك اللحظة نظرة قاسية، لكن قسوة نظراته سرعان ما تحطمت كموج البحر أمام نعومة نظراتها، أومأ لها بأن نعم، فقالت وهي تحدِّق إليه مدهوشة:

- أحيانًا يا عُقاب أشعر أني لا أفهمك.

ابتسم وهو يلتفت إلى البحر مرة أخرى:

- جهِّزي لي سيجارتي وأكثري من عقاركِ السحري فيها... لا داعي لأن تفهميني فلستِ مطالبة بذلك.

ثم تنهَّد وهو يضيف:

- لم تكن علاقتي بأبي جيدة مؤخرًا، يستفزني ما يحاول القيام به، ولا شيء في حياتي يعجبه على ما يبدو... لقد كانت حياتنا معًا أشبه بقارب صيد يحمل صاحبه شبكة ممزقة، لا هو يستطيع

الصيد بواسطتها، ولا هو يبقى في بيته ليصلحها، يشقى في كل يومٍ لعرض البحر صباحًا ثم يعود خالي الوفاض في المساء، يعتقد أن الموضوع له علاقة بالقدر، أو ربما بالبحر وأحوال الطقس، يضع العيب على كل الاحتمالات لكنه لا يريد أن يفهم أن الشبكة التي يستخدمها ممزقة.

أخرجت سيجارة الحشيش من محفظتها اليدوية، ووضعتها بين شفتيها وأشعلتها، أخذت منها رشفتين فاستوت السيجارة جيدًا، ثم حملتها بعناية بين الخنصر والبنصر وناولته إياها وهي تطلق سعلتين عميقتين من صدرها وقالت منتشيةً:

- أنت تعرف أنني لا أفهم لغة الرموز والتلميحات يا عُقاب.

قاطعها وهو يأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة:

- كانت أمي مشغولة على الدوام، وأبي كذلك... لم يكن لديهما الوقت الكافي ليرعياني ويربياني مثل أي أبوين في هذه الدنيا، عشت بعيدًا عنهما في معظم فترات حياتي، لا أملك الكثير من الذكريات عن أمي في الواقع فقد ماتت حين كنتُ في بدايات شبابي، كل ما أذكره أن أبي قام بإرسالي إلى مكان بعيد من أجل قضاء بضعة أيام هناك كما قال، لم يوضح سبب ذلك وقتها، ودَّعتني أمي التي أتذكر جيدًا كيف كانت تجهِّز حقيبتي والدموع في عينيها... وغادرتُ بيتنا، بعد شهرين عدت إلى البيت فوجدت كل شيء قد تغيَّر، وجدت الشبكة مثقوبة... شبكة الصياد... لا أبي عاد أبي الذي أعرف، ولا أمي...

سكت عُقاب قليلًا، وأطلق تنهيدة طويلة وهو يضيف:

- ولا أمي كانت موجودة أصلًا، إذ تُوفِّيت في أثناء غيابي بسبب مرض خطِر كما قيل لي... عشت فتراتٍ طويلة بعيدًا عن بيتنا

ولذلك لا أكنُّ الكثير من المشاعر لأبي، وهذا أكثر ما يستفزني فيه، أنه اليوم بات يريد أن يلعب الدور الذي فاته منذ سنوات خلت.

قاطعته متعجبة:

- ألم تتساءل عن السبب الذي قد يجعل الأب يتخلى عن ابنه الوحيد بهذه الطريقة؟

نفث دخان سيجارته وهو يقول:

- التجارة... المال... حب المال أعمى والدي، بات مهووسًا بأعماله وتجارته منذ وفاة أمي، لم يكن يرغب في أي شيءٍ آخر في هذه الحياة سوى في جمع المال وتكديسه.

قهقهت عفاف وهي تضع رجلها على الكرسي لتمسح حذاءها:

- وها هو وريثه الوحيد يصرف هذه الأموال شرقًا وغربًا الآن.

دخَّن من السيجارة بلهفة ونهم... وقال وهو ينفث الدخان الكثيف من فمه وأنفه:

- أبي يريد أن يسجنني، وأن يجعلني أكبر بالطريقة التي كبر هو بها، مجرد تاجر يقضي يومه في مراعاة السجلات ودفاتر الحسابات ويعود ليلًا إلى بيته منهكًا فيتناول عشاءه ويدخل لينام.

قالت عفاف معقِّبة:

- ذلك النمط العادي من الحياة.

أومأ عُقاب برأسه وهو يدخن مرة أخرى:

- أجل يا عفاف... ذلك النمط العادي من الحياة، وأنا لا أريد حياة عادية، لم أكن أنوي أن أصطدم به ليلة اليوم، إنه السباق نصف النهائي ويستحيل أن أخسره بسبب مشكلات تافهة كهذه، وعدتُ

نجمي أنني سأحتل المركز الأول وأننا سنلتقي في النهائي ونواجه ذلك المغرور الأجنبي معًا.

قال عُقاب وهو يستمر في قيادة سيارته غربًا نحو بيت عمَّة صديقه عامر الميكانيكي... وقد كان عامر هذا أعز أصدقائه وأقربهم مودَّة إلى قلبه، هذا الميكانيكيُّ خشن المنظر، طيِّب المعشر، كان يهتم بكل كبيرة وصغيرة قبل السباق، حالة السيارة وكل قطعة فيها، وضع المحرك والمضخة والإطارات وكل شيء، ولذلك لا يذهب عُقاب إلى سباق إلا وأخذه معه، انطلاقه من خط البداية تاركًا عامر يقف خلفه فيه راحة ودفع معنوي كبير له، إنه يعرفه منذ أيام الدراسة عندما كان عامر مجرد شاب متنمر ضخم الجثة مقارنةً بأقرانه وحتى بمَن هم أكبر منه سنًّا، لكنه لم يكن يومًا شخصًا شرِّيرًا، يعرف عُقاب ذلك جيدًا. إن الإنسان يضطر أحيانًا إلى أن يتصرف على غير حقيقته بالخير أو بالشر، فكم من شيطان أجبرته ظروف معينة أن يرتدي ثوب الملائكة لكنه يكشر عن أنيابه في أول مناسبة، وكم ممن تراه شيطانًا رجيمًا لكنك لا تجد سواه واقفًا لهمومك بالمرصاد في أيامك الحالكة... أغلبُ الذين عوَّلنا عليهم من أجل الشدائد ذاتِ الأمد الطويل فشلوا في أول اختبار. تذكر عُقاب هذه الكلمات وهو يقود سيارته، والتي سمعها من رجلٍ حكيم ذات يوم...

* * *

في مخرج الشارع الرئيسي انتشرت رائحة زيت المحرِّكات في الجو، وقف حشود المشاهدين على قارعة الطريق وهم ينظرون إلى السيارات الفارهة من كل صنفٍ ولون، بعضها كان للعرض، وبعضها الآخر للبيع، تقرَّبت فتيات الليل من السائقين وأصحاب السيارات باهظة الثمن الذين جلسوا داخلها كلوردات العصور الوسطى بداخل عرباتهم الأرستقراطية

الأنيقة وهم يتفحصون الجواري من كل جنسٍ ولون في سوق نخاسة، إذ لم تكن هذه النوعية من البنات تمانع أن تكون بضاعة رخيصة الثمن، وما أقبح الأنثى حين لا تعرف قيمة نفسها، ورغم أن السيارات التي كانت في المكان كانت رياضية وتبدو بحالة ممتازة فإن المعنية بالسباق كانت ثلاث سيارات فقط، والرابعة يقودها عُقاب الذي وصل في تلك الأثناء إلى المكان وانتظر أن يفسح له الناس الطريق ليتقدم نحو مركز هذه الحشود، قال عامر متهكمًا وهو يجلس في المقعد الخلفي:

- نحن آخر الواصلين كالعادة.

أجابه عُقاب متمتمًا دون أن يلتفت إليه:

- آخر الواصلين إلى خط البداية، وأول الواصلين إلى خط النهاية.

ابتسمت عفاف وعضَّت على شفتها السفلى وهي تنظر إلى عامر وهمست مشيرة إلى عُقاب بعينيها:

- لو تعلم كم أعشق نبرة الغرور هاته في صوته.

التفت إليها عُقاب ضاحكًا، ثم قال مصححًا وهو يقود متقدمًا بين حشود الناس ببطءٍ وحذر:

- هذا ليس غرورًا يا عفاف، عند الجلوس خلف المقود قبل السباق لن يكون لديك خيار آخر سوى أن تثق بنفسك، أنا أعرف نفسي جيدًا، أعرف ما أستطيع فعله وما لا أستطيع، حاول أبي أن يجعل مني تاجرًا، حاولوا في المدرسة أن يصنعوا مني مهندسًا، درست وتخرجت فقط لأجعل أبي فخورًا بدراستي لكني كنت أعرف جيدًا أن هذا ليس ما أنا بارعٌ فيه... ما أنا بارعٌ فيه حقًّا هو هذا.

قال وهو يضرب على المقود براحة كفه بشكلٍ خفيف وشعر بالحماس عندما وصل إلى مركز الحشود... وصاح مقدِّم السباق هاني العدل فور رؤيته لسيارة عُقاب:

- انظروا مَن وصل للتو أيها السيدات والسادة... محرك الهيمي في 8 سوبر شارجر سعة 6.2 لتر عالي الأداء... أستطيع سماع صوت زفرته من هنا كشيخٍ يدخِّن سجائر خاثرة التركيز فيحرق رئتيه لكي يضيء لياليناً... إنني أتكلم عن ذات الهيكل العريض القياسي في أر إس تي سوبر ستوك مع نظام فرملة رياضي بمكابح البريمو ذات المكابس الستة... أفسحوا الطريق للدودج تشالنجر المعروفة باسمها التنافسي الدامغة وسائقها العبقري الذي لم يخسر أي سباق في المنافسات الإقصائية عن مقاطعة قنليجيا وضواحيها في سباق جائزة قنليجيا الكبرى السيد عُقاب بن الهبَّار.

رمى عُقاب السيجارة التي كان يدخنها في كوب المشروب الموضوع بجانبه وفتح النافذة ليرد التحية على الجماهير التي كانت تقف على قارعة الطريق هنا وهناك تهتف وتصيح بأعلى صوتها لتحيته، طبعت عفاف قبلة على خده وهي تقول: «بالتوفيق يا بطل». وتبادلت نظرات خاطفة مع نجمي الذي وقف للتو أمام النافذة... قال له عُقاب وهو ينظر إلى عامر وعفاف اللذين نزلا من السيارة وتوجه كل واحد منهما إلى وجهته:

- مايوركا؟

- احتلَّ المركز الأول على بُعد قرابة السبعة كيلومترات عن أقرب ملاحقيه وتأهل للنهائي.

تمتم عُقاب على مضض وهو يزم شفتيه معلِّقًا:

- كما توقعت منه ابن الرومية، ماذا لدينا هنا إذن؟

- طارق العنتر سائق الفولكس فاغن تي إس آر الصفراء هناك، ستة وثلاثون عامًا... لا أملك الكثير من المعلومات عنه.

قال عُقاب وهو ينظر إلى سيارة جولف آر زرقاء اللون:

- مسك الليل هنا؟ ألم ينهزم في سباق الربع نهائي؟

- لا تستهن به يا عُقاب، الفتى معجب بك... إياك أن تستهين بشاب معجب بك يدخل معك في سباق، لأنه يراك قدوته وسيبذل أعظم ما لديه من جهد ليهزم قدوته.

قال عُقاب بسأم:

- لا تركِّز كثيرًا مع كلامي فأنا منتشٍ، لستُ أستهين به لكني لن أنسحب خوفًا منه أيضًا، مَن هذا الذي هناك؟

قال وهو يشير إلى الشيفروليه كامارو البيضاء التي كانت مغلقة النوافذ ولا يظهر شيء بداخلها، فأجاب نجمي وهو ينظر إليها بدوره:

- هذا نفيس الفيل.

- نفيس الفيل؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل؟

قال نجمي وهو يحكُّ أنفه بعدما عطس بقوة:

- ألا تعرف أن هذا الرجل هو الوحيد من بين الجميع هنا الذي سبق له وأن وُجِدَ في نهائي سباقات قنليجيا من قبل؟

ظلَّ عُقاب ينظر إلى السيارة ويحاول تخيل شكل السائق بداخلها.

- هل فاز؟

- لا، انسحب من السباق في اللحظة الأخيرة لأسباب غامضة.

انفجر عُقاب ضاحكًا، ووقف عامر في تلك اللحظة بجانب نجمي:

- كل شيء جاهز لقد أنهيت تفقد السيارة للمرة الأخيرة، منظم السباق يقول إن الوقت قد حان، يمكنك التقدم الآن إلى خط البداية.

أومأ عُقاب برأسه إيجابًا، ثم التفت إلى نجمي:

- أنت في النهائي، ومايوركا كذلك... سألحق بكما بعد نصف ساعة فانتظرني.

ربت نجمي على كتف عُقاب محفزًا ثم انصرف...

كانت الدنيا هادئة في عقل عُقاب بعد تدخينه للسيجارة، كل مشكلاته مع أبيه أصبحت بسيطة للغاية كأنها سمكة صغيرة في البحر الكبير وهو ينظر إليها من فوق سطح القمر... هيبة المنافسة زالت في عينيه ولم يعد هنالك شيء يهمه سوى أن يصل إلى خط النهاية بأسرع ما يمكن ليتمكن في ما بعد من الاحتفال بالتأهل للنهائي.

أغلق النافذة عليه بعد انصراف نجمي، الآن بات وحيدًا تمامًا... لا عائلة، ولا أصدقاء، ولا حبيبة، يشعر دومًا أنه جثة في قبر عندما تأتي هذه اللحظة التي يكون فيها وحيدًا داخل سيارته قبل لحظات من إعطاء إشارة الانطلاق، الآن ليس له صديق سوى المقود، صندوق أسراره هو صندوق السرعة وإذا دارت حوله الحياة فهو بالتأكيد سيدور معها.

- الجميع في أماكنهم؟ هتف المنظم...

زأرت محركات السيارات الأربع، وحكَّ عُقاب يديه على المقود وهو يركز على وجهته ولا شيء سواها...

«3»...

تمتم عُقاب:

- الرجال المحترمون هم الذين يرون قُرب موتهم ببصيرة.

«2»...

وأكمل عُقاب تمتمته:

- فحتى الأعيُن العمياء يمكن أن تلتمع كالشهب في ليلٍ كهذا.

«1».

- لا تسِر وديعًا في هذا الليل الجميل.
- انطلقوا.

وقفت الدودج تشالنجر على عجلاتها الخلفية وهي تصيح من جرَّاء احتكاك المطاط بالأسفلت وتقدمت أمتارًا قليلة وهي على هذا الوضع ثم ارتطمت عجلاتها الأمامية بالأرض واندفعت بسرعةٍ هائلة وتسارُع جبَّار جعلها تصل سرعتها القصوى في الثواني الخمس عشرة اللاحقة ولم يعرف عُقاب كيف وجد نفسه فجأة يقود في المقدمة بعدما تجاوز الجميع...

قنوع الإسكافي

رفع ناظريه إلى الساعة المعلَّقة في الجدار المقابل لكرسيه فوجدها تشير إلى منتصف النهار إلا ربع... ثرثر المذيع في الراديو العتيق على الخزنة الخشبية قبالته ببعض الأخبار المحلية بين خشخشة الصوت وذبذبته ثم بُثَّتْ أغنية جميلة بعد نشرة الأخبار لأحد مشاهير الطرب وهو ينشد بصوته الفخم رائعته الشهيرة: «يا سمار ما يحلى السمر إلا بصوت الدان»، كان الإسكافيُّ يدخِّن تبغه وهو يصلح فردة جديدة عندما حجب ضوء النهار عليه أحدهم فجأة فرفع عينيه تجاه الباب متوقعًا قدوم زبون آخر لكنه سرعان ما ابتسم لما رأى الوافد إليه...

- السلام عليكم.

قال الشاب بنبرةٍ منهكة وصوت حزين:

- وعليك السلام أيها الفتى... تفضَّل بالدخول، لقد كنت أنتظرك.

(أنا تحملت مرارات الهوى والجور والنكران منك..

يا زمن يكفي ترى الحال استوى...

حتى الذي أهوى من قلبي هوى

والدار غير الدار).

ملأت بحَّة صوت المطرب خلفية المكان وصاحَبتْها رائحة تبغ الإسكافي وروائح العنبر والمسك التي تملأ المكان، فالعم قنوع يعمد إلى استعمال الروائح الزكية وملطفات الجو غالبًا لكي لا تسيطر على

محله رائحة الأحذية المنفِّرة، وهي أحد الأشياء المدهشة حول هذا الرجل الذي يدرك جيدًا كيف يجعل الناس تحترم مهنته حتى بأدق تفاصيلها...

جلس الشاب في الكرسي المجاور لكرسيه مطأطئ الرأس شارد الذهن... ولم يشأ قنوع أن يثقل عليه بالأسئلة كما في المرة السابقة بل استمرَّ في صناعة الفردة الأخيرة، ورفع رأسه فجأة لما قال الشاب جملة كادت تقسم قلبه نصفين:

- هل أجد عندك طعامًا يا عم؟ لم آكل شيئًا منذ ثلاثة أيام.

ابتسم قنوع وقال وهو يشير إلى الساعة:

- لقد وصلت في وقتك يا بني، سيصل طعام الغداء بعد قليل ولكن قل لي، إذا كنت تملك مالًا للخمرة فلماذا لا توفِّره لطعامك أفضل؟

- ما كنت سأسألك طعامًا الآن لولا أن الجوع آلم بطني، لكن إذا كنت لا تريد أن تطعمني فلا بأس.

ردَّ الشاب وهو يهمُّ بالوقوف لكن الإسكافي أمسك به وقال مقاطعًا:

- والله لا تبرح مكانك هذا حتى تشبع يا ولدي، لم يكن هذا ما قصدته بسؤالي، إنما أريد لك الخير، لماذا تركت نفسك بلا طعام لثلاثة أيام كاملة؟

جلس الشاب مرة أخرى، ثم قال بصوته المجرد من أي رغبةٍ في النقاش:

- لأنني لا أريد أن آكل.

تعجَّب الإسكافي من رد الفتى وقال له بصوتٍ أبوي حنون:

- ولمَ لا تريد أن تأكل؟ ألا تريد أن تتقوت لتعيش؟

رفع الشاب عينيه اللتين تُرِكت عليهما كثرة البكاء آثارًا كأطلال حضارة غابرة وقال بنبرةٍ مقهورة:

- الحياة لا تليق بأمثالي يا عمَّاه.

ضرب الإسكافي بكفه على فخذه منفعلًا وهتف مقاطعًا الفتى:

- أستغفر الله العظيم، عدنا إلى مثل هذا الحديث؟ ألم أقل لك إن رحمة الله وسعت كل شيء يا بني؟

أومأ الشاب برأسه بحزن بأن نعم..

- فلمَ كل هذا القنوط إذن؟

سكت الشاب للحظات، ثم نظر إليه فجأة وقال بصوتٍ ذهبت عنه روح الحياة:

- تقول إنك تعرف أبي أسعد بن هبَّار صح؟

- عز المعرفة.

رد الإسكافي على الفور...

- أتعرف خطَّ يده؟

قال الشاب في سؤال استغربه الإسكافي بعض الشيء، وأطرق قليلًا كأنما يحاول تذكُّر شيءٍ ما، ثم نهض من مكانه وتوجَّه إلى الخزنة الخشبية المتهالكة التي كان يضع عليها مذياعه وقال وهو يفتح بابها:

- أعتقد أنني أحتفظ بعض السندات التي كتبها بيده أيام كنت أتعامل معه، نادرًا ما أتحصل من وثيقة تُعطى إليَّ.

ثم دار إلى الشاب وهو يسترسل في الكلام بينما يقلب كومة الأوراق يمينًا وشمالًا:

- إنك لا تعرف أبدًا متى ستكون في حاجةٍ إلى أي وثيقة، أو ربما سيكونون في حاجة إليها بعد موتك مَن يدري.

وفتش بين الأوراق وفتَّش، فوجد نفسه يبحث بين وثائق قديمة جدًّا، بعضها من خمس سنين وبعضها من عشر، بعضها لمعاملات تجارية حول جلود وأقمشة وخيوط وعلب غراء اشتراها الإسكافي من قبل،

وبعضها لديون له إذ لم يكن عليه أي دين. *ولله الحمد*. وظلَّ الشاب ساكتًا يتفحص الإسكافي بعينين مرهقتين، منذ مدة شعر قنوع الإسكافي بأن في كلامه بلسمًا لآلام الشاب، لكن البلسم كغيره من الأدوية، مؤقت المفعول وإن طال... كان عُقاب يزوره هنا في دكانه طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية، أحيانًا يأتيه مساءً بينما يوشك قنوع أن يغلق محلَّه، فيكون الشاب ساعتها متوجهًا إلى الخمَّارة والإسكافي ذاهبًا إلى مسجد السوق من أجل صلاة المغرب قبل الذهاب إلى بيته... وأحيانًا يأتي في الصباح الباكر ورائحة الخمور تفوح من فمه وثيابه، وأحيانًا يزوره في منتصف النهار كما هو الحال عليه اليوم، ولا فرق بالنسبة إلى الإسكافي إن كان الشابُّ صاحيًا أو سكرانًا، كان يستقبله في محله في كل الأحوال، ولدى مراقبته كان يتبين له أن هذا الشاب يعيش في ملكوتٍ آخر تمامًا بعيدًا عن الحياة اليومية وطبيعة أحداثها، أحيانًا يجلس مبتسمًا يراقب الزبائن الداخلين والخارجين من المحل، وأحيانًا يتحدث عن ماضيه وينفجر بالبكاء كمَن يتخبطه الشيطان من المس... وكان قنوع يواجه ذلك كله بابتسامة أبوية حنون ويترك الشاب يخرج كل ما في صدره من هموم، قد لا يكون الكلام مع المهموم ذا فائدة إذا كان هو مَن يستمع، لكنه يكون أكثر نفعًا إذا كان هو المتكلم، فبعض الناس في هذه الحياة يمرُّون بفتراتٍ لا تجدي المواعظ والنصائح والخطابات الطويلة نفعًا معها، بعض الناس في هذه الحياة كل ما يبحثون عنه قلب صادقٌ يصغي إليهم، دون أي رد فعل أو تعقيب، ودون أن يتم الحكم عليهم بنظرةٍ استباقية، إن أسوأ ما قد تفعله لإنسان جاءك مهمومًا يفرغ ما في جعبته من أهوال اقترفها أو اقتُرِفت في حقِّه هو أن تواجه ذلك كله بأن تُصدر أحكامك الرعناء عليه، أو تتغير نظرتك إليه... وكان هذا الفتى أحد هؤلاء الناس، ولذلك لم يحاول الإسكافي بأي حال من الأحوال أن يحدِّثه عن الصلاح والفلاح... في إحدى المرَّات حاول أن يصحبه معه

إلى المسجد لكن الشاب كان أقسم بأنه غير طاهر فلم يُصِر قنوع وتركه لشأنه، غاب بعدها ثلاثة أيام ولم يظهر له أي أثر حتى يئس الإسكافي من لقياه مرة أخرى لكنه ظهر في اليوم الرابع خجولًا وجلس على الكرسي المقابل لكرسي قنوع في محله... قابله هذا الأخير بالابتسامة ذاتها وطلب له قهوة، لم يسأله عن سبب غيابه ولم يصدر أي ردة فعل حيال ذلك... لقد كان أكبر تحدٍّ يواجه الإسكافي أن يظهر الاهتمام للفتى دون أن يبالغ فيه، أن يُشعِره بأنه حرٌّ دون أن يشعره بالتجاهل، لأن المبالغة في الاهتمام تقييد، والمبالغة في منح الحرية إهمال، وبين هذا وذاك كان الإسكافي يتحرك كمغرز يدخل في الجلد بدقة فيمسك بعضه ببعض دون أن يحيد عن مساره فيفسد شكل الحذاء...

استمرَّ الإسكافي في البحث بين كومة الأوراق حتى ظهر صبيٌّ صغير يقف أمام الباب وهو يحمل صينية مغطَّاة بخرقة قماشية ناعمة.

- عمو قنوع أرسلوا إليك طعام الغداء من البيت.

دار الإسكافي الذي كان يجلس القرفصاء بجانب خزنته وأشار إلى الولد:

- أهلًا بعازف القيثارة الصغير كاماتشو، ضعها في مكانها.

استلمها عنه عُقاب، وانصرف الصبي فقال الإسكافي ضاحكًا وهو يشير إليه:

- اسمه كمال، ندلعه كاماتشو... إنه ابن جارتنا نجمة، ذكِّرني ذات يوم كي أجعلك تسمع عزفه على القيثارة، لقد وُلد عبقريًّا هذا الولد.

وما هي إلا لحظات أخرى حتى أغلق باب خزنته وعاد من هناك حاملًا في يده قصاصةً ما، وجلس قبالة عُقاب، فأشاح الخرقة على صينية الغداء، وتطايرت رائحة الطعام الشهية أكثر وأكثر فتلاعبت بعقل الشاب الجائع أمامه لكنه استحى أن يمد يده وانتبه الإسكافي

إلى حيائه فابتسم. *ابن أصل* حتى وهو في *ما* هو فيه من *حالةٍ* مزرية. كانت الصينية تتألف من ثلاثة أطباق متجاورة، أحدها به أرنب مقلي وموضوع بصحن مرق الزيتون والفطر، ومدهون بزيت الزيتون، في الطبق الآخر الأرز التي عبقت منه رائحة الهال المطحون... وأما الطبق الثالث فكانت به سلطة مشويَّة من الطماطم والفلفل الحار، كما كانت هنالك جرَّة فخارية صغيرة سكب بها لبنٌ صافٍ، وأشار قنوع إلى عُقاب بأن يتفضل، فجعل هذا الأخير يتناول الطعام بأدبٍ شديد ويأكل على استحياء، تنحنح الإسكافي وقال مستفزًا:

- حتى الفتيات في أول موعد غرامي لا تأكلن بهذه الطريقة الخجولة، خذ راحتك في تناول الطعام وكل مما بدا لك فلست قادرًا على إكمال ربع ما ترى في هذه الصينية.

حدَّق عُقاب إلى العم بشرود محاولًا أن يبتسم، ثم نظر إلى الطعام بغضب وراح يتعامل معه هذه المرة كما يليق بالرجال الجائعين، فاستعمل كلتا يديه في تمزيق فخذ الأرنب وهبش اللحم منه بأسنانه بشراهة ثم التقط ملعقة ووضع بعض مرق الزيتون فوق الأرز وراح يلتهم من البقعة المشبعة بالمرق من الأرز بشراهة ويضع ملاعق أخرى من المرق بينما يلتهم فخذ الأرنب، نظر قنوع إلى ورقة صغيرة قديمة كان قد عاد بها من كومة وثائقه وقال وهو يضعها على ركبته بينما يستلم صحفة خبز ويتناول بعض السلطة المشوية هو الآخر:

- أظن أن هذه الورقة مكتوبة بخط يد أسعد بن الهبَّار، لا أتذكر التاريخ بالضبط لكني واثق من أنها له فهذه النوعية من جلد النعام كان الوحيد الذي يستوردها في السوق...

كان عُقاب يتناول طعامه كالعاصفة حين حمل بعضًا من السلطة المشوية وتناولها وإذ بالفلفل الحار فيها يلفح لسانه، فلهث بسرعة

وهو يطلق أنفاسًا متسارعة جعلت الإسكافي يطلق ضحكةً مكتومة وهو يدفع إليه باللبن المسكوب في الكوب الفخَّاري، قبل أن يقول مستفهمًا:

- لكن لم تقل لي، لمَ سألتني إن كنتُ أعرفُ خطَّ يد أبيك؟

لحس عُقاب الدهن من أصابعه بملامحه الحزينة، ثم مد يده إلى جيبه الداخلي وأخرج ورقة تبدو قديمة مهترئة ووضعها بين يدَي الإسكافي وهو يقول:

- على هذه الورقة... كتب أبي أسعد بن هبَّار، وصيته الأخيرة لي، ثم تجرع مزيدًا من اللبن ووضع الجرَّة على الطاولة الخشبية وتوقف عن الأكل تمامًا كأنه شبع فجأة من جوع عشر سنين في لحظة واحدة، التقط الإسكافي الورقة... وفتحها، نظر إليها لثوانٍ، ثم سقطت الورقة من يده متأرجحة كقارب صيد في بحر على وشك الهياج، نظر إلى عُقاب مذهولًا وقد استحالت سكينة وجهه إلى اضطراب شديد، وقال وهو يقف مشيرًا إلى الورقة التي وقعت على الأرض:

- اسمع يا ولدي... مم... مستحيل. إنني أعرف أباك جيدًا، وأؤكد لك أن رجلًا مثله يستحيل أن يكتب وصيةً كهذه أو يطلب منك فعل شيء شنيع كهذا، مستحيل... مستحيل.

قال الإسكافي منتفضًا في مكانه...

لم يجبه عُقاب بشيء، بل اكتفى بالنظر إلى الورقتين الواقعتين على الأرض، كانت إحداهما لوصية أبيه، والأخرى للسند الذي كتبه للإسكافي قبل بضع سنين من موته، وكان الخط في كلا الورقتين... متطابقًا تمامًا!

أمغار

(حكاية حرب الحواجب السوداء: قبل أكثر من 2500 عام)

توقفنا أيها الحفيدان العزيزان، في ما مضى من سرد سالف العصر والأوان، أن الأمير نارمر بن رمسيس لم يأكل من طعام مأدبة السفير الخسيس، وعاد إلى القصر والتاع، ولم يطب له مقام ولا متاع... إذ إن صورة داليدا الجميلة لم تفارق ذاكرته يومًا ولا ليلة، وهاج بها هي الأخرى الوجدُ والهيام، وأصابت قلبها نارُ المحبة والغرام، وبعد تلك المأدبة بأيَّام... مرض الملك رمسيس مرضًا خطِرًا فلزم فراشه المُسجى بالحرير، وتعاقب عليه الأطباء من كل البلاد، وخاف على مصيره الرعية والعباد، واكتشف أمهر أطبائه وهو رجل يقال له «راع» أن في أمعاء الملك مرضٌ علاجه خارج حدود المستطاع، إذ به ورمٌ يشبه دملة الخراج، وليس يفيد معها دواءٌ ولا علاج، إلا مسكنات الآلام، والصبر مع آخر الأيام، حتى تصل ساعة الحق وتبلغ الروحُ الحلق.

فتناول الملك دواء الطبيب الجرَّاح، وزال عنه الألم مؤقتًا فارتاح، وعاد إلى مزاولة حكمه وفرح الكبير والصغير في شعبه، وعرف «راع» الطبيب أن الملك رمسيس الحبيب تعرض لمؤامرة مشؤومة، وهي أن اللحمة التي أكلها في مأدبة السفير مسمومة، فصدم الطبيبُ الأمير نارمر بالحقيقة، وأطلعه على نتائج فحوصه الدقيقة حول عيِّنةٍ كان قد أخذها

من فضلات رمسيس ملك المشرقيين، أعزكم الله أيها السامعون... وأنكر نارمر هذا الخبر، وانفجر في وجه الطبيب تنديدًا وتهديدًا، إذ أعماه حبُّه لبنت السفير الليدي داليدا... وهذا ما كان من أمر الطبيب راع الصادق ونارمر الأمير العاشق.

وأما ما كان من أمر تشارلز فقد أكَّد لأخيه ريتشارد أن رمسيس هالكٌ بكل تأكيد بعد الذي تناوله في مأدبة العيد، وأن أيامه معدودة غير مأهولة، غير أنَّ ابنه نارمر نجا من الطعام المفعم بالسموم الهائلة لأنه لم يأكل شيئًا ليلتها لأسبابٍ غريبة ومجهولة، لكنه -أي الأمير نارمر- أصغر سنًّا من أن يستطيع مواجهة جحافل جيش القارة الوسطى لما تحين ساعة الغزو، وبقيت المشكلة التي واجهتهما في التباحث حول هذا الغزو هي الذريعة التي يمكن تقديمها إلى شعوب القارة الوسطى لإقناعها بالقتال في الشرق، فالناس ملَّت من الحروب شرقًا وغربًا وباتت أمْيَل إلى السلام والطمأنينة منها إلى الكرِّ والفرِّ في ميادين المعارك... وإذا لم يكن الشعب مقتنعًا بجدوى الحرب والقتال فلا أمل في النصر والنزال، ذلك أن العنصر الأغلب من الجيش وهم الجند يُعتبرون جزءًا لا يتجزَّأ من الشعب، وحتى كبار القيادات في الجيش تشكلوا من طينة هذه الأرض وشعبها وآبائهم وأبنائهم وأصدقاء طفولتهم كلهم من الشعب، وريتشارد وتشارلز يعرفان جيدًا أنهما لن يستطيعا تحريك كتيبة واحدة نحو الشرق لو لم يكن شعبهم موافقًا على ذلك... فبقيت هذه المعضلة الوحيدة التي تُعكر صفو بال ريتشارد وتدفعه إلى التفكير في ما أراد، وهذا ما كان من أمر الملك ريتشارد وأخيه تشارلز السفير.

وأما ما كان من أمر الأمير نارمر فإنه راسل داليدا بنت السفير وكتب لها، وحدَّثها عن شعوره نحوها، وأسهب في التغزل بها وبجمالها، وختم رسالته بالمحبة والأمان، ودسَّها في باقةٍ من شقائق النعمان، وأعطى

الرسالة لنديمه ومرسوله، والذي سلَّمها بدوره إلى وصيفتها، فأقبلت هذه الأخيرة على داليدا وسلَّمتها نَص الخطاب، ولما قرأته بنت السفير طار عقلها من الفرحة وغاب، وضمَّته إلى صدرها حتى أفعمته بعطرها، وظلت تقرؤه كل يومٍ حتى يغلبها النوم، ثم حملت ورقة وقلم، وكتبت إلى محبوبها نارمر ما ألحقه بها الحب من ألم، ورشَّت رسالتها بالمسك والريحان، ووضعتها برقعةٍ منسوجة من الكتَّان، وأعطت وصيفتها إياها فسلمتها إلى مرسول الأمير، ولما وصلت إليه الرسالة هذا الأخير، قرأها بلهفة منقطعة النظير، وتخدَّر من عطر محبوبته فيها، ومن جمال كلماتها وخطِّ يدها، ورقَّة عبارتها وفصاحتها، وظلّا على هذه الحال فترة من الزمان، يتبادلان رسائل الحب والغرام في السرِّ والناسُ نيام، ذلك أن الحب يكون أصدق في الخفاء، إذ من الحكمة كتمان سره عن الأصدقاء قبل الأعداء، وأما ما كان من أمر الطبيب، فقد أفصح للملك الحبيب أن مرضه الخطِر سببه سمٌّ نادر وعجيب، وأسهب في الكلام، وشرح للملك شكوكه في المأدبة وما وُضِعَ فيها من طعام، وكانت معضلة الملك والطبيب، أن الأمير نارمر لم يتسمم رغم أنه كان موجودًا في تلك المأدبة، فكيف سلم؟ وهكذا شكَّ الملك في ابنه الأمير أنه تآمر عليه مع السفير من أجل وضعه في النعش، والتعجيل في اعتلاء العرش، فأمر بابنه الفحل، وصلبه إلى جذع النخل، وكان ذلك في سريَّة تامة دون علم السفير، حتى تكشف المؤامرة وخيطها الخطِر، فحقق رمسيس مع نارمر، وسأله عمَّا فعل وتآمر؟ وأنكر الأمير ذلك جملةً وتفصيلًا، وجدَّد ولاءه لأبيه وللقبيلة، وصارح والده بحقيقته الثقيلة، أنَّه لم يتناول الطعام في تلك الليلة، لأنه وقع في حب ابنة السفير الجميلة... وبكى نارمر وحزن على أبيه حزنًا شديدًا، وكره محبوبته داليدا، لأنها كانت جزءًا من مؤامرة تسميم أبيه، ولذلك أغرته بالحب وكذبت عليه، فعزم على الانتقام منها ومن أبيها، وصدَّق الملك ابنه الوريث، وأعطاه أمرًا بإلقاء القبض على السفير

الخبيث، فجهَّز الأمير أمهر رجاله من الجيش، وعزموا على الخروج إلى بيت السفير مع طلوع الفجر، ووصلت الأخبار إلى بيت السفير، من بعض جواسيسه في القصر، فراح يجهِّز نفسه للخروج هربًا نحو البحر، ولما علمت داليدا بالخبر، حملت ريشةً وورقةً وحبرًا، وكتبت رسالة غاية في التعجيل، تخبر الأمير أنها تريد البقاء لا الرحيل، وأنها في سبيل حبها له ستفعل المستحيل، وأرسلت الخطاب مع وصيفتها، فلما بلغت هذه الأخيرة بيت الأمير، رآها نديمه فأدخلها إليه، فغضب نارمر غضبًا شديدًا لما رآها، وضربها وآذاها، ومزق الرسالة ورماها كما يرمي اللاعب النرد، وطردها من بيته شرَّ طرد، وخرج الأمير في رجاله الأشدَّاء، للقبض على السفير ومَن معه من الأعداء، وخرج السفير وحاشيته هربًا نحو الميناء، وكانت هذه الأحداث قد وقعت في فصل الشتاء، فكان الجو ملبدًا بالغيوم متقلب المزاج، والبحر شديد الغضب متلاطم الأمواج، برودة مياهه تخترق اللحم كالزجاج، وحاول نارمر الوصول إلى السفير لكن هذا الأخير هرب وصعد السفينة، ونظرت إليه داليدا من سطحها نظرة حزينة، وراح المركب يبتعد مع هبوب الرياح، فلم تفد مطاردته براعةُ قبطانٍ ولا شجاعة ملَّاح، وفي تلك اللحظة من الزمان، وبينما الجميع على اليابسة يراقب السفينة وهي تبتعد من المكان، صعدت داليدا إلى مقدمة السفينة وهي تحمل الكمان، وعزفت عليه وأنشدت:

كلفتك يا مرسولتي بالسر والسكينة
أن تذهبي إلى نارمر في ذلك العنوان
لتخبري محبوبي عن عيناي الحزينة
وتذكريه يا وصيفتي بأيام زمان
في قلبي قد شيَّد قلعته المتينة
وزيَّن أبوابها بشقائق النعمان

فإذا أنت نسيت داليدا المسكينة

فقلبها يا أميري لا يعرف النسيان

وفعلت داليدا بعدها ما لم يخطر على بال أحد، حيث اتخذت أصعب قرارٍ في حياتها، ومن مقدمة السفينة ألقت بنفسها، إلى البحر الهائج ذي الأهوال وأمواجه العاتية كالجبال، وراحت تكافح لتسبح عائدة إلى اليابسة في الحال... سبحت بين الأمواج الجبَّارة نحو الشاطئ المليء بالأعداء وأعيُنهم الغدَّارة وعلى رأسهم حبيبها نارمر الذي كان قد تجاهل نظراتها إليه قبل قليل بمرارة...

ورأى الأميرُ نارمر ذلك، فارتمى إلى البحر ذي المهالك، وسبح نحوها بكل الطرق والمسالك، وكان برد البحر شديد العظم، لكن حرارة حبهما كانت أشد وأعظم، وسبح كلٌّ منهما في اتجاه الآخر...

❋ ❋ ❋

توقف أمغار الحكيم عن الكلام حين نامت البنت، فقال الولد بصبر نافد:

- هل ماتا في البحر؟

ابتسم أمغار ومسح على شاربه العظيم قائلًا:

- لا أدري.

قال الولد بلؤم وقد استفزته إجابة العجوز:

- كيف لا تدري ألست صاحب القصة؟

ضحك أمغار هذه المرة وقال للصبي وهو يمسح على رأسه:

- الراوي يصبح مستمعًا حين يتوقف عن السرد يا بني.

تمتم الولد مخمِّنًا بصوتٍ مرتفع:

- إذا كان الجو غائمًا والبحر هائجًا فلا أظنهما سينجوان، لكن ما مصير مملكة الشرق والملك رمسيس؟ وهل ستقوم الحرب بين مملكة الشرق ومملكة القارة الوسطى؟

أطفأ أمغار سراجه، وقال وهو يعتدل في فراشه:

- ستعرف أجوبة هذه الأسئلة مع ما تبقى من أحداث القصة إن شاء الله.

وابتسمت عديلة وهي تحبك الثوب أمام الموقد كعادتها... وما هي إلا لحظات حتى كان الجميع قد خلد إلى النوم.

أسعد

قرص البرد وجنتيه وهو يقف على الساعة الثانية وخمسين دقيقة بعد منتصف الليل أمام الباب، لم يكن متأكدًا مما إذا كان سيستطيع تبرير ما يقوم به من جنون في تلك اللحظة، ولذلك مدَّ أنامله المرتجفة إلى جرس الباب ودقَّه بتردد عنيف... كانت الأمطار قد هدأت للتو لكن السماء لا تزال ملبَّدة والغيوم تحجب النجوم والقمر، دق الجرس مرة أخرى ففتحت الباب بذعر ووقفت مذهولة من خلفه وهي تشدُّ طرفَي ثياب نومها الخفيفة إلى وسطها:

- أسعد؟

- كنت أعرف... كنت أعرف أنكِ لا تنامين في هذه الليالي تمامًا كما لا أستطيع أنا أن أنام.

قال لاهثًا وهو يسمع صوتًا زاعقًا قادمًا من الطابق العلوي:

- مَن بالباب يا سلمى؟

- لا أحد يا أبي... يبدو... يبدو أن بعض أولاد الحي يلعبون فحسب.

قالت وهي تنظر إلى أسعد بعينين مترددتين:

- يلعبون؟ في هذا الوقت من الليل؟ كم الساعة؟

قال وصوته يقترب..

نظرت إلى أسعد ولطمت خدها وقالت هامسة:

- أرجوك اذهب من هنا قبل أن تتسبب لي في مصيبة.

زمجر بيأس في وجهها وهو يقول هامسًا:

- لن أذهب حتى أعرف الحقيقة يا سلمى، ولن أعرف الحقيقة إلا إذا تسببت في مصيبة على ما يبدو.

- سلمى؟

اقترب أبوها الأعمى أكثر ووقف عند نهاية السلالم وقال بصوته الجهوري الخشن:

- مَن بالباب يا سلمى؟

خطفت أسعد من ذراعه ودفعته بسرعة إلى غرفة الاستقبال التي كان بابها مجاورًا للباب الرئيسي للبيت، ثم أغلقته وقال مهمهة:

- لا... لا أحد يا أأأ... أأبت.

همَّ بالنزول ولكنها عجلت بالصعود إليه وقالت وهي تضرب بقدميها الحافيتين على بساط السلالم:

- لا داعي لنزولك يا أبي، صدقني لا أحد بالباب، لقد ظننت أني سمعتُ حركةً ما فنزلتُ لأتفقد.

قاطعها:

- ألم يكن الجرس يضرب بقوة قبل قليل؟

- الجرس؟ أيُّ جرس؟ هل سمعت الجرس؟ لا يا أبي ليس هنالك أي جرس... مَن سيضرب الجرس في وقتٍ كهذا.

كان أسعد يقف في الغرفة المظلمة في الأسفل، يلهث ويتصبب عرقًا في هذا المناخ البارد، استمرت سلمى في المناورة وإقناع أبيها بأن ما سمعه وهمٌ من أضغاث أحلامه وليس حقيقة، وبصعوبةٍ بالغة ذهب لينام، اقتربت عندئذٍ من باب غرفة الاستقبال وهمست في الظلام «سأعود انتظرني»، ثم صعدت إلى غرفتها وارتدت ملابس أكثر دفئًا

فقد كان البرد قارصًا في الطابق السفلي، ونزلت مرة أخرى إلى غرفة الاستقبال حافية القدمين لكي لا يسمعها أبوها الذي كان صوت شخيره يملأ الطابق العلوي... إنها تقيم وحدها مع أبيها حيث سافر أخوها منير للعمل في الخارج بينما تُوفيت أمها منذ زمنٍ بعيد، وقد كان أسعد معجبًا بسلمى إلى حدٍّ ما، لكنه لم يكن يتصور يومًا أنه سيراها بملابس نومها دون أن يحرِّك ذلك فيه شيئًا، فعندما يشتدُّ الحزن بالإنسان تموت فيه الرغبات والمشاعر كلها...

دخلت «سلمى عاصف» إلى غرفة الاستقبال مرتدية جبَّة طويلة وسترة صوفية فوقها، وأشعلت سراجًا صغيرًا كان فوق خزانة الأغراض بدلًا من الإنارة الكهربائية لكي لا تلفت نظر أبيها الأعمى، ثم نظرت إلى أسعد وشعرت بالشفقة عليه، ورثت لحاله، ذلك الشاب الأنيق الوسيم الذي كانت تلتقيه في المكتب بين الفينة والأخرى في وقتٍ سابق عندما كان يزور والده هناك بات اليوم ذا وجه طويل هزيل كأنه وجه حصان ميت، ملامحه شاحبة وعينيه بهالتين سوداوين تحتهما وجسد هزيل أكله التفكير والقلق إذ لا شيء يسبب الهزال في الأجسام ككثرة التفكير... لكنها قالت متظاهِرة بعدم الاكتراث بمظهره:

- ماذا تريد مني؟

لهث أسعد وهو ينهار جالسًا على الأريكة:

- مضت عشرة أيام يا سلمى... عشرةُ أيامٍ على موت أبي... بحثت في كل مكان عن جوابٍ لسؤالي، في كل مكان... في إدارة معهدكم، في دوائر الشرطة، في المستشفى وفي مكتب الطب الشرعي، لا أحد يريد أن يُطلعني على حقيقة ما جرى، لماذا؟ كيف؟ وأين؟

قالت سلمى مؤنِّبةً وهي تشبك يديها:

- ألست مؤمنًا بقضاء الله وقدره؟

قاطعها قبل أن تنهي كلامها ووبخها وهو يصرخ هامسًا:

- لست هنا في الثانية ليلًا لأسمع دروسًا في العقيدة يا سلمى... أنتِ كنتِ تعملين معه، كنتِ من أقرب موظَّفات المعهد إليه، أنا لا أبحث عن الحقيقة كلها عندكِ لكني واثق من أن لديكِ رأس خيط على الأقل.

أومأت برأسها وقالت مدهوشة:

- ألم تتعب؟ انظر إلى نفسك، لقد هلكت يا أسعد.

مرة أخرى قال على مضض:

- لماذا تراوغين؟ كان أبي يثق بكِ، كان أبي يحبكِ... ولولا أنه عرض عليَّ أن يخطبكِ لي يومًا لشككتُ أنه كان يريدكِ لنفسه... أهكذا تجازينه على حبه لكِ؟ بأن تسكتي على موته الغامض وتعتبري الموضوع مجرد قضاء وقدر؟

ظلَّت سلمى تحدِّق إليه وقد عكَّر التفكير وجهها الجميل هي الأخرى ولم تقوَ على قول شيءٍ بينما راح يضيف:

- البروفيسور ماجد بن هبَّار لم يمت ميتةً طبيعية يا سلمى، أبي لم يمت ميتةً طبيعية، تقولين إنني أهلك نفسي؟ إنني لا أستطيع أن أنام، لم أنم منذ سماعي الخبر، إنني أراه في كل مكان، في حلمي وفي يقظتي، محاولة تصوُّر ملامح وجهه وهو ممدد في لحده لا تفارق مخيلتي يا سلمى، أشعر... أشعر أن روحه تتعذب ما دمنا لم نكتشف حقيقة موته.

ظلَّت تنظر إليه... ومرة أخرى لم تقوَ على قول شيء، ساد الصمت بينهما للحظات، قبل أن يسلِّم أسعد بالأمر أخيرًا وتبدو عليه آثار الاستسلام، فطأطأ رأسه وقام من الأريكة وقال وقد همَّ بالخروج:

- لم تبقَ إلا طريقة واحدة لأعرف الحقيقة إذن... سأذهب عند أبي وأسأله بنفسي.

قامت منتفضةً من مكانها وقطعت عنه الطريق نحو الباب ووضعت كفَّيها على كتفيه وهي تقول بصوتٍ مرتفع وقد نسيت وجود أبيها النائم في الأعلى:

- أسعد... لا... لا أرجوك يا أسعد... لا تفعل ذلك بي أرجوك.

نظر إليها، ورأى الصدق يصرع الكذب في عينيها، فجلس على الأريكة مرة أخرى ولم يقل أيَّ كلمة، وسكتت بدورها، فعمَّ الصمت أرجاء الغرفة كأنهما غير موجودين فيها، جلست على الأرض وقالت وهي تحاول منع الدموع من الانهمار من عينيها:

- أنا... لا أريدك أن تتورط في المتاعب يا أسعد، أنت لا تشعر بي وتتصرف بأنانية، كل ما يهمك هو أن تُرضي فضولك.

قاطعها وقال غاضبًا:

- فضول؟ أتسمين رغبتي في معرفة حقيقة موت أغلى إنسانٍ في حياتي فضول؟ مَن منا لا يشعر بالآخر الآن يا سلمى؟

أشارت برأسها نفيًا، وقالت وهي تمسح أولى قطرات الدموع عن عينيها:

- حسنًا... أعترف أنك على حق، موت البروفيسور لم يكن طبيعيًّا على الإطلاق.

سكت تمامًا وهو ينظر إليها، كانت عيناها محمرَّتين وليس في وجهها أي ذرَّة شعور... أضافت:

- بحثتُ بنفسي حول هذا الموضوع، لقد صدمت مثلك تمامًا بخبر موته، سألت مدير المعهد الجديد الذي حلَّ محله فأنكر

أن يكون على علمٍ بالموضوع، وحين شعر بأنني أحاول البحث لمعرفة الحقيقة أرسل إليَّ مع أحد قدامى الموظَّفين في المعهد يُهدد بفصلي من العمل بطريقةٍ غير مباشِرة إن أنا لم أغلق هذه السيرة كما قال، التقيت الطبيب الشرعي الذي أجرى له تشريح الجثة بصعوبةٍ بالغة وقد أجابني بجملةٍ واحدة: «آنسة سلمى أنا أحرِّم عليك أن تأتي على ذِكر قضية البروفيسور ماجد أمامي مرةً أخرى»، اطلعت على التقرير النهائي للطب الشرعي أكثر من عشر مرات ولم أجد فيه شيئًا مهمًّا، وهنا كانت المشكلة أيضًا.

قاطعها وقال متمتمًا:

- لقد اطلعت على ذلك التقرير نعم، كان عاديًّا أكثر من اللازم.

- هل ذهبت جنوبًا؟

قالت بنبرة مترددة للغاية، فرفع بصره إليها وأضاف بصوتٍ أكثر وضوحًا:

- المستوصف؟ توجهت إلى هناك قبل يومين، أخبروني أن المدير أخذ عطلة مرضية بعد يومين من وفاة أبي، قرأت التقرير الذي أعده الطبيب المناوِب.

قالت سلمى بفضول مقاطِعةً:

- ماذا وجدت فيه؟

مدَّ يده إلى جيب سترته الداخلية وأخرج ورقة مكوَّمة وممزقة، وقال:

- إحدى العاملات في المستوصف أخبرتني أن هذا كان التقرير الأصلي الذي كتبه الطبيب، قبل أن يقوم بتعديله إلى تقريرٍ آخر ويقوم بتمزيق هذا عشية اليوم الموالي، في التقرير الرسمي

-الذي أعاد الطبيب كتابته- يقول إنه كان قد عُثر على البروفيسور ميتًا عند باب المستوصف وكانت عليه آثارُ ذبحةٍ صدرية حادة.

قالت سلمى مقاطعة:

- تمامًا كما ما ورد في تقرير الطب الشرعي... ذبحة صدرية.

سلمها أسعد الورقة الممزقة، فتحتها... نظرت فيها وقرأت محتواها لوهلة، ثم وقفت مصعوقة وشهقت بأعلى صوتها وقد جحظت عيناها من الصدمة...

- يا ربي الرحيم ما هذا؟

عُقاب

وضعت أناملها على أنامله، كانت أظفارها مطلية باللون الأحمر، شبكت أصابع يديها بأصابع يديه، والحياة لازوردية من حولهما، مروج خضراء على امتداد البصر، وبعينين ذابلتين حزينتين وصوت أشبه بانسكاب الشوكولاتة الذائبة على قطعة الحلوى قالت له: «أتعدني يا عُقاب؟». ملمس أناملها ولطافة صوتها، والحزن في نبرته: «أعدكِ بماذا؟». قالت وهي تهزُّ كتفيها بإصرار: «قلت لك عِدني». تماوجت السحب من تحت قدميهما، كما لو أنهما كانا يقفان على أرضٍ من سحاب. «عِدني». همَّ عُقاب بأن يجيبها. «أعد». لكن الدنيا مادت فجأة من تحتهما، وتحول السحاب من أرض تحتهما إلى أبخرة لا تقوى على حمله فانتفض في مكانه مرعوبًا على وقع شعوره بالوقوع من مكانٍ مرتفع «لاااا».

نظر إليه كل مَن كان هناك في البار، كوب مشروب مثلج قبالة عينيه وعفاف تقطِّع بعضًا من كعكتها المحلَّاة بالشوكولاتة المذوَّبة... رفعت بصرها إليه بعدما كانت تركز مع صحنها:

- ما بك يا عُقاب؟

كانت رقبته تؤلمه بشدة، وتذكَّر أنه قد جاء إلى الحانة معها قبل قليل لكن النعاس غلبه فخلد إلى النوم بعدما أنهكه التعب، كانت الحانة فارغة حين وصلا لكنها الآن تعجُّ بالزوَّار، رسمت الطاولة علامة حمراء تشبه آثار الحجامة على جبهته إذ كان نائمًا عليها، وقال متثائبًا:

- لا عليكِ، إنها أضغاثُ أحلام ليس إلا... كم مضى عليَّ وأنا نائم؟

لم تكن مجرد أضغاث أحلام، إنه ذلك الحلم ثانيةً.

- قرابة الأربعين دقيقة.

قالت وهي تقضم بعضًا من كعكتها، مسح على عينيه وهو يحاول تذكُّر الفتاة في الحلم، الحلم الذي كان أطلق عليه «الحلم اللازوردي»، هذا الحلم الذي يعاوده في كل مرة، وأحيانًا ينتابه حتى في يقظته... لكنه قرر تجاهله كعادته وحمل كوب الشراب وأخذ منه رشفة ثم أعاده إلى مكانه وجلس يراقب عفاف وهي تلعق بلسانها بقية ما علق من الشوكولاتة الساخنة على شفتها السفلى، كل ذلك تحت أنظار عُقاب، الذي كان يشتهيها في تلك اللحظة كما تشتهي هي كعكتها، وأخذ رشفة أخرى مستعجلة من المشروب المثلَّج وهو يتبادل النظرات معها فابتسمت بخبث وهي تقول:

- أليس غريبًا أن تشرب بهذه الشراهة وأنت منتصرٌ قبل أيام؟

- وما الغريب في ذلك؟

- الإنسان عادةً يسكر لكي ينسى، ما الذي لديك لكي ترغب في نسيانه؟ لديك كل شيء... الثروة، المجد، الأصدقاء... وأنا!

قاطعها وهو يلعب بسبابته في زجاج الكوب البارد أمامه:

- الثروة والمجد والـ... تحيِّرينني يا عفاف، أتساءل أحيانًا لماذا يجب أن تكون كل فتاةٍ جميلة بهذا الغباء؟

انفجرت ضاحكة وهي تشرب جرعةً من العصير لتساعدها على ابتلاع لقمتها وقالت مستنكرة:

- لمَ أنت لئيم هكذا معي اليوم؟

نظر من حوله وقال ساخرًا:

- كل الذين في هذا النادي الليلي من علية القوم، أغلبهم أناسٌ مرفَّهون بل ربما جميعهم حتى النادل الذي جلب لكِ هذه الكعكة يركن سيَّارة فارهة في المستودع أسفل هذه البناية، كل رجلٍ هنا يصحب معه فتاة حسناء بفستانٍ فاخر يساوي راتب ستة أشهر لأكثر الموظفين حظًّا في قنليجيا، أغلبهم قضاة ورجال أعمال لم يعرفوا الفشل في حياتهم قط، ورغم ذلك كله، ها هم يستهلكون من الخمور ما لا يستهلكه أكثر المشرَّدين فقرًا وتعاسة في شوارع قنليجيا.

- أمم، تريد أن تقول لي إن الموضوع لا علاقة له بالمال والمجد؟

قال عُقاب بصوتٍ مرتفع وقد بدأت السكرة تطيح بعقله:

- انظري إليهم، انظري إلى وجوههم، هؤلاء المتحضِّرون الذين يلقون بأنفسهم وبأحمالهم على كاونتر البار عشية كل يوم ليشربوا كأسًا أو كأسين، هل ترين في أعيُنهم أيَّ مؤشر من مؤشرات السعادة؟ يجيؤون إلى هنا ومعهم حكاياتهم، يثرثرون بها بلا بلا بلا في الهواء، ثم يغادرون تاركين وراءهم كراسيهم موحشة من دونهم كما كانت موحشة بهم، لأنهم فارغون أساسًا ولا شيء مليء فيهم إلا جثثًا ضخمة بألبسة باهظة.

نطق أحد الموجودين في النادي وقال متهكمًا:

- وما الذي فعلته أنت في حياتك لتكون أفضل من هؤلاء الموجودين هنا؟

نظر عُقاب إلى مصدر الصوت، فإذ به كهلٌ ذو جسد هزيل وقبعة شمسية متهالكة وذقن بدا أنه لم يحلقه منذ أشهر، فابتسم وعاد بناظريه إلى عفاف وقال وهو يردُّ عليه متهكمًا:

- قد أكون عديم الجدوى، قد أكون فاشلًا، لكني لم أنسحب من نهائي سباق قنليجيا في اللحظات الأخيرة.

أوجست عفاف خيفة من ردة فعل الكهل الجالس خلفه، لكنه التزم الصمت ولم يقل كلمة أخرى، بينما همس لها عُقاب ضاحكًا:

- ألم تتعرفي عليه؟

- كلا... مَن يكون؟

- إنه نفيس الفيل، المتسابق الذي احتلَّ المركز الثالث في سباق النصف نهائي.

قالت عفاف متعجبة وهي تسترق النظرات إليه:

- سائق الشيفروليه كامارو البيضاء؟

- أجل... يقال إنه قد وصل إلى نهائي قنليجيا من قبل لكنه قبل بداية السباق...

في تلك اللحظة وصل كلٌّ من عامر ونجمي وجلسا على الكرسيين الآخرين في الطاولة وهتف نجمي على النادل وهو يقول:

- ألن تشربوا شيئًا؟

رفع عُقاب كأسه وهو يقول:

- هل أنهيت طلب القطع الناقصة؟

- ماذا عنك؟

ردَّ نجمي عليه السؤال بسؤال وقد أجابه بإيماءةٍ بأن نعم، فقال عُقاب وهو يشير إلى عامر:

- إذا أفلس أبي يومًا فإن هذا الوغد سيكون السبب، إنه لا يكفُّ عن طلب المزيد من قطع الغيار في كل مرة.

ضحك نجمي وراح الميكانيكي خشن الهيئة يرد عليه متهكمًا:

- مَن أراد أن يفوز في النهائي فعليه أن يصرف عليه، هذه القاعدة معروفة وليست من اختراعي، حذرتك ألف مرة قبل كل سباق تدخله سواء رسمي أو غير رسمي، أنت سائق بارع لكنك سائق متهور أيضًا والسيارة التي أسلمها لك في عز ألقها قبل السباق تعيدها إلى الجراج كومة من الخردة بعده.

قال نجمي مدافعًا عنه:

- لا تلمه يا عامر، القيادة في السباقات ليست بالسهولة التي تتصورها.

- ما الذي يعرفه رجل الكهف هذا حول القيادة يا نجمي؟

قال عُقاب بسأم فانفجرت عفاف ضاحكة بينما ردَّ عامر ساخرًا:

- رجل الكهف الذي يُصلح سيارتك قبل كل سباقٍ يا ناكر الجميل.

- يا عامر... يا عامر أتدري كم كانت كلفة إصلاح السيارة آخر مرة؟ ما يكفي لشراء ثلاث سيارات أخرى... لقد اضطررت إلى بيع أريكة صالون بيتنا من أجل شراء الإطارات، أشفِق عليَّ قليلًا.

قال عامر ضاحكًا وهو يلتقط كؤوس الشراب من النادل:

- ستفوز بالسباق النهائي، وستعوِّض خسائرك المالية كلها.

- قل هذا الكلام لعمك أسعد.

ردَّ عليه عُقاب وهو يأخذ رشفة أخرى من مشروبه، فسأله نجمي متذكرًا:

- كيف حال العم؟

وضع عُقاب الكأس في مكانها وقال بنبرة جادَّة:

- من سيِّئة إلى أسوأ، المرض يستشري في جسده يومًا بعد الآخر، أحيانًا أضطر إلى ارتداء سماعات الأذنين ليلًا لكي أستطيع النوم بعيدًا عن أنينه.

ساد الصمت طاولة الأربعة، لم يقوَ عامر الميكانيكي على قول كلمةٍ واحدة إذ لا يجيد التكلم في هكذا مواقف، بينما تلوَّن وجه نجمي واختفت عنه بشاشته، كسرت عفاف ذلك الصمت الرهيب مبتسمة:

- ها أنتما معًا إذن، الرجلان الوحيدان في هذه البلاد اللذان بإمكانهما هزيمة مايوركا ابن الرومية.

تبادل عُقاب ونجمي النظرات، قال عامر بعدما شرب هو الآخر:

- البنت على حق، مايوركا حقق انتصارات دامية في سيزيف، لم يتمكن أحدٌ من الاقتراب منه، بعض السائقين أطلقوا على سيارته لقب السراب، إنه يحسم السباقات بمسافاتٍ هائلة وسبب ذلك أن جودة محرِّكه لا تُضاهى هنا في بلادنا، أجريت بعض الأبحاث حول سيارته، تويوتا سوبرا التي يطلق عليها لقب «صقر الجديان» بها محرك عجيب قوةً وأداءً، لا أظن أن لديك فرصة أمامه يا نجمي.
- إنها المرة الرابعة التي تقول فيها هذا الكلام اليوم... ما قصتك يا أخي؟ أتريدني أن أنسحب؟

قال نجمي بسأمٍ وهو يرد على كلام الميكانيكي، وتذكر عُقاب انسحاب نفيس الفيل فانتابته موجة ضحك قطعها قبل أن تبدأ وقال متسائلًا:

- لماذا نجمي تحديدًا لا يملك فرصته أمامه؟ ماذا عني؟

همَّ عامر بأن يرد لكن نجمي قاطعه وردَّ نيابةً عنه:

- لأن الدودج تشالنجر خاصتك هي السيارة الوحيدة في البلاد كلها التي يمكنها -تقنيًّا- أن تقف في وجه تويوتا سوبرا التي يمتلكها، قوة وثبات وسرعة سيارتك في المضمار يجعلها الأوفر حظًّا في مقارعة صقر الجديان، لكني لا أومن بالتفاصيل التقنية كثيرًا كما تعلم، كل ما تملكه من إمكانيات رهيبة في سيارتك ورغم ذلك حسمت أمر تأهلك للنهائي بصعوبة في الجولة الأخيرة، إنك مشتت التركيز مؤخرًا يا عُقاب وهذا أكثر ما يُقلقني قبل النهائي، لكي نهزم هذا الوحش علينا أن نعمل معًا، وأن نستغلَّ كل قطعة معدنية في سيارتَينا أحسن استغلال، وتذكر دائمًا كما أخبرتك من قبل، ليست التفاصيل التقنية مَن تحدد قوة وسرعة السيارة، بل الرجل الذي يجلس خلف مقودها... إذا عملنا معًا سنتمكن من هزيمة ابن الرومية هذا.

همس عامر في تلك اللحظة:

- تكلم عن العقرب وسيظهر أمامك فجأة.

لم يكد عُقاب يلتفت خلفه حتى وقف أمام طاولتهم رجلٌ طويل القامة أشقر الشعر بإحدى عينيه زرقة تكاد تضيء بينما عينه الأخرى خضراء، قال وهو يلقي التحية على الجميع:

- يا لها من مناسبة سعيدة، سمعت أن منافسيَّ الكرام يسهران هنا في ملهى الألف ليلة فلم أصدق، قلت لعلَّ الأخبار التي وصلت إليَّ مغلوطة.

قال عامر بلكنته الخشنة:

- يبدو أنك متابعٌ جيد لأخبارنا إذن.

نظر إليه وردَّ عليه بنبرةٍ هادئة للغاية:

- في الحيِّ الذي نشأتُ فيه يقولون عندما يتحدث السائق فعلى الميكانيكي أن يخرس.

همَّ عامر بالوقوف لكن عُقاب وضع يده على ذراعه ومنعه، بينما جلب مايوركا في تلك الأثناء كرسيًّا خامسًا وجلس بين عُقاب وهديل، كانت تفوح منه رائحة عطر داكنة واستطاع عُقاب أن يرى قلادته الذهبية التي كانت تتدلى من رقبته على صدره، وقال نجمي في تلك اللحظة مبتسمًا:

- سررنا بقدومك سيد مايوركا، في الواقع كنا...

قاطعه الرجل الأشقر وهو يُشعل سيجارة:

- اعفِني من نفاقك الدبلوماسي الآن يا نجمي، وأخبرني... أهذا هو سائق الدودج تشالنجر الذي تتحدثون عنه؟

قال وهو يشير إلى عُقاب، الذي ظلَّ يراقب الوضع دون أن يقول شيئًا.

- لماذا جئت إلى هنا مايوركا؟ لكي تفسد علينا ليلتنا؟

سأله نجمي بسأم، وحمل كوب شراب عُقاب وتشممه قليلًا ثم وضعه من جديد على الطاولة وقال ساخرًا:

- ويسكي؟ أليس حرامًا في دينكم أن تشربوا الكحوليات؟ يا لهذا العار.

تمالك عُقاب نفسه، ولم يقل شيئًا... بينما استشاط نجمي غضبًا وهو يضرب الطاولة قائلًا:

- مايوركا... أنت تعرف جيدًا أنني لا أحب أن أُتجاهَل، سألتك لمَ أنت هنا؟

التفت إلى عفاف، وقال لها بصوتٍ ناعم مصطنع:

- أخبري صديقكِ أنني هنا من أجلكِ يا عزيزتي.

ووضع أنامله على خدها، وراح يحركهما نحو مؤخرة عنقها... في تلك اللحظة حمل عُقاب كأس الشراب وخبط بها رأس ابن الرومية بقوة فتطاير الزجاج على المكان منتثرًا وصاحت عفاف بأعلى صوتها بعدما أصابت بعض الشظايا فخذها وسالت منه الدماء، وقفز المرافقون الشخصيون لمايوركا على عُقاب فقام نجمي وقلب الطاولة، وصاحت الفتيات اللواتي في المكان، وارتمى عامر على أحد رجال مايوركا بجبهة إلى منتصف أنفه، واندلع شجارٌ حاد حيث قام كل مَن في النادي ليدافع على عُقاب ونجمي وعامر ضد مايوركا ورجاله الأجانب، مايوركا الذي سقط أرضًا يحاول تحسس أي شيء يساعده على الوقوف بينما ارتمى عليه عُقاب ولكمه مرة أخرى قبل أن يركله أحد الحراس الشخصيين والذي تلقى ضربةً بكرسيٍّ على ظهره من عامر الذي شتم أمهات الجميع وزأر بصوته الخشن: «إذا اقترب أحدكم من صديقي فسأركله خارج هذه البلاد». ولم يكد يُنهي جملته حتى رماه أحدهم بزجاجة مشروب فتحطمت على رأسه، ولم يعد أي شيءٍ واضح في المكان، استمرت موسيقى الجاز الهادئة في الخلفية والتي تأتي من مذياعٍ قديم أنيق لم تطله أقدام المتشاجرين وأياديهم بأعجوبة، حيث تحول المكان إلى ساحة معركة طاحنة وعمَّ صوت الضربات والصراخ وشتائم عامر الميكانيكي التي أخجلت حتى فتيات الليل على ما هنَّ فيه من قلة حياء، تسلل عُقاب تحت الجميع وهو يبحث عن عفاف لحمايتها من تطاير الزجاج والكراسي ووصل بصعوبة إلى عامر الذي كان يمسك بالشخص الذي رماه بزجاجة المشروب ويوسعه ضربًا فنكزه عُقاب، التفت الميكانيكي إليه وكاد يضربه حتى تأكد في اللحظة الأخيرة من أنه صديقه.

- ستصل الشرطة بعد قليل... اترك هذا الكلب من يدك وابتعِد من هنا... بسرعة.

- ماذا عنك؟

- سأذهب مع عفاف، أين عفاف؟

- لا أعرف... لا أعرف.

نادى بأعلى صوته عليها: «عفاف؟... عفاااف؟». لكن لا أحد أجاب سوى صوت الشتائم والشجار، تسلل عُقاب إلى الخارج، وبعد دقائق اقتحمت الشرطة المكان وأطلقوا النار في الهواء فهرب الجميع وتفرقوا واختلط الوضع أكثر وخرج عُقاب من الملهى بصعوبة، كان المطر يتساقط بغزارة في الخارج ورجال الشرطة في كل مكان، ركض عُقاب متمايلًا وحاول أن يقفز متخطيًا بركة ماء فزلق في الوحل وسقط على ظهره بقوة، قام من مكانه يعرُج ولحق به شرطيان: «أنت هناك قف عندك!».

دخل إلى شارع فرعي وركض عبره إلى الطريق الرئيسي وما إن خرج فيه حتى وجد نفسه أمام طريق خالٍ ورجال الشرطة تركض من خلفه... في تلك اللحظة توقفت أمامه سيارة بيضاء لم يتبيَّن ماركتها، فتح زجاج نافذتها وصاح به صاحبها:

- اركب بسرعة.

ركب متألمًا مرتجفًا من البرد وأغلق زجاج النافذة، التفت إلى الرجل الذي يقود وقال مدهوشًا بعدما تعرف عليه: «أهذا أنت؟!».

أسعد

شعر بترددها وهي تسير خلفه حثيثة الخطى ناظرة يمينًا وشمالًا. «*لا داعي لأن تستحي من دخول هذا البيت فستكونين سيِّدته قريبًا*». فتح أسعد الباب وسبقها بالدخول، ومرة أخرى تساءلت:

- لِمَ نحن هنا يا أسعد؟

كان بيت آل الهبَّار خاليًا تمامًا، قصرًا ضخمًا لا روح فيه... لكن كل شيء كان مرتَّبًا بعناية والمكان نظيف على نحو مدهش فالخادمات تقمن بواجبهنَّ على أكمل وجه، تقدم أسعد دون أن يجيب بكلمة، وراح يصعد الأدراج نحو الطابق العلوي عندما وقفت سلمى في البهو أمام المدخل وقالت بصوتٍ حادٍّ:

- لن أتقدم خطوةً واحدة إن لم تخبرني لم نحن هنا؟

التفت ونظر إليها، إلى خلو المكان من حولهما والخوف في عينيها، ثم قال أخيرًا:

- لم يتبقَّ الكثير لتعرفي، اتبعيني فحسب.

واندفع نحو الأمام، فصعدت الأدراج وتبعته على مضض، في الطابق الثاني من البيت كان هنالك بابٌ خشبي فتحه أسعد بمفتاح خاص، وطلب منها أن تتفضل إلى الداخل، كان المكان عبارة عن مكتب أنيق مرتب مع مكتبة مُلحقة به، ونافذة عظيمة مطلة على الحديقة الخلفية للقصر، قال أسعد بصوتٍ حزين وهو يتقدم نحو المكتب:

- لقد كنت أبحث عن الحقيقة في كل مكانٍ يا سلمى، حتى جاءت الحقيقة إليَّ.

- أيُّ حقيقة؟

جلس على الأريكة المجاورة للمكتب وقال وهو يُشير إلى صندوق خشبي أسود وضع على سطحه:

- حقيقة موت أبي.

اقتربت سلمى من المكتب، ووقفت عنده وأمعنت في النظر إلى الصندوق ورسوماته ذات الطابع القديم.

- ماذا؟ ما بكِ؟

قال أسعد فردت عليه:

- هذا الصندوق، أشعر بشكلٍ ما أنني رأيته من قبل.

قاطعها وهو يشير إلى المكتب بعينه:

- قبل الصندوق، ألم يلفت انتباهكِ أي شيء آخر هناك؟

نظرت إلى جانب الصندوق فرأت مظروفًا ورقيًّا موضوعًا أمامه، مختومًا باسم البروفيسور ماجد بن هبَّار، مدت يدها إلى الظرف متعجبة وقبل أن تسأل عن أي شيء قال أسعد:

- عشية أمس كنت جالسًا في الصالون رفقة صديقي عاكف عندما أخبرتني الخادمة أن شخصًا غريبًا يقول إنه من أعز أصدقاء الوالد قد جاء ليُعرب لي عن تعازيه ومواساته.

قالت متهكمة وهي تقلِّب الظرف بين يديها:

- بعد أكثر من أربعين يومًا على وفاة البروفيسور يأتي لتقديم واجب العزاء؟

- تعجبت مثلكِ تمامًا، وطلبت منها أن تُدخله، كان رجلًا ممتلئ الجسم متوسط القامة شديد الأناقة، إنني أعرف أصدقاء أبي واحدًا تلو الآخر لكن هذا الشخص كان غريبًا عليَّ ولم أره في حياتي من قبل، كان يحمل في يده طردًا مغلفًا بعناية، قال إنه أمانة من عند الوالد.

بدأت ملامح وجه سلمى تتبدل، وهي تصغي إلى أسعد الذي أضاف:

- فهمت من كلامه أن أبي قد ائتمنه على هذا الصندوق وما فيه، وطلب منه أن يُسلمني هذه الرسالة التي بين يديكِ الآن.

سرت رجفة خفيفة في كامل أنحاء جسد سلمى وهي تجلس على الكرسي قائلة:

- أتعني أن هذه...

- أجل، وصية أبي... وقد أردتكِ أنتِ بالذات أن تطلعي عليها بشكلٍ شخصي.

- أأنت واثق من أنه هو الذي كتبها؟

قالت وهي تُخرج الرسالة من المظروف بفضول وقبل أن يجيبها عرفت خطَّه على الفور، وكيف لا تعرفه وهو الرجل الذي اشتغلت تحت إمرته لأكثر من أربع سنوات ودرست عنده في الكلية قبل ذلك كله...

أشاحت خصلة شعرها البنيَّة عن عينها وراحت تقرأ بفضولٍ ونهم:

إلى سندي، ووليدي ووحيدي، أسعد:

لطالما عشتُ لأجلك يا بني، ولأجل اسم عائلتنا الذي أخبرتني يومًا أنه أغلى مني ومنك، ولأني أحبك يا أسعد فقد أخفيتُ عنك أشياء كثيرة كنت أعزم أن أُطلعك عنها في الوقت المناسب، لكن الأجل على ما يبدو قد يكون أسرع إليَّ من الوقت المناسب هذا...

رفعت عينيها نحو أسعد وقالت:

- البروفيسور كتب هذه الرسالة على عجل، هذا الأمر واضح من أسلوبه.

قال أسعد وهو يستند إلى الأريكة:

- أكملي.

إذا كانت المعلومات التي بحوزتي صحيحة فإن هذه الرسالة ستكون آخر كلامٍ بيننا، لذلك، إذا كنت تقرأ هذا فهذا يعني أنني ميتٌ الآن، كم ترعبني فكرة أن أبعث برسالة إلى المستقبل، أنت لا تعرف معنى أن يحمل الإنسان قلمًا ليقوم بتوثيق نهايته... ستساعدك معاونتي سلمى عاصف في معرفة فحوى الاتفاق السري الذي جرى بين أسلافنا من آل الهبَّار وبين قيادات الدولة الحالية عند تأسيسها، إذ لا أملك الكثير من الوقت الآن لسرد كافة هذه التفاصيل.

مرة أخرى رفعت رأسها عن الرسالة ونظرت إليه، وقالت في دهشة:

- موضوع ميثاق القبة الخضراء طويل وشائك، أستغرب أنه يأتي على ذكر هكذا موضوع في آخر رسالةٍ له.

- أكملي قراءة الرسالة.

أجابها أسعد ولم يقل أي كلمةٍ أخرى غير ذلك...

وراحت تقرأ بلهفةٍ شديدة حتى وصلت إلى قوله:

أكتب إليك هذه الكلمات وأنا في مكتبي إذ وصلت إليَّ مكالمة مستعجلة من ورشة التنقيب تفيد بأنهم قد عثروا على ما يشبه الرواق الصخري، وإن كانت معلوماتي صحيحة فإن هذا الرواق يقود إلى حجرة الدفن.

نظرت إلى أسعد وقد تقلصت عيناها من الضغط والدهشة، وارتجفت وهي تنظر إلى ذلك الصندوق الأسود الموضوع على سطح المكتب

برعبٍ شديد حتى إنها أوجست منه خيفة وانتفضت قائمةً من مكانها وتراجعت نحو الوراء، ثم لهثت ونظرت مرة أخرى في الرسالة بتوتر شديد ووقعت عيناها على عبارة من الرسالة:

...ولذلك أخفيت عنك أمر هذا المشروع يا بني، لأني كنت أعرف أن كلفة نجاحه ستكون حياتي!

أوصيك بالعائلة، ذات يومٍ قال رجل حكيم: «كل شيء كان من أجل العائلة»، وهذه الفتاة التي اشتغلت تحت إمرتي في المعهد، سلمى، كانت طالبتي وتربَّت على يدي مثلك أنت تمامًا، بها أوصيك يا أسعد، تزوجها على فرض الله وسنة رسوله، وحافِظ على هذه الأمانة وهذا الإرث الثقيل.

حدَّقت جيدًا إلى الصندوق الموضوع على المكتب، وبدا أنها تذكرت أين رأته، اقتربت منه وسرت قشعريرة على كامل جسدها وهي تنظر إليه موضوعًا أمامها، مدَّت يدها المرتجفة إليه وأمسكت بجزئه العلوي، وفتحته بحذرٍ شديد فأصدر صريرًا عتيقًا وهو ينفتح بينما أغمضت عينيها وهي تفعل ذلك، ثم خفضت رأسها نحو الأسفل، وفتحت عينيها شيئًا فشيئًا، وما هي إلا لحظة أخرى حتى شهقت بانبهارٍ شديد على ما رأته داخل ذلك الصندوق، وأسندت نفسها على المكتب إذ كادت تسقط أرضًا من الصدمة، وقف أسعد في تلك اللحظة بقربها، وقال وهو ينظر إلى داخل الصندوق بدوره:

- لقد ترك لي أبي أثمن إرثٍ في التاريخ يا سلمى، وقد أوصاني بأن أتخذكِ زوجة في رسالته الأخيرة لي، لكي نحافظ معًا على هذا الإرث العظيم بالحب قبل الحرب، ساعديني وكوني معي... لن أستطيع حمل هذا كله وحدي...

ارتمت سلمى في حضنه فالتقطها، كانت ثقيلة الوزن رغم رشاقة جسدها، لقد أغمي عليها من هول الصدمة!

قنوع

أنهى الإسكافي تناول طعامه واستند إلى كرسيه وهو يلتقط غليونه بعدما وضع فيه التبغ، وأشعل عود ثقاب ثم قرَّب شعلته من فوهة الغليون وهو يجذب أنفاسًا منها بأطراف شفتيه وما هي إلا لحظات حتى تغلغل ذوق التبغ إلى أعماقه، لا شيء ألذ بعد الوجبة الدسمة من سحبة تبغٍ مركَّزة، كان عُقاب يمضغ آخر ما تبقى من طعامٍ في فمه وهو يمسح يديه قائلًا بصوته الكئيب:

- زوجتك طبَّاخة ماهرة يا عم قنوع.

ابتسم الإسكافي وقال وهو يمسك بالغليون متحدثًا لكي لا يسقط من بين شفتيه:

- رغم أنك على حق، فزوجتي كانت طبَّاخة عظيمة بالفعل، فإنها توفيت منذ زمن بعيدٍ بمرض نادر، إن كنت تقصد بإطرائك هذا طعام اليوم فالذي أعدَّته ليست زوجتي، بل حفيدتي... هدهد.

لم يكترث عُقاب كثيرًا لكلام العم، لكنه بالمقابل أخذ شربة ماء ثم قال وهو يعيد الكأس إلى مكانها:

- آسف على وفاة زوجتك سيدي، حتى سيِّدٌ فاضل مثلك لم يدعه الموت وشأنه.

تنهد قنوع وهزَّ كتفيه قائلًا بقلة حيلة:

- لا يدع الموت أحدًا وشأنه يا عُقاب، كان لديَّ صديق قديم يدعى باهي... أفنى حياته مثلك في مضامير سباق السيارات، سمعته ذات يوم يتحدث عن الموت... قال إنه يسابقنا ونحاول لسذاجتنا أن نتسابق معه، أن نكسب الرهان ضده ونفوز عليه، فإذا وصلنا إلى خط النهاية، وجدناه يقف عنده في انتظارنا!

ثم أسند نفسه على الطاولة ومدَّ يده إلى الجدار الذي بجانبه، وضغط كبسة زر لعلبةٍ إلكترونية هناك، فخشخشت العلبة وسمع النادل يتحدث بصوتٍ غير مسموع:

- خشخشخشخشش عم قنوع؟

- أرسل إليَّ كوبين من الشاي يا ولدي.

- حاضر يا عم خششخشخشش سيوووبببب.ششششش.

قال قنوع وهو يعود إلى مكانه:

- ألم تفكر يومًا في التالي؟

- ما التالي؟ لم يعد هنالك من تالٍ يا عماه، خسرت أموال عائلتي، أبي مات وهو غير راضٍ عني، أفلست و...

قاطعه العم قنوع:

- كل الأشياء التي تقولها لا يمكنها أن تحجب الحقيقة يا بني، مهما كانت عظيمة في نظرك، ومهما كانت شديدة الوطأة عليك.

- الحقيقة؟ أي حقيقة؟

- إن رحمة الله وسعت كل شيء يا بني.

لم يقل عُقاب شيئًا، وظلَّ يتأمل الإسكافي الذي قال وهو يدخن غليونه:

- عندما مات ابني ووريثي الوحيد قبل سنواتٍ طويلة شعرت بأن حياتي انتهت، الولد الذي ربَّيتُه وسهرتُ عليه وأعطيته من روحي، كنت أقول دائمًا إنه سيعيش ليحقق الأحلام التي لم أستطع تحقيقها، فإذ بي أضعه في القبر بيدي، أتعرف ما معنى أن تدفن كبدك يا عُقاب؟ أن تعود إلى البيت ليلًا وتتركه هناك في الطين البارد وحيدًا؟ أتساءل أحيانًا، ماذا فعل التراب بملامح وجهه يا ترى؟

ثم تنهد الإسكافي وهو يحدق في طاولته بحاجبين مقطبين وقال نافثًا دخان غليونه:

- لقد كانت أيامًا شديدة الوطأة عليّ، ذات يوم كنت أهيم على وجهي في الشوارع حتى سمعت المؤذن ينادي. الله أكبر الله أكبر.

قال الإسكافي وهو يرتل الأذان على مسامع عُقاب:

- في تلك اللحظة، شعرت بأني أسمع هذه الجملة للمرة الأولى، الله أكبر... لقد هزَّتني من تلابيب ثيابي لتُذكرني بأنه موجود عزَّ وجل، بأن همومي مهما كانت كبيرة عظيمة فالله عزَّ وجل أكبر... لأكثر من ثلاثين عامًا كنت أسمع النداء خمس مراتٍ في اليوم، لكني شعرت في تلك اللحظة أنني أسمع الأذان... لأول مرة في حياتي!

- هل تغيرت نظرتك إلى الأمور بعدها؟

قال عُقاب وهو ينظر إلى الإسكافي العجوز متأملًا، فرد عليه:

- أكثر مما تتصور، فهمت مع مرور الوقت أن الموت ليس عدميًّا إلى الدرجة التي كنت أتصورها، كما لم تكن الحياة أبدية... الموتُ أمر مؤقت تمامًا كالحياة... الموت...

في تلك اللحظة دخلت إلى الدكان وألقت السلام فقطعت كلام الإسكافي، كان عُقاب يصبُّ بعض الماء حين لفحت أنفه نسمة عبير أنثوي لكنه لم يبدِ اكتراثًا كبيرًا له، ردَّ قنوع السلام مبتسمًا، وقال وهو يشير إلى الصحون:

- كان طعامًا لذيذًا.

ردَّ عُقاب وهو يركز مع الماء المسكوب معتقدًا أن قنوع يتحدث إليه:

- أجل ولكن الملح كان ناقصًا بعض الشيء اليوم، خاصةً في الخبز.

- إذن يجدر بك أن تطبخ أنت في المرة القادمة.

رفع عُقاب عينيه واختلط الأمر عليه إذ استوعب أخيرًا وجود شخص ثالث في المكان، فتاة شديدة بياض الوجه بأعيُنٍ شُهلٍ تشعَّان كشهابين متساقطين، وملامح بريئة تهاجمه كنحلة اقترب من زهرتها، كانت متوسطة القامة ترتدي حجابًا بنِّيًّا وحذاءً رياضيًّا أبيض ولفت انتباهه أنها تضع ساعة في معصم يدها الأيمن، لكن ملامحها المستفزة دفعته إلى الرد عليها متجاهلًا جمال عينيها:

- وأنتِ يجدر بكِ أن لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ يا آنسة.

عقدت يديها متعجبة وهتفت:

- حقًّا؟! وما الذي يعنيني إذن؟

- وما الذي يعنيني في الذي يعنيكِ... لماذا قد يهمني الأمر أصلًا... اللعنة!

قال وهو يضع الكأس على الطاولة إذ نسي القارورة في حجره وهي تسكب الماء حتى فاضت الكأس عليه، نظر إلى الإسكافي وقال في سأم:

- من أين يأتي هؤلاء الناس أيها الإسكافي؟ أعطِها حذاءها ودعها تذهب، كنا مشغولَين في حديثٍ عظيم قطعته عنا وانظر أين صرنا الآن.

اكتفى الإسكافي بالابتسامة ولم يرد، قالت الفتاة في لؤم:

- ألم تلاحظ أنَّك توجِّه الأوامر إلى رجلٍ أكبر منك سنًّا كأنك صاحب المحل هنا؟ انظر إلى هيئتك في المرآة، هذا الرجل الواقف بجانبك أكثر أناقة منك رغم أنه عجوز يعمل في ورشة لإصلاح الأحذية، يبدو أنك فقدت أصول التربية والاحترام... خسارة!

قاطعها العم قنوع بنبرة حادَّة:

- هدهد... هذا يكفي... إنه ضيفٌ لديَّ الآن ولن أسمح لكِ بإهانة ضيفي كما أنه لم يتعرف عليكِ.

تغيرت ملامح وجه عُقاب، ووقف... وكما طلبت منه الفتاة تمامًا، نظر إلى هيئته في المرآة قبالته، ورأى ملابسه البالية وشعره الأشعث الذي يشبه شعر المشرَّدين ولحيته المبعثرة كمشاعره، وبقعة الماء التي خلَّفها الماء المسكوب على سرواله والتي بدت كأنها بقعة بول غير جافَّة... بينما كانت هي لطيفة جميلة أنيقة في حجابها البسيط، انحنى لينفض بعض الغبار على جزمته وقال بنبرةٍ مترددة عادت إليها كآبتها المعتادة:

- أنا... آسف يا آن... آنسة، لم أكن أعرف أنكِ حفيدة العم صاحب المحل... طعامكِ لذيذ، لطالما كان كذلك... وأنا، شاكرٌ لأنعمكم... أستمحيك عذرًا سيدي.

قال وهو يوجِّه جملته الأخيرة إلى الإسكافي، ثم خرج من هناك مبتعدًا، وتوارى عن الأنظار بين الناس في السوق، نظر قنوع إلى حفيدته وقال معاتبًا:

- ما كان عليكِ أن تقولي ذلك.

قالت الفتاة متأسفة:

- لم أقصد ذلك، ولكنه خاطبني بنبرةٍ فيها استعلاء يا جدي وأنت تعرف أنني لا أحب المختالين.

ثم استدارت ونظرت إليه وهو يبتعد بين الجموع، نظرت إليه نظرة عميقة، وانسابت الذكريات عليها كشلال مياهٍ عذبة...

تيرا

أشعلت آخر سيجارة في الباكيت وهي تنظر بريبةٍ وشكٍّ في الدفتر. «*أيُّ روحٍ شيطانية تلبستك يا أبي وأنت تكتب هذه الكلمات؟*». لقد أوصاها الأطباء بالإقلاع عن التدخين إذ لم يَمُر الكثير على اكتشافها بأنها حامل في شهرها الأول، ولم تكن تدري وقتها إن كان هذا خبرًا سعيدًا أم لا، حتى إنها فكَّرت في الإجهاض أكثر من مرة، ثم قررت أن تدع الأمر للقدر على أنها لن تبذل جهدًا كبيرًا في الحفاظ على الجنين، لقد كانت تخطط لتتزوج من رجلٍ شرقيٍّ لا أن تنجب منه... سحبت أنفاسًا أخرى من سيجارتها وقلَّبت أوراق الدفتر من جديد... دفتر يوميات مكتوب بالحبر الأزرق في بعض الصفحات وبقلم الرصاص في صفحات أخرى، كان هذا هو دفتر يوميات والدها «سايمون راميريز» الذي تُوفي قبل ثلاث سنوات...

***

لم يكن والدها يشكو من شيء، كهلٌ في أواخر الأربعينيات يتمتع بصحة جيدة ولياقة بدنية عالية، طبيعة شغله في مجال الآثار جعلته كثير الترحال منذ شبابه ولكنه كان يحب مهنته وسعيدًا بها، أثيرت حوله الكثير من الجدليات فيما مضى بأنه «لصُّ آثار» لكن تيرا تتذكر كيف كان يقول لها بوضوح «إن كل ما في هذا العالم ملكٌ لنا على أي حال، نحن سكان القارة الوسطى الذين نشرنا نور العلم والمعرفة، وأخرجنا

الشعوب الأخرى مما كانت فيه من ظلامٍ وجهل وتخلف إلى الرقي التي هي عليه اليوم».

لكن ما حدث مع أبيها فيما بعد، وبالتحديد الطريقة التي انتهى بها هذا العالِم الفذُّ جعلتها تطرح الكثير من التساؤلات، إذ كان موته مثيرًا للجدل أكثر من حياته، قبل نحو أربع سنوات، أخبرها أنه سيتوجه في مهمةٍ نحو القارة الشرقية، لم يعطها الكثير من التفاصيل كعادته لكنه وعدها بأنه لن يقضي أكثر من أسبوع واحد على الأكثر، ولكن الأمر لم يكن تمامًا كما قال، سافر وعاد بعد يومٍ واحد فقط، وذهبت لاستقباله في المطار مع أحد أصدقائها في الكلية... لكنها فوجئت بأن أباها الذي ذهب لم يكن تمامًا نفسه الذي عاد، لقد كان شاحب الوجه متعبًا قليل الكلام يتفصَّد عرقًا، وحين سألته عن السبب قال إنه يريد أن ينام، كان يعاني الصداع وبدا أن سمعه قد ضعف وكان يجد صعوبةً ملحوظة بعض الشيء في الكلام... لم تُعر تيرا الموضوع أهمية كبيرة وأرجحت أن تعب الرحلة قد يكون السبب رغم أن والدها كان يقطع مسافاتٍ أكبر بكثير ويعود منها مثرثرًا في المطار حول مغامراته الأثرية وما عاد به من قطع نادرة من كافة أنحاء العالم، لم تكن هذه المرة تشبه أيًّا من المرات السابقة، سايمون الذي سافر إلى الشرق لم يعد منه قطُّ!

ساءت حالته أكثر مع مرور الأيام ولم تنفع المهدئات التي وصفها له الطبيب العام، إذ بدأت تنتابه نوبات غثيان ولم يتركه الصداع وشأنه للحظةٍ واحدة طيلة تلك الفترة، وتدهور وضعه الصحي أكثر وفوجئت تيرا بأنه يمر أحيانًا بلحظات يفقد فيها ذاكرته بعض الشيء، واتصلت بالإسعاف في إحدى الليالي الصعبة التي وصل به الأمر فيها إلى درجة أنه لم يتعرف عليها تمامًا، في المشفى أُجريت له كافة التحاليل والفحوصات وجاءت النتيجة صادمة بالنسبة لها، إذ شرح لها الطبيب

الدكتور «روبرت آلبرت شيلدون» وهو أحد أقدم معارف والدها ما سماه بالوضع المعقَّد ولخَّص لها الأمر بلهجةٍ جافَّة ونبرة خالية من الشعور: «يؤسفني أن أخبرك يا آنسة راميريز بأن السيد سايمون يعاني ورمًا سرطانيًّا خطِرًا في الدماغ وهو في مراحله الأخيرة».

وضعت يدها على فمها مصدومة، وبدا الطبيب في حدِّ ذاته حائرًا هذه المرة وهو يضيف:

- سنعيد تكرار الفحوصات مرة أخرى على كل حال، لأنها لا تبدو منطقية بالنسبة لي، والدكِ صديقي كما تعلمين، وقد أجرى فحوصاته الدورية أكثر من مرة هنا عندي، آخرها كان قبل ثلاثة أشهر والنتائج كانت ممتازة، وحتى الفحص الذي قبله كان منذ سبعة أشهر ونتائجه كانت جيدة جدًّا، لكي يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من المرض يجب أن يستغرق عدة سنوات، أما أن يبلغ هذا المستوى الخطِر في غضون أقل من شهرين فهو إعجازٌ طبي بكل معنى الكلمة...

وصف الطبيب أدوية معينة قال إنها ستساعده على التحسن قليلًا، وبالفعل بات أفضل مما كان عليه بعد تناول الدواء، لكنها كانت تعرف أن الدواء لن يعيد لها أباها، ولن يمنع عنه هذا الورم الذي يبتلعه شيئًا فشيئًا... وطوال تلك المدة التي كان يتناول فيها الدواء عكف على الكتابة في دفتر يومياته الذي كان يدوِّن فيه عادةً أسرار رحلاته واكتشافاته حين يعود من سفرياته... كان الدفتر مصنفًا إلى عدة أقسام كل قسم حسب الدولة التي سافر إليها، وكانت تيرا قد قرأت صفحات هذا الدفتر من قبل حيث كانت تتصفحه عادةً في غياب أبيها، قراءة يومياته وهو مسافرٌ كانت تشعرها بأنه بجانبها على الدوام، لكنه منذ بدأ بكتابة الفصل الأخير منه لم يسمح لها بحمله قطُّ، ولم تُتعب تيرا نفسها

كثيرًا في استراق النظر إلى ما يكتب في تلك الأيام، والسبب كان أليمًا فهي تدرك أنها ستنفرد بالدفتر طيلة حياتها قريبًا حين يسافر للمرة الأخيرة وبلا رجعة... وهو ما كان، عندما أغمض عينيه قبل أشهر ورحل عن هذه الدنيا عن عمرٍ يناهز الثمانية وأربعين عامًا، قرأت تيرا بلهفة شديدة الفصل الأخير من الدفتر بعد انقضاء جنازة والدها، كان ما كتبه غريبًا جدًّا، غامضًا جدًّا، وخطِرًا جدًّا... عرضت ما كتبه على الدكتور «شيلدون» صديق والدها المقرَّب والذي كان يُشرف على علاجه، بدا الدكتور مدهوشًا في البداية من التغير الكبير في شكل الخط، شتَّان بين الفصول السابقة من الدفتر والمكتوبة بخطٍّ أنيق وواضح، وبين هذا الفصل الأخير الذي كتب بخط مهزوز كأن صاحبه كان يعاني نوبة ذعر شديدة في أثناء كتابته، أرجح الموضوع في النهاية إلى إمكانية تأثير الورم السرطاني عليه، إذ من الصعب اعتبار ما كتبه أمرًا قريبًا إلى الحقيقة كما قال شيلدون الذي أضاف متحدثًا وهو يحدِّق إلى الدفتر: «أظن أن والدكِ كان يكتب هلوسات ويترجم كوابيس كان يراها في أحلامه على صفحات هذا الدفتر لأن ما هو موجود هنا لا يشبه أي شيء قريب إلى الحقيقة إلا إذا كنا نعيش في عالم الماورائيات».

شكرت تيرا الدكتور الذي انصرف وهو يؤكد لها أنه في خدمتها دائمًا، كانت إجابته منطقية عمليًّا لكنها غير مقنعة بالمرَّة. «*أبي لم يكن يهلوس، إنني أعرفه جيدًا، لم يكن من النوع الذي يضيِّع وقته قطُّ... لم يكن سايمون راميريز ليقضي الساعات الأخيرة من حياته في كتابة شيءٍ لا معنى له*». خاطبت تيرا نفسها وهي تنظر إلى الدفتر وقررت أنها في كل الأحوال عليها أن تكتشف الحقيقة مهما كلفها الثمن... وشعرت ساعتها بحقدٍ دفين تجاه الشرق كله، الشرق الذي ذهب إليه أبوها سالمًا

وعاد منه تائهًا بلا روح ولا دماغ، بدا لها الموضوع مفتعلًا، بل كانت متأكدة من ذلك تمامًا.

كان أول ما قامت به هو الحصول على إذن من رؤسائها في عملها السرِّي، للانتقال من أجل العيش في الشرق، ولم تجد صعوبة كبيرة في إقناعهم، فجهاز المخابرات الذي تعمل فيه برتبة ضابط سرِّي لم يكن يمانع من إرسال أبرز كفاءاته من الضباط المحترفين إلى الشرق، ثم إنهم هم أنفسهم على ما يبدو كانوا قد قرروا التحقيق في ملابسات مرض سايمون راميريز وموته، فكلَّفوا ابنته تيرا بهذه المهمة بصفةٍ شبه رسمية، وكانت لديها كافَّة الصلاحيات لتفعل ما تشاء في الشرق فسوَّت جميع المسائل القانونية العالقة بشأن تركة أبيها وبعض الديون التي كانت له وعليه، واستقلت الطائرة نحو قنليجيا عاصمة بلاد شاور في القارة الشرقية...

***

حملت سماعة الهاتف وطلبت رقم الفتى الذي يشتغل في الكشك المقابل لبيتها، كانت تخرج في العادة بنفسها لتشتري سجائرها لكنها تكاسلت هذه المرة فطلبت منه أن يحضر لها علبة أخرى، وأعادت السماعة إلى مكانها وراحت تبحلق مرة أخرى في ورق الجريدة الموضوع أمامها، كانت عليها تهنئة مكتوبة تحت عنوان بالخط المشرقي المزخرف «تتقدم عائلة المعهد القومي للآثار بأحرِّ التهاني إلى الزميلة سلمى عاصف إثر خطوبتها من أسعد بن هبَّار تاجر الأقمشة الشهير». *تاجر الأقمشة؟ لماذا لم تقولوا إنه كان الابن الوحيد للمدير السابق لمعهدكم القذِر هذا؟ أسعد يا أسعد، هل انتهت كل نساء الأرض حتى تتزوج من أمينة أسرار والدك والموظَّفة الوحيدة التي كانت تعرف عنه كل شيءٍ في المعهد؟..* رنَّ جرس الباب بقوة فشهقت فزعًا إذ قطع

عليها سهوتها، قامت من مكانها متمايلةً وفتحت الباب أين كان موظَّف الكشك يقف حاملًا علبة السجائر وقال على مضض:

- لم أرَ في حياتي امرأةً تدخن أكثر منكِ... لقد...

لم يكمل كلامه حين رآها، حيث وقفت عند المدخل مرتدية ثوبًا فضفاضًا قصيرًا بلا أكمام معلقًا على جسدها كستار معلق على تمثال رخامي قبيل الكشف عنه بلحظات وهي تطلق شعرها الأشقر الطويل على كتفيها الناعمتين... التقطت العلبة منه وقالت:

- هل ستسهر الليلة في الكشك؟

بلع الشابُّ لعابه وهو يجيب بثبات مصطنع:

- أجل، ولمَ لا... سأسهر إلى الصباح لو شئتِ.

- جميل، لأني قد أتصل بك في أي وقت من أجل باكيت أخرى.

قالت وهي توصد الباب في وجهه دون أن تدفع له ثمن العلبة فقد كانت متأكدة أن الشاب نسي ثمنها أصلًا، كان ذلك الشعور مثيرًا بالنسبة لها، لقد جاءت إلى هنا لكي تنتقم فوجدت نفسها واقعة في حب المشرقيين، بطولهم الفارع وعضلاتهم المفتولة وسحنتهم السمراء وشعورهم المجعَّدة الداكنة... وغرقت في ذكرياتها من جديد وهي تُشعل سيجارة أخرى...

***

في سن الخامسة والعشرين وصلت تيرا إلى الشرق لأول مرة في حياتها، لم يكن المكان كما كانت تسمع عنه دائمًا، لم ترمِ بها الطائرة مع بقية المسافرين فوق كثبان رملية، بل كان هناك مطار عظيم في استقبالهم مشيد بطريقةٍ هندسية فريدة من نوعها إذ يشبه في تصميمه خيمة كبيرة بها مجموعة من القباب، وعلى عكس قارتها الغربية، كان

الناس هنا يبتسمون في وجوه بعضهم بعضًا بلا سبب، ورغم أن النساء المشرقيات كنَّ أكثر جمالًا منها بكثير فإن تيرا شعرت بأعيُن الرجال تتبعها بين الفينة والأخرى، ربما بسبب طبيعة لباسها التي كانت أقلَّ احتشامًا مقارنةً بغيرها من النساء...

ركبت سيارة أجرة وأعطته عنوانًا معينًا، فتوجَّه بها عبر الشوارع المزدحمة والطرقات الكبرى نحو وجهتها، كان الناس بسطاء جدًّا، بسطاء في تعاملاتهم، بسطاء في نمط عيشهم وفي نظرتهم إلى الأمور. «*كيف تمكن أناسٌ بهذه البلاهة والسذاجة من أن يصيبوا أبي بذلك المرض الخبيث؟*».

كان المكان الذي نزلت فيه عبارة عن بيتٍ من أربع غرف مرتب بعنايةٍ لكن تنقصه الكثير من الأغراض، فاستخدمت دفتر شيكاتها في سحْب بعض الأموال وقامت بتأثيث البيت وفرشه، كما أنها اشترت ملابس أكثر احتشامًا فقد أدركت منذ اللحظة التي نزلت فيها من الطائرة أن أغلب ما جلبته معها من ثياب لا يصلح هنا في الشرق إلا لغرفة النوم، وكأي امرأة في سن الخامسة والعشرين تمتلك أغراضًا استخباراتية وخلفيات انتقامية ومشاعر مختلطة كانت الخطوة القادمة واضحة أمامها... يجب أن تختار عريسًا!

لكن خيارها يجب أن يكون مدروسًا بعناية، فلكي تكون قريبة من مجال علم الآثار وصناعته... يجب أن تتقرب تيرا من مجتمع هذا المجال، وهكذا صارت تجلس في أحد المقاهي النخبوية المقابل للمعهد وتزوره يوميًّا وبانتظام، كان طلبة المعهد وأساتذته يزورون هذا المقهى باستمرار في أوقات فراغهم، وفهمت تيرا لمَ يطلق على هذا المكان اسم «المقهى النخبوي» فكل روَّاده أناسٌ محترمون أكاديميون ومثقفون والنقاشات فيه لا تكون حول القيل والقال ومواضيع عامة الناس بل

حول الأثريات والتاريخ، الأدب والفلسفة وحتى الرياضيات في بعض الأحيان...

قررت تيرا استخدام أول وأقوى أسلحتها... جسدها، فكانت تحرص على التأنق وارتداء أفضل الملابس وتبخ على نفسها أجود العطور كلما كانت تتوجه نحو المقهى النخبوي، تجلس أحيانًا لتقرأ كتابًا وأحيانًا لتدوِّن ملاحظاتٍ ما، المهم أن تبدو واحدة من هؤلاء الجالسين هنا... إلى أن وقف بجانبها ذات يوم رجل متوسط القامة حادُّ العينين واسع الحاجبين وقال مبتسمًا: «هل لي أن أجالسكِ أيتها الآنسة الجميلة؟».

في تلك اللحظة تعرفت تيرا على الرجل، كان يدعى «رشدي حريص» وفهمتْ منه أنه صاحب مشروع لتأجير السيارات الإدارية، وكانت من بين الإدارات التي يتعامل معها إدارة المعهد طبعًا، كان رشدي مثلها تمامًا، يحاول أن يتظاهر بأنه ينتمي إلى هذا المكان لكنه ليس كذلك، لقد كان رجلًا بسيطًا كغيره من الناس في الأحياء الشعبية، لكنه يتكلم بثقة مطلقة ليس بسبب ما لديه من رصيدٍ ثقافي أو علمي كغيره من المثقفين في المقهى النخبوي فهو لم يكن مثقفًا ولا أكاديميًّا، لكنه كان رجلًا بجيوب ممتلئة، إن المال يبسط هيبته على ألسن الرجال عندما يتحدَّثون.

تجددت لقاءاتهما مرة تلو الأخرى ومنحته تيرا رقم هاتفها، وأخبرته أنها تريد افتتاح مشروع هنا في الشرق لكنها لم تعرف من أين تبدأ، انفجر رشدي ضاحكًا وقال ساخرًا: «على الأقل كوني متأكدة من أن بدايتكِ لأجل مشروع اقتصادي لن تكون من مقهى يجلس فيه مجموعة من الناس للتكلم حول أشياء حدثت قبل مئات السنين كأنها حدثت البارحة». كانت تيرا تتمنى رجلًا أفضل قليلًا من هذا الثرثار الذي يكبرها بعشر سنوات، لكنها ليست هنا للعشق والغرام بل للتحقيق والانتقام،

فاستخدمت كما تفعل النساء عادةً سحرها السرِّي عليه، وما هي إلا أشهر قليلة حتى كانا في مكتب البلدية عند ضابط الحالة المدنية، وأصبحت تيرا راميريز تمتلك هوية جديدة ومسجلة في الأوراق المدنية على أنها «السيدة لطيفة حريص»، هذا الاسم الذي استخدمته في التوغل أكثر في المجتمع الشرقي، إنها واحدةٌ منهم الآن ولا أحد سيشك في أمرها لو طرحت سؤالًا أو ذهبت بعيدًا في حديثٍ ما أو طلبت معلومة سرِّية...

كان رشدي مفتونًا بتيرا، وعاشت معه عيشة الأميرات، لكنها لم تستطع أن تحبه، لم تستطع أن تحب الشرق كله، كان حقدها على الجميع هنا أكبر بكثير من أن تغيِّره لحظة حب أو نزوة فراش عابرة، فكانت تلعب دور الزوجة الجميلة المطيعة ليلًا، وتتحرك بطلاقة في النهار نحو وجهتها، قامت بإغراء رشدي بالمال وشاركته في مشروعه لتأجير السيارات فلم يكن يسأل عنها كثيرًا وبدأت تتقرب أكثر من المعهد وإدارته، إلى أن تمكنت ذات يومٍ من الحديث إلى موظَّف في أمانة أرشيف المعهد يدعى تامر المنصف، تقرَّبت منه تيرا بشكلٍ خاص ولم تجد أي مانع من استخدام سلاحها الفعَّال مرة أخرى فزواجها من رشدي بالنسبة لها حبرٌ على ورق، كما أن تامر هذا شابٌّ وسيم عاثر الحظ في بداية العشرينات وأعزب، كانت تزوره في مكتبه في أوقات الراحة بين الفينة والأخرى ووصلت أخيرًا إلى مبتغاها ذات ظهيرة طويلة في بدايات فصل الصيف... عندما تمكنت من الدخول إلى أرشيف المعهد بعدما سمح لها تامر بذلك، فتَّشت في دفاتر تقارير الرحلات الاستكشافية عن اسم والداها سايمون راميريز، بحثت في الصفحة تلو الأخرى، وفي المجلد تلو الآخر... حتى وصلت إلى بعض المعلومات... لقد زار والدها الشرق أكثر من مرة، حملت بعض التقارير اسمه في خرجات استطلاعية وفي بعض الندوات الداخلية في المعهد، لكن

كلها بتواريخ قديمة، فراحت تفتش في المجلدات الحديثة بينما تنظر إلى زجاج مكتب تامر الذي كان مستلقيًا على كرسيه يدخن سيجارته ويدندن بأغنية غير مفهومة...

لقد قرأت في الصفحات الأخيرة من دفتر مذكرات أبيها أنه خرج في رحلةٍ استكشافية مع شخصين آخرين، لكنه لم يدرج اسميهما، بحثت أكثر فأكثر ووجدت أخيرًا تقريرًا حول خرجة ميدانية إلى المدينة الأثرية في الصحراء جنوبًا، كان اسم أبيها مدرجًا في التقرير بالفعل، لكنها اكتشفت أمرًا غريبًا جدًّا، وهو أن الرحلة حسب ما يقول التقرير كانت من شخصين فقط، والدها سايمون راميريز، وبروفيسور في علم الأثريات يدعى ماجد بن هبَّار، وهنا يكمن التناقض العجيب... تذكرت تيرا كلمات أبيها في الدفتر حول ذلك الشخص الثالث الغريب الذي كان معهما... هذا هو التقرير الرسمي لتلك الرحلة والمؤرخ في يناير من ذلك العام، ليس هنالك أي شخص ثالث أدرج اسمه في التقرير... كتبت تيرا اسم ماجد بن هبَّار على راحة كفِّها وخرجت من هناك بعدما أعادت دفاتر الأرشيف إلى مكانها، في ليلة ذلك اليوم كان رشدي يحاول أن ينام عندما سألته:

- حبيبي، هل تعرف رجلًا يدعى ماجد بن هبَّار؟

أجابها بصوتٍ ناعس متكاسل:

- من أين حصلتِ على هذا الاسم؟

قالت وهي تُمرر يدها برفقٍ على كتفه:

- سمعتهم يتحدثون عنه في المقهى النخبوي.

تنهَّد رشدي وقال متثائبًا:

- لقد كان العميد السابق للمعهد الأثري.

- تقاعد؟ إذا أردت لقاءه فأين يمكن أن أجده؟

قالت بصبر نافدٍ ينمُّ على شراهتها الشديدة تجاه معرفة حقيقة ما حدث في تلك الرحلة المشؤومة... لكن رشدي استدار نحوها وطعن فضولها بخنجر قاتل:

- لم يتقاعد يا تيرا... لقد مات منذ سنتين!

* * *

تذكرت تيرا رشدي، ذلك الرجل المشرقي الأبله، واستغربت كيف تمكن من جمع كل هذه الثروة وهو بهذه السذاجة، لقد تزوجته، وخانته مرارًا دون أن يكتشف شيئًا حيال ذلك، وضعت يدها داخل البانيو وتحسست المياه بأطراف أصابعها وشعرت بأنها دافئة بما يكفي، التقطت زجاجة الصابون وأفرغت البعض منها على الماء الذي رشَّت عليه بعد ذلك بعضًا من زيت الجوز وزيت الزيتون ومستخلص عصير الليمون، وبينما تصاعدت أبخرة البانيو من أمام عينيها وضعت على الطاولة الرخامية التي بجانبه زجاجة نبيذ وعلبة سجائرها. «*كان رشدي شديد الكياسة معي، شديد اللطافة، ربما لم يستحق المصير الذي آل إليه ولكني كنت مجبرةً على فعل ذلك، كان يمكن أن يصبح عقبةً في طريقي*». قالت تيرا وهي تتذكر ذلك الرجل مرة أخرى، طيِّب الذكر الذي منحها اسمًا وصفة تسير بها بين المشرقيين دون أن تلفت انتباه أحد، سقط ثوبها القصير أرضًا، وسارت حافية القدمين نحو البانيو، ثم رفعت إحدى قدميها وزجت بها داخل المياه الساخنة، لتتبعها بالقدم الأخرى، كانت الرغوة قد بدأت بالتشكُّل حولهما، فانحنت وجلست بداخله، وتمددت وهي تستغرق في التفكير...

* * *

تطورت علاقتها بتامر أكثر فأكثر حتى إنه دبَّر لها وظيفة في المعهد القومي للآثار، حيث تأكدت مع مرور الوقت أنه كان الرجل الذي يجب أن تتزوجه، لا هذا الثري الثرثار بلا فائدة، كما أن وظيفتها الجديدة بالمعهد حيَّرت رشدي الذي تساءل لماذا على سيدة ثرية جاءت إلى الشرق لكي تشتغل وتستثمر أموالها في مشاريع ضخمة أن تقبل فجأة بالعمل كموظفة بسيطة براتب متواضع في المعهد، ولذلك عزمت على تصفية رشدي حريص الذي بدأ يُشكل خطرًا على كشف هويتها وغايتها الحقيقية من الوجود في الشرق، لكن الموضوع ليس بهذه البساطة، فقد كان كلام جاك هيكتور رئيسها في جهاز المخابرات واضحًا وجليًّا: «مسموح لكِ أن تفعلي أي شيء، وأن تستفيدي من أي مبلغ، وأن تتحركي بحرية كاملة في شاور وتختاري الأهداف التي ترينها مناسبة لتزويدنا بالمعلومات بشأنها، لكن عليكِ أخذ الإذن قبل القيام بتصفيةٍ جسدية لأي فردٍ كان مهما كان، ومهما كان السبب إلا في حالة الحاجة الملحة وهي الدفاع عن النفس»، ولذلك، تواصلت تيرا مع جاك وأطلعته على خطتها بشأن اغتيال رشدي حريص وأسبابها الكاملة لفعل ذلك، فأعطاها الإذن شريطة ألا تتزوج من تامر المنصف أبدًا لأن ذلك سيكون لافتًا للنظر لو فعلت، فوافقت على الفور، وبعدها بأيام قليلة وضعت تيرا سمًّا قوي المفعول في طعام زوجها رشدي، الذي أرداه أرضًا على الفور، وكأي زوجة تتظاهر بأنها مطيعة اتصلت بالمستشفى وطلبت الإسعاف، وقد كان السم الذي وضعته تيرا في طعام رشدي شديد الخطورة والتطور إلى درجة أنه لا يُكتشَف عند التشريح، حيث يعطي أعراضًا أشبه بأعراض النوبة القلبية العادية، وهو ما شكَّ فيه الأطباء عند وصول سيارة الإسعاف إلى المشفى، حيث باشروا إجراءات إسعاف قلب رشدي وأعطوه حقنًا تساعد على إنعاشه لكن تلك الحقن في الحقيقة زادت من مفعول السم، قضى السيد حريص ثلاثة أيام في العناية الفائقة

ثم فارق الحياة صبيحة اليوم الرابع حيث وصلت المكالمة إلى تيرا من المشفى تفيد بأنه قد تُوفي، ورفعت هذه الأخيرة تقريرها إلى جهاز الاستخبارات بأنها قد قامت بتصفية رشدي حريص، وفوجئت بأنه كان قد كتب لها في وصيته كل أملاكه وثروته المعتبرة، فتأثرت كثيرًا بما فعله، كان رجلًا مسكينًا يحب الحياة والنساء الشقراوات، لكنه وقع في حب الشقراء الخطأ..

❋ ❋ ❋

أعادت كوب النبيذ إلى الطاولة الرخامية بعدما شربت منه كفايتها، وغطست بكاملها داخل المياه الحارَّة مرة أخرى. «*حتى لو غطستِ في البراكين يا تيرا لن تنظفكِ من قذارة أفعالك*». كانت نادمةً على ما فعلته برشدي، لكن الغاية تبرر الوسيلة، وغايتها في الشرق منذ البداية كانت الوصول إلى حقيقة مقتل والدها، لا لأي شيء آخر، ولذلك كانت مستعدة لارتكاب المزيد من القذارات لو لزم الأمر حتى تعود إلى ديارها في نهاية المطاف وقد حصلت على جميع الإجابات للأسئلة الغامضة التي تركها الفصل الأخير من مذكرات أبيها في عقلها، لكن رشدي ترك رصاصةً قاتلة في أحشائها قبل أن يرحل عن هذه الحياة، إذ اكتشفت بعد أسبوعين من دفنه أنها حامل... فتبعثرت أوراقها بالكامل، كما تبعثرت أوراق الورد في هذه المياه الساخنة.

عُقاب

وضع سماعة الهاتف وهو يزمُّ شفتيه، أنهى للتو مكالمةً صعبة مع أبيه وبَّخه فيها هذا الأخير أيَّما توبيخ على تأخره، وحين أخبره عُقاب أنه سيقضي ليلته عند أحد أصدقائه سبَّه وسبَّ جميع أصدقائه «المنحرفين» كما وصفهم، وأغلق عُقاب الخط في وجه أبيه لكي لا يسمع المزيد من السباب والصراخ، ثم جلس إلى الأريكة مرة أخرى وهو يعطس متدثرًا ببطانيته، وأمسك بكوب المشروب الدافئ وأخذ رشفةً أخرى منه...

- علاقتك مع أبيك صاخبة على ما يبدو.

قال الرجل الجالس قبالته والذي أنقذه من عناصر الشرطة قبل قليل، ردَّ عُقاب وهو يشعر أن البرد لا يزال ينخر عظامه:

- حياتي... حياتي كلها منطقة صاخبة وليست علاقتي بأبي فحسب.

ابتسم الرجل وقال متهكمًا:

- ألست مَن فعل ذلك بنفسك؟

بادله عُقاب الابتسامة وهو يهز رأسه قائلًا:

- من السهل أن تتكلم هكذا، أبي يقول الكلام نفسه، أنتم لستم من جيلنا ولا تفهموننا، إنكم تعتقدون أننا نعيش هكذا أنماط من الحياة لنجرب، نجرب المغامرة.

ثم أومأ برأسه نفيًا وقال وهو يضع كوب المشروب الدافئ على الطاولة بعدما أخذ رشفةً طويلة منه:

- ليت الموضوع بهذه البساطة.

- ألست تقود في مضامير السباق من أجل المغامرة إذن؟

شعر عُقاب بدوار خفيف ولم يرد، فقال الرجل مرة أخرى:

- خلطة الأعشاب هذه ستساعدك على التخفيف من آثار الكحول.

قام متسارعًا نحو الحمَّام وفتح الباب... وللمرة الرابعة منذ وصولهما إلى هذه الشقة جلس عُقاب على ركبتيه أمام المرحاض وراح يفرغ ما في أمعائه، ثم قام من هناك متمايلًا وقال لاهثًا:

- وأنت... وأنت هل... هل تقود في مضامير السباق من أجل المغامرة؟

قال الرجل وهو يشعل سيجارة:

- إلى حدٍّ ما... أجل.

ابتسم عُقاب ماسحًا فمه بمنديلٍ ورقي وقال وهو يعود إلى الجلوس على الأريكة:

- إن كان كهلٌ مثلك يبحث عن المغامرة، فلماذا لا يبحث عنها مَن هم في مثل سني؟

ضحك الرجل وقال وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء:

- أيعقل أنك تتخذني قدوةً بعدما كنت تتخذني هزوًا؟.. تناول المزيد من مشروب خلطة الأعشاب، سيهدِّئ أمعاءك.

- أنا... لم أتخذك هزوًا... لكني أتعجب فحسب، ويحق لي التعجب... إن نهائي قنليجيا لسباق السيارات هو حلم كل سائق هاوٍ أو محترف في العالم بأسره، لقد صرفت المليارات من أجل أن أكون في النهائي، أعرف ما معنى أن يقطع الإنسان كل هذه الأشواط من أجل الوصول إلى هنا، فلماذا بعد كل هذا التعب وهذه الفرصة

التي قد لا تُتاح لك إلا مرة واحدة في العمر، تنسحب هكذا ببساطة من النهائي؟

سكت الرجل قليلًا ولم يبدِ إلا ابتسامة خفيفة، وقال في أعقابها:

- إنها قصةٌ طويلة يا عُقاب... وأنت لن تستطيع معها صبرًا.

نظر عُقاب إلى كوب مشروبه الممتلئ وقال:

- معنا الكثير من الشاي وهذه الليلة الباردة لا تزال في بدايتها.

أطرق الرجل للحظات، ثم قال وهو يسحق ما تبقى من سيجارته في صحن الرماد على الطاولة:

- كنت ضابطًا في المخابرات لأكثر من ثلاثين عامًا، تقاعدتُ مؤخرًا.

قال عُقاب متهكمًا:

- وماذا في ذلك؟ كل مَن في هذه البلاد يعمل لدى المخابرات...

قاطعه نفيس:

- دعني أُنهي كلامي ولا تقاطعني.

سكت عُقاب وشعر بهيبة ضباط المخابرات في كلام الرجل، الذي سكت قليلًا مرة أخرى قبيل أن يسترسل قائلًا:

- منذ التحاقي بالجيش تخليتُ عن كل أحلامي، في أن أكون صحفيًّا ناجحًا، أو محاميًا، أو ربما كاتبًا لِمَ لا... ضحيت بكل شيء في سبيل تحقيق رغبة أبي الذي دفع بي لأكون الولد الذي لا بدَّ أن يحمل اسم العائلة في الجيش من جهة، وبسبب صعوبة أوضاعنا وقتها فقد كان لا بدَّ من معيلٍ إضافي يساعده على مصاريف العائلة من جهة أخرى، وهكذا وضعت كل شيء وراء ظهري والتحقت بالخدمة العسكرية، هجرت كل ما كنت أحلم به إلا شيئًا واحدًا فقط لم أستطع التخلي عنه، وهو شغفي بالسرعة... تمنيت

لو توكل إليَّ مهمة لها علاقة بقيادة السيَّارات لكن ذلك لم يحدث، ولم تسمح لي ظروفي العائلية قبل الخدمة بأن أقتني سيارة سباق ولا حتى سيارة نقل عادية، كما أن التحاقي بصفوف الجيش وأد هذا الحلم في مخيلتي، بعدما أنهيت العام الأول من الخدمة وُجِّهتُ إلى جناح الاستعلامات، وتبناني أحد قادة المخابرات واختارني لأن أكون في صفِّه، كان رجلًا بسيطًا بشوشًا، يحب إلقاء النكت وسماعها، شديد المحبة للبسطاء من الشعب وكثير الاختلاط بهم، مسح هذا الرجل كل تصوراتي حول قيادات المخابرات الصارمين المخيفين، كان أكثر بساطة من أن يجعلك تشعر بأي شكلٍ من أشكال الحرج في حضرته، درّبني على استراتيجيات الدفاع المدني والدعم اللوجيستي والتقارير الاستخباراتية وأوكل إليَّ بعض المهام البسيطة التي نفذتها بكل يسرٍ وسهولة، كنا نناديه «العم المحترم» ومن شدة حبنا له وتعلقنا به لم نكن نعصي له أمرًا، سمعت الكثير من القصص حول هذا الرجل الذي كان أشبه بالأسطورة في جناح المخابرات، لكن أكثر القصص تداولًا حوله كانت قصة حبِّه لفتاة بسيطة من ريف بلدته في إقليم رشد، قيل إنها كانت فتاة قروية بسيطة، وكان هو وقتها مراهقًا يافعًا، أكمل دراسته الثانوية والتحق بالكلية الحربية، وعندما تخرَّج منها برتبة ضابط سامي عاد إلى قريته فوجد الفتاة التي أحبها قد تزوجت، يقال إنه لم يحب أي امرأةٍ من بعدها، لا أحد يعرف إن كانت هذه القصة حقيقية أم لا... لكني جلستُ في مكتبه وحيدًا ذات يوم حيث خرج وطلب مني انتظاره هناك، فسمحت لنفسي بأن أفتح دفتر ملاحظاته وكان أول ما وقعت عليه عيناي بيتين من الشعر كتبهما بخط يده في أسفل الصفحة الأولى:

حبيبتي أنتِ فاستلقي كأغنيةٍ *** على ذراعي ولا تستوضحي السببَ

أنتِ النساءُ جميعًا ما من امرأةٍ *** أحببت بعدك إلا خِلتها كذِبَا.

تنهَّد الرجل وقد هزَّ رأسه مبتسمًا، ثم أضاف:

- في أحد الأيام سألني العم المحترم عن طموحاتي قبل التحاقي بالخدمة، فكان أول ما حدثته عنه شغفي بالسيارات وولعي بها... وحلمي في التتويج بأكبر الجوائز داخل الوطن وخارجه وأهمها طبعًا «جائزة قنليجيا الكبرى لسباق السيارات الرياضية» التي كانت حلم الطفولة بالنسبة لي، بعد أسبوعٍ استدعاني لمكتبه، وسلمني مفاتيح أول سيارة رياضية حظيتُ بها في حياتي «بلايموث باراكودا»، لوهلةٍ حسبت الرجل يمزح معي، لكنه كان جادًّا في ما يقوم به، أخبرني أن واحدة من مهامِّي ستكون الانخراط في الأنشطة الرياضية لسباقات السيارات عامةً وسباقات قنليجيا خاصة، ورفع تقارير أمنية في نهاية كل سباق حول ما إن كان هنالك تجاوزات أمنية، لقد كان العم المحترم يشكِّك في أمر المتسابقين الأجانب الذين يفدون على بلدنا للمشاركة في السباق، وهؤلاء تحديدًا مَن أوكل إليَّ مهمة مراقبتهم... لكنه وضع أمامي شرطًا غاية في الأهمية، وهو أن لا أشارك باسمي الحقيقي بل باسمٍ مستعار وهوية مزيفة، ولثام... وهكذا وُلِدَت شخصية السائق الغامض أسامة زيدان.

شعر عُقاب بالذهول وقام من مكانه فسقطت البطانية من كتفيه:

- هل قلت أسامة زيدان؟ أنت أسامة زيدان السائق الأسطورة؟ مهلًا... مهلًا... ألم يمت أسامة قبل أكثر من ثلاثين عامًا أو يزيد في حادثٍ مروري خطِر؟

قال نفيس متذمِّرًا:

- أخبرتك أنها ستكون قصة طويلة يا عُقاب... وأنك لن تستطيع معها صبرًا.

جلس عُقاب على الأريكة وقال متلهفًا:

- أكمِل... أكمِل ولن أقاطعك مرة أخرى هذا وعد.

- كان كل شيء عاديًّا في السنين التالية، حققنا انتصارات مدهشة وذاع صيت المتسابق الملثَّم أسامة زيدان في كل الأقطار حتى بات أشبه إلى الأسطورة، كان السائقون يهددونني في بداية كل سباق بأنهم سيهزمونني ويقلبون سياراتي ويزيلون اللثام عن وجهي ويكشفون هويتي للجماهير، لكنهم عند انطلاق السباق لا يستوعبون شيئًا مما يحدث إلا صوت محرِّك البلايموث وهي تنساب من أمامهم كالرمال بين الأنامل، سابقت وسابقت، وفزت بجوائز لا تُعد ولا تُحصى، كنت أسعد الناس... أخدم وطني عبر تحقيق أحلامي، صحيح أن هذه الأمجاد لم تكن مسجلةً باسمي، لكني كنت راضيًا عن ذاتي، الناس لم تكن تعرفني، لكني كنت أعرف مَن أكون وهذا كان كافيًا بالنسبة لي، وعندما انطلقت إقصاءات جائزة قنليجيا الكبرى كنتُ من أوائل المشاركين، ولم أدع أي مجالٍ للمصادفة فقد توجت بكل السباقات الإقصائية بفوارق مذهلة، وما هي إلا سنة ونصف حتى وجدت نفسي أخيرًا في النهائي... جهزت نفسي كما ينبغي لهذا الحدث وقمت بتجهيز السيارة بكل المعدات اللازمة لكي أجعلها تكسب هذا السباق المصيري، وقد كنت وقتها السائق المحلِّي الوحيد في النهائي حيث تأهل سائقان أجنبيان عن مقاطعتَي سيزيف وقنليجيا العاصمة، بينما كنت المتأهل عن مقاطعة رشد كون رخصة

قيادتي صدرت هناك فقد تحصلتُ عليها إبان فترة أدائي للخدمة العسكرية في تلك المنطقة، وجاءت ليلة النهائي، وصلت إلى مضمار «المهالك» على الساعة السابعة والنصف مساءً وكان الجوُّ عاصفًا ماطرًا حتى انتابنا شكٌّ أن اللجنة المركزية لاتحاد روابط السيارات ستلغي السباق وتؤجله إلى وقتٍ لاحق، لكنهم أخبرونا أنه لن يكون هنالك تأجيل، وفي اللحظات الأخيرة من الاستعداد لهذا الحدث جاءني موظف في مكتب المواصلات وأخبرني أن هناك مكالمة هاتفية تطلبني بالاسم... لم أرد عليه، كنت أتصور أن بعض المعجبين يريدون التحدث إليَّ لكن الموظَّف نطق اسمي الحقيقي همسًا: «إنها مكالمةٌ مستعجلة وعلى درجةٍ كبيرة من الأهمية سيد نفيس».

أغلقت باب سيارتي وتوجهت إلى كابينة الهاتف، وحملت السماعة وكان العم المحترم يتحدث إليَّ من ورائها بصوتٍ مقتضب:

- قم بإلغاء كل ما تقوم به الليلة وتوجَّه إليَّ بأقصى سرعة... ثمة مهمَّة في غاية الخطورة بانتظارنا.

لم أدرِ ما أقول، في كابينة الهاتف تلك واجهت مفترق طرق أعتقد أن كلَّ جندي قد وقع فيه من قبل، كنت في قمة الهرم، أشاهد حلمي يتوهَّج بجانبي متجليًا، يقترب من أناملي ولم يكن عليَّ سوى رفع يدي لالتقاطه، ولكن تلك المكالمة الهاتفية التي وصلت إليَّ من سفح الهرم وضعتني على المحك، ولم أستغرب وأنا أضع السماعة على الهاتف وأخرج من تلك الكابينة أنني توجهت إلى محافظ السباق لأخبره بأنني سأنسحب، لكني وقُبيل أن أقوم بذلك رأيت سيارة بلايموث مطابِقة تمامًا لسيارتي تأخذ مكانها في خط البداية ففهمت أن العم المحترم قد حسب حسابًا لغيابي واستبدلني بسائق آخر وسيارة أخرى دون أن

ينتبه أحد، وفي غفلةٍ من الجميع قدتُ سيارتي مبتعدًا عن مكان السباق نحو بيت العم المحترم أين كان ينتظرني، لم أصدق ما كنت أقوم به في تلك اللحظة، مثلما لم يكن لأحدكم أن يصدق، لكني استوعبت لاحقًا أن ما حدث في كابينة الهاتف تلك كان اختبارًا حقيقيًّا لولائي، ومرة أخرى تركت أحلامي تنصهر وراء ظهري وأنا أقود سيارتي نحو مكتب العم المحترم، الذي أخبرني أن علينا التوجه بأقصى سرعة إلى قلب الصحراء الكبرى مرورًا بمطار «العش» في محافظة سيزيف...

قاطعه عُقاب قائلًا بدهشة:

- ما هي طبيعة هذه المهمة الخطِرة التي لا يمكن لأحد سواك إنجازها لتنسحب من أهم سباق في التاريخ لأجلها؟

ابتسم الرجل وقال وهو يضع الساق على الأخرى مستندًا إلى أريكته:

- قلت لك إنها حكاية طويلة ولن تستطيع معها صبرًا.

تأفف عُقاب وشعر بالسأم من نفسه وقال معتذرًا:

- سامحني أرجوك فقد نسيتُ نفسي أمام قصتك العجيبة، إن قاطعتك مرة أخرى فلا تكمل سردها... سأسكت ولن أقول شيئًا.

- كانت المهمة غريبة بعض الشيء، لم يعطني العم المحترم كثيرًا من التفاصيل حولها، كما أنها كانت أول مرة يذهب فيها هو شخصيًّا معي في مهمةٍ يوكلني بها، عرَّجنا على رجل غريب في وسط المدينة، وجلسا في المقعد الخلفي من السيارة، وطلب مني العم المحترم أن قُد بكل سرعتك ومهارتك في القيادة نحو مطار العش بمحافظة سيزيف. قمت بتنفيذ الأوامر بحذافيرها في تلك الليلة العاصفة الماطرة، وبعد أربع ساعات من القيادة المسترسلة كنا على مشارف سيزيف.

فغر عُقاب فمه من الدهشة دون أن يقول شيئًا لكي لا يقاطعه مرة أخرى وشعر أن هذا الرجل إما كذَّاب وإما مجنون، إنَّ أسرع سيارة في العالم لا يمكنها أن تقطع المسافة بين قنليجيا العاصمة ومحافظة سيزيف في أقل من سبع ساعات ونصف كأقل تقدير، حتى لو كانت سيارة سباق خارقة... وتساءل عُقاب في قرارة نفسه: «*أيُّ سائق عظيم كنت أيها الكهل؟*».

قال نفيس مضيفًا:

- وصلنا إلى المطار، وانتظرتهما خارجًا، أخبرني العم المحترم أنهما سيخرجان منه برفقة رجل ثالث وأنهم سيستقلون سيارة أجرة نحو الصحراء، وسيتعين عليَّ أن أتبعهما دون أن أقوم بأي حركةٍ لافتة للانتباه، على أن أتدخل في اللحظة التي يطلب فيها العم مني مساعدة... وكما كان الأمر، خرجا من المطار بعد نصف ساعة وبرفقتهما رجل بملامح أجنبية خبيثة، وركب الثلاثة سيارة أجرة وانطلقت في وجهتها جنوبًا وتبعتهما دون أن ألفت نظر أحد، ووصلت السيارة إلى مكانٍ مهجور في قلب الصحراء، مكان أثري كان مليئًا بمعدات الحفر والتنقيب، ركنتُ سيارتي بعيدًا عنهم وجلست أراقب الوضع... نزلوا وسلَّموا السائق أجرته ثم اندفعوا نحو المكان، لم أقاوم فضولي بصراحة ونزلت من سيارتي بدوري وتبعتهم... مشوا عبر الآثار القديمة حتى وصلوا إلى مغارة حجرية غريبة، وقفت أراقبهم عن بُعد ودخلوا ثلاثتهم إليها، غابوا فترة طويلة من الزمن، فترة تزيد على الساعة ونصف، حتى بدأت تنتابني شكوك بأن مكروهًا ما قد أصابهم ومنعت نفسي بقوة من أن أتبعهم إلى الداخل فقد كان العم المحترم سيقتلني لو فعلت، وفي لحظة يأس سمعت فجأة دويَّ انفجارٍ هائل تحت

الأرض يشبه صوت تحرك الصخور واحتكاكها ببعضها، ثم رأيت الرجل الأجنبي يخرج من المكان ذاهلًا كأن شيئًا ما أصابه، وجاء اثنان من رجاله لم أدرِ ما الذي كانا يفعلانه في المكان ولا كيف وصلا إليه فأخذاه في سيارةٍ وغاب بلا أثر، كنت سأركب سيارتي لأتبعهم لكني سمعت صوت العم المحترم يناديني من داخل المغارة، فاقتربت منها وإذ به يخرج مسندًا الرجل الذي أخذناه معنا من قنليجيا على كتفه، كانت ملامح العم جامدة واجمة، أما الرجل فقد كان في حالةٍ خطِرة جدًّا حيث احمرَّ وجهه وبانت العروق منه كأنه على وشك الانفجار وكان يقيء دمًا. «ساعدْنِي في حمله وأخرِجنا من هنا بسرعة»، قال لي العم. ركبنا السيارة وانطلقنا بأقصى سرعتنا، وفي الطريق بدأت حالة الرجل تسوء أكثر، كانت عليه أعراض خطِرة لم أشاهد مثلها من قبل حتى في أسوأ الأمراض خطورة، كان يصيح من الألم وكنت أقود بأقصى سرعتي لأصل إلى أقرب مستشفى، ظلَّ يردد: «الأمانة... لا تنسَ الأمانة».

بينما كان العم المحترم يهدِّئ من روعه ويحاول تخفيف آلامه بأي طريقةٍ حتى وصل الأمر بالرجل أن طلب من العم أن يطلق عليه النار، في مشهدٍ لن أنساه ما دمت على قيد الحياة، لكن العم لم يفعل... كنا قد بلغنا مشارف سيزيف حين وصلنا إلى مستوصف في أحد الأرياف ووصلت الحالة الصحية للرجل إلى وضع خطِر جدًّا حيث لم يعد قادرًا على الكلام وكان يهذي بدلًا من ذلك، نظرت إليهما من مرآة السيارة ورأيت شيئًا هائلًا، لقد كان الزبد يخرج من فمه، ولحم وجهه بدأ بالتساقط، في تلك اللحظة اتخذ العم ما سمَّاه في ما بعد أقذر قرارٍ في حياته كلها، حين ترك الرجل عند باب المستوصف وغادرنا المكان... ظلت

هذه الحادثة محفورة بشكلٍ عميق في داخلي، حاول العم أن يعيدني إلى حياتي الطبيعية عبر قيادة السيارات لكني لم أستطع نسيان ما فعله ولم أغفرها له ولا لنفسي، ما فعلناه كان فظيعًا، صدقني يا عُقاب، إن أسوأ ما قد تقوم به في هذه الحياة هو أن تترك إنسانًا لمصيره.

تنهَّد الرجل في تلك الأثناء وقال:

- بعد ثلاث سنوات، تُوفي العم المحترم في ظروفٍ جدُّ غامضة، لم أصدق أن رجلًا كالعم يمكن أن يموت ميتة عادية، فتابعت الموضوع بنفسي... وكرهت سباق السيارات وكل ما يربطه به من علاقة فلفَّقتُ حادثة موت الأسطورة أسامة زيدان.

في تلك اللحظة انتبه عُقاب إلى أمرٍ غاية في الأهمية، وقاطعه قائلًا:

- ما نعرفه جميعًا أن السائق الأسطوري أسامة زيدان خسر ذلك النهائي حيث كان أداؤه باهتًا لأسباب غامضة، لكن صديقي نجمي أخبرني أنك السائق الوحيد الذي انسحب من نهائي قنليجيا، فكيف عرف أن سائق تلك السيارة ليس أنت بل سائق مزيف وكيف علم بقصة انسحابك السري من السباق؟

ابتسم نفيس، وقال بمنتهى الهدوء وهو يقف من مكانه:

- أخبرتك أن قصتي طويلة... وأنك لن تستطيع معها صبرًا.

ظلَّ عقل عُقاب مشدوهًا عند هذه التفصيلة... لكنها لم تكن الشيء الوحيد الذي أذهله في قصة الرجل، لقد كان هناك سؤال أخطر بكثير يدور في عقله في تلك الأثناء. «*صحراء... مكانٌ أثري... غار*». لقد سمع هذه التفاصيل من قبل... لكن أين؟

أسعد

كان الجو لطيفًا إلى حدٍّ ما عندما جلس على الكرسي الحجري قبل نصف ساعة وراح يراقب حركة الناس في الكورنيش الكبير لمدينة قنليجيا، هذا الساحل العظيم الذي أبحرت منه وإليه أعظم السفن في التاريخ، بعضها جاء بالحب، وبعضها جاء بالحرب... وكلا الصنفين رسم تاريخ عائلته العريقة... نظر إلى ساعة يده وكانت تشير إلى الثامنة وثمانٍ وعشرين دقيقة مساءً... وبين ثنايا السواح وزوار الكورنيش رأى أسعد خطيبته سلمى تقترب قادمة وهي ترتدي بلوزة بيضاء وبنطالًا أسود فضفاضًا، مرَّت سبع سنوات كاملة على اليوم الذي فتحا فيه وصية والده ماجد بن الهبَّار والتي ختمها بأن أوصاه أن يتخذ هذه الفتاة زوجة، لكن سلمى استغرقت وقتًا أطول من المتوقع في الموافقة على عرض أسعد بالزواج منها حتى إن هذا الأخير اعتقد أنها لن توافق على الإطلاق، كانت سلمى جميلة، ذكية وضليعة في التاريخ مُحبَّة له، لكن ذلك كله كان بالنسبة إلى أسعد في كفَّة، ودقَّتها في الوصول في الميعاد المحدد كانت في كفَّة أخرى، لقد اتفقا على الالتقاء في الساعة الثامنة والنصف مساءً هنا في قلب الكورنيش، وها هي تصل إلى المكان المحدد قبل دقيقتين من التوقيت المحدد..

جلست بجانبه وقالت وهي تضع محفظتها بينهما:

- مساء الخير... متى وصلت؟

- منذ ساعتين تقريبًا، آثرت أن أقرأ المزيد من الكتاب هنا بعيدًا عن صخب الزبائن وضجيج التجَّار، أخبرت عاكف ألا يتصل بي حتى لو قامت حربٌ عالمية.

ألقت بنظرة إلى الكتاب الموضوع بجانبه ونظرت إلى الفاصلة البارزة منه، ثم نظرت إليه مرة أخرى وقالت مبتسمة:

- مَن كان يصدق أن أسعد بن هبَّار، التاجر المشغول على الدوام، سينقطع عن تجارته ويجلس هنا قبالة أمواج البحر ليقرأ.

حمل الكتاب متجاهلًا تهكمها وقال وهو يشير إلى العنوان:

- أكثر ما يشوِّقني إلى قراءته هو سبب تسمية تلك الحرب بحرب الحواجب السوداء، أعني... لِمَ الحواجب السوداء تحديدًا؟ ولِمَ الحواجب بالتحديد؟

كانت ستجيبه لكنه قطع عليها كلامها قائلًا:

- لا أريد أن تقولي شيئًا، إنني مستمتع بالقراءة فلا تحرقي عليَّ أحداثه.

ضحكت وهي تقول ملتقطةً الكتاب عنه:

- أنت تقرأ كتابًا في التاريخ يا أسعد وليس رواية بوليسية لكي تتجنب الحرق.

قال متنهدًا وهو ينظر إلى زبد البحر وأمواجه المتلاطمة:

- تاريخنا كله روايات بوليسية يا سلمى، هذه الرقعة من الأرض لم تعرف السلام قط.

فتحت الكتاب ونظرت إلى العنوان الذي توقف عنده... وفي تلك اللحظة قال متسائلًا:

- ألا تجدين طريقة أبي في الكتابة غريبة نوعًا ما؟ إنه ينطلق من الماضي القريب إلى الماضي الأبعد، كأنه يكتب التاريخ بالمقلوب...

قرأت بصوتٍ مسموع:

- الملك شاور بن هبَّار.

ثم نظرت إليه وقالت مبتسمة:

- ربما يعرف البروفيسور أن الجيل الجديد من الشباب لا يقرؤون الكتب كثيرًا، أو يملُّون قراءتها، فراح يعطيهم الزبدة من البداية على أن يأتي على ذكر التفاصيل لاحقًا.

ثم قالت وهي تُقلب صفحات الكتاب:

- شهدت القرون العشرة التي تلت حرب الحواجب السوداء عدة حملات عسكرية من القارة الغربية الوسطى نحو مملكة الشرق، إلى أن اندلعت الحرب الأهلية هناك فخفَّت وطأة الحملات من الغرب نحو الشرق.

قال أسعد مستدركًا:

- أو لنقل إلى أن اتخذ الملك شاور القرار الأكثر حسمًا في التاريخ... حين تنازل عن عرش أجداده لشعب المملكة لكي يُجنبهم المزيد من الدماء والحروب فقد أيقن أن السلالة الملكية لآل الهبَّار هي المستهدف الأوَّل من كل هذه الحملات والحروب التي شنها الغرب على الشرق من أمدٍ بعيد..

ساد الصمت بينهما للحظات، وسط زحمة المارَّة وضجيج أمواج البحر، ثم قالت مقطِّبة حاجبَيها:

- وهل تصدق أن الملك شاور قد تنازل على الملك فقط لكي يمنع الغرب من التفكير في غزو الشرق؟ إن للغرب مطامع تاريخية في نهب خيرات الشرق وثرواته، لم يكن للموضوع علاقة بآل الهبَّار فحسب، ثمة سببٌ آخر دفع شاور إلى اتخاذ تلك الخطوة.

ثمَّ قلَّبت مزيدًا من صفحات الكتاب التي كان قد قرأها ووقعت عيناها على عنوان «ميثاق القبة الخضراء» فوقفت عنده وهي تقول:

- ما رأيك بما أسفر عنه الميثاق؟ بكل صدقٍ وحيادية؟

نظر إليها وهمَّ بأن يجيب لكنها قاطعته:

- كنت ستكون اليوم أحد أمراء المملكة وربما الوريث على العرش لولا ذلك الميثاق، أليس كذلك؟

- وكنتِ ستكونين الأميرة الموعودة للأمير والملكة القادمة للمملكة أليس كذلك؟

ضحكت سلمى وقالت وهي تلكم كتف أسعد:

- ما كان ليحدث ذلك أصلًا، لو كنت أميرًا على هذه البلاد، فلن تهتم لأمري من الأساس.

قال وهو ينظر إلى عينيها مباشرةً:

- نعم، ربما ما كان ليحدث ذلك أصلًا، فلولا ميثاق القبة الخضراء لربما ما كنت موجودًا الآن وما كان لنسل عائلتنا أن يستمر إلى اليوم، فقد كان شاور قد وضع في ميثاقه بندين أطلق عليهما «الشرطين الذهبيين» لتسليم الحكم، أولهما كان تعهدًا من مجلس الشيوخ بأن يحمي سلالة عائلة الهبَّار على مر العصور، لا أعتقد أن نسلنا كان سيستمر لولا هذا البند، ولكن يا سلمى... حتى لو

كنت أميرًا على الدنيا كلها لن أرى فيها سواكِ فلا تظلمي جمالكِ الملكي يا فتاة.

أشاحت بناظريها عنه مبتسمةً ولم تقل كلمة أخرى، وشعر أسعد بأنه أخجلها بغزله، فأطرق قليلًا ثم قطَّب حاجبيه متسائلًا:

- ما عساه يكون السبب الآخر الذي يدفع شاور إلى التنازل عن الملك؟

نظرت سلمى إلى الكتاب، وقالت وهي تُشير إليه بعينيها:

- حين تُنهي قراءته ستفهم... لا أريد أن أحرق عليك الأحداث.

- إنني أساسًا متوقفٌ عند هذه الجزئية بالذات فلا بأس بأن تشرحيها لي.

تنهَّدت سلمى، ثم قالت بصوتٍ حيوي كأنها تُلقي محاضرة ما:

- لم يكن الملك شاور مقاتلًا قويًّا ولا فارسًا همامًا ولا قائدًا بارعًا، لكنه كان رجلًا يتسم بالحكمة ومهتمًّا بالعلم والتاريخ تمامًا مثلما كان البروفيسور ماجد، لم تصفه الأشعار والمعلقات بأنه كان شجاعًا أو مقاتلًا أسطوريًّا، لكنه كان يملك من الشجاعة ليفعل ما لم يفعله غيره، لقد غيَّر تاريخ هذه الأرض... ففي عصر الملك شاور تزايُد الاحتقان الشعبي والغضب بين الناس بسبب تردِّي الأوضاع المعيشية، لقد دفعت مملكة الشرق أثمان حروب الحملات العسكرية الغربية باهظًا، فزاد مجلس الشيوخ من الإتاوات على الناس لأجل تسليح الجيش وتجهيزه، ولقد ألغى شاور هذه الإتاوات بمرسومٍ ملكي بعدما كانت سببًا في مضاعفة المشكلات الاقتصادية والمعيشية وسط السكان، فأدى ذلك إلى غضبٍ واسع في صفوف الجيش من جهة، وفي مجلس الشيوخ الذي اعتبر مرسوم الملك تدخلًا صارخًا في صلاحيات المجلس

من جهةٍ أخرى، في الواقع لقد كانت أزمة الإتاوات تلك هي القطرة التي أفاضت الكأس، فالقبضة الحديدية بين ملوك مملكة الشرق ومجلس الشيوخ كانت موجودة من قبل الملك شاور، إلى درجة أن الملك نزار بن هبَّار الجد الرابع لشاور كان قد أصدر مرسومًا ملكيًّا بعزل كل أعضاء مجلس الشيوخ إبَّان فترة حكمه وكل هذه الخلافات كانت بسبب الحروب بين الشرق والغرب، إذ لا يمكن أن تستقرَّ مملكة داخليًّا بينما تهددها الأخطار الخارجية من كل حدب وصوب، الأمر أشبه بأن تضع قدرًا من الماء على النار ثم تنتظر من جزيئات هذا الماء أن تظل مستقرة ولا تبدأ بالغليان... وقد كانت قيادات الجيش دائمًا هي الفيصل في كل النزاعات بين الملك ومجلس الشيوخ، إلا في عهد الملك شاور، فقد نقم الجيش عليه أيضًا بسبب تقليله من ميزانية التسليح، وهكذا بات وضع المملكة على المحك، الملك والشعب من جهة، ومجلس الشيوخ والجيش من جهة أخرى... وانقسمت المملكة، ومثلما حدث في القارة الغربية الوسطى، كانت مملكة الشرق على شفا الانهيار والانجراف نحو حرب أهلية مدمِّرة، وهنا اتخذ الملك شاور أشجع قرار في التاريخ، حين دعا إلى انعقاد المؤتمر التاريخي في القبة الخضراء، وهناك قال كلمته الشهيرة: «لن أجلس على عرشٍ يتسبب في سفك دماء شعبي، سواءً كنت ترتدي جبَّة مجلس الشيوخ، أو درع قائد عسكري، أو زيَّ فلاح بسيط... كلكم أبناءُ شعبي، وأنا مستعدٌّ لأن أحميكم بدمائي لو اقتضى الأمر... سوف أمنح هذا الشعب ملكي وملك آبائي، إذا طلبتني الأرضُ فسوف أكون فلاحًا، وإذا دقت طبول الحرب فسوف أكون سفَّاحًا»، وذهل جميع الحاضرين من كبار أعيان المملكة وشيوخها، واستعرض الملك شاور في «ميثاق القبة الخضراء» مشروعه لتسليم السلطة

وتغيير نظام الحكم من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري وفق مبدأ تداول السلطة... وقد وضع هناك ما يعرف بـ«الشرطَين الذهبيين» واللذين كنت قد أشرت إلى أحدهما في حديثك السابق... ولأن ما قام به شاور كان قرارًا تاريخيًّا جنَّب المملكة سفك الدماء فقد قرر مجلس الشيوخ تسمية الجمهورية باسمه، فتحول اسم هذا البلد منذ ذلك العصر من «مملكة الشرق» إلى الاسم الذي هي عليه اليوم.

أطلق أسعد تنهيدة وهو يهز رأسه مستوعبًا بقوله:

- بلاد شاور... آه يا سلمى لكم أنني زوجٌ مستقبليٌّ سيئ، يبدو أنني قد أفسدت لقاءنا بالحديث عن التاريخ والسياسة... ألا تشعرين بالبرد هنا؟

ردَّت عليه مبتسمة:

- لا عليك يا عزيزي، فأنا التي فتحت معك الموضوع على كل حال.

قاما من مكانهما وسارا عبر الكورنيش، وضعت سلمى يدها على ذراعه وأمسكت بها وراحا يتجاذبان أطراف الكلام، ضحكت لنكته وكانت سعيدة بالوجود معه فقد بدأت تتعود عليه... رفعت عينيها نحوه وهي تصغي إليه حين كان يسرد لها واقعة طريفة أخرى حدثت معه في السوق، وعلى ذراعه اليمنى بين مرفقه وكتفه كانت هنالك شامة متوسطة الحجم على شكل هلال.

أمغار

فتح أمغار باب الحجرة التي تُطلق عليها عديلة لقب «بيت المؤونة»، وقال وهو يراقب محتوياتها من الخارج:

- أظن أن معنا ما يكفي للصمود إلى نهاية الأسبوع بحول الله، أمم البقوليات من الفاصولياء والعدس والبازلاء والحمص وفدَّانين من القمح، ثمة لحمٌ مقدد أيضًا وسلة كاملة من البطاطا و... ما هذا سمك؟ أوه صحيح لقد جلبته من النهر المتجمد قبل أيام.

قالت وهي تضع مزيدًا من الخشب في الموقد:

- الحمد لله أننا اتخذنا احتياطاتنا يا أمغار، ففي الإذاعة قالوا إن هذه العاصفة الثلجية سدَّت كل الطرق التي تؤدي إلى ريفنا، ولا أظن أن الباعة المتجولين سيكونون قادرين على الوصول إلينا في هكذا أحوال جوية سيئة.

أغلق أمغار الباب وعاد إلى بهو البيت متثائبًا، فهتف به الصبيُّ حين رآه على حاله تلك:

- لا تقل إنك نعست؟ ألن تسرد لنا تكملة القصة اليوم؟

قاطعته هديل بصوتها الناعس:

- يستحيل أن ينام جدي قبل أن يقصَّ علينا شيئًا من قصصه فلا تتحدث معه بهذه الطريقة الفظَّة يا هذا.

ابتسم أمغار وهو يطفئ التلفاز، وبقية أنوار البيت، وضعت عديلة كوب مشروب اللويزة بجانب أريكته الأرضية وعدَّلت من إضاءة المشكاة المعلقة بجانبه، وبالقرب منه جلس كلٌّ منهما على فراشه الذي كانت عديلة قد جهَّزته وفرشته آنفًا، وقال أمغار وهو يجلس قربهما:

- أين توقفنا ليلة أمس؟

قال الصبي على عجل:

- توقفنا في اللحظة التي سقطت فيها داليدا في البحر الهائج وسبح إليها نارمر لإنقاذها.

قال أمغار وهو يمسح على لحيته..

- ذاكرتك قوية يا فتى.

وأضاءت المشكاة الغرفة في هدوء وسط طقطقة الخشب، والرياح العاصفات في الخارج تصفي حساباتها مع أغصان الشجر وتجردها من الأوراق وتقتلع بعضها من الأرض اقتلاعًا... بينما تصمد بقية الأشجار في ثباتٍ ويقين بأن رياح الشتاء مهما اشتدت قوتها ستخمد يومًا... وسافر أمغار بالولدين وعديلة إلى الماضي مرة أخرى... إلى ألفين وخمسمئة عام قبل هذا اليوم...

(حكاية حرب الحواجب السوداء: قبل أكثر من 2500 عام)

ونجا نارمر الأمير ومحبوبته الحسناء من بحرٍ هائج تكاد أمواجه تنطح عنان السماء، حيث أنقذهما رجال الأمير بعدما قضوا على أتباع السفير الذي هرب ونجا من سوء المصير، وعاد الجميع إلى القصر حيث الملك رمسيس ينتظر، ودخلوا عليه في بلاطه وقبلوا الأرض تحت بساطه، وقال نارمر إن السفير قد نجا وهرب، فاستشاط أبوه الملك منه وغضب، ورأى داليدا بنت السفير تقف بالقرب من ابنه ووريثه الأول

والأخير، فأمر السيَّاف «ابن آوى» بأن يأتيه برأسها، فحمل «ابن آوى» سيفه العظيم واسمه «هلع» واقترب من داليدا التي تملكها الفزع، وفي اللحظة التي همَّ فيها بضرب عنقها الخوَّاف، تدخل الأمير نارمر وحال بينها وبين السيَّاف، ووقف وقال لأبيه بشجاعة إنَّ ضرب عنق فتاة بريئة أمرٌ غاية في البشاعة، وأنه لم يجلب داليدا إلى القصر بصفتها واحدة من الأسرى، إذ لا تزر وازرةٌ وزر أخرى، فالذي وقع من خيانة أبيها ليس من شأنها أو تدبيرها، والدليل أنها رمت نفسها في البحر إخلاصًا لمملكة الشرق وأميرها، وحكى له كيف أنها هربت من ظهر السفينة لتعود إلى اليابسة وهي تدرك أن الكل يحمل لها ولأبيها الضغينة، وأسهب نارمر في سرده، وسعى إلى إقناع أبيه بأن يسمح له بالزواج منها، وقد سامحها الملك رمسيس لكنه رفض أن تتزوج من ابنه الوريث لأنه يريد لدماء عائلته أن تظلَّ نقية، وصاح برجاله «أخرِجوا من قصري هذه الحيَّة»، فاستشاط نارمر غضبًا وخلع درع الفروسية، وتخلَّى عن لقبه كقائد أعلى للجيوش المشرقية، وخرج من قصر أبيه بعدما قطع منه الأمل، وباءت محاولات الإصلاح بينهما بالفشل، فنارمر الذي كان معروفًا بطباعه العنيدة، ركب عربته وأخذ محبوبته داليدا وسافرا معًا إلى مدينة بعيدة، وتزوَّجا في حفلةٍ بسيطة وسعيدة، فزفَّت إليه وزفَّ إليها، والتقيا في ليلةٍ كثيرة النجوم في السماء، بعد طول شقاء وعناء، واشتكى كل واحدٍ منهما للآخر لوعة الفراق، وعالجا حروق الشوق بالمحبة والعناق، وتسامرا معًا في حبٍّ وانشراح إلى أن حلَّ الصباح فنام كلٌّ واحد منهما في حضن محبوبه وارتاح...

وبعد شهرٍ وليلة، حلت بداليدا العروس وعكة عليلة، فزارتها الطبيبة «عقيلة» وفحصتها في غرفتها الكبرى، ثم خرجت من هناك تنقل البشرى، ولم يكن نارمر يفهم في هذه المسائل، فشرحت له عقيلة أن

زوجته حامل، فطار نارمر من السعادة والفرحة، وأجزل العطاء لعقيلة وتمنى لها دوام السلامة والصحة، وانتقلت هذه البشرى على كل لسان وفي كل مجلس ونيس، حتى وصل الخبر إلى أذن الملك رمسيس، فجهَّز حاشيته وأمر بسيفه، وخرج على رأس قادته من العساكر، إلى حيث يقيم ابنه نارمر، وما هي إلا ليلتان وصبيحة، حتى وصلت حاشية الملك إلى قلعة نارمر المليحة، وحزن كل مَن في المشرق وما يليه، وترقبوا حربًا بين الولد وأبيه... وكان رمسيس سقيمًا متألمًا، إذ لم يفده الطبيب راع ودواءه، فسموم السفير تشارلز قد مزقت أمعاءه، وبات يرى في المنية شفاءه، وفتح نارمر أبواب قلعته لحاشية أبيه الملك المبجَّل، رغم أن الكثير من ندمائه نصحوه بألا يفعل، ودخل الملك القلعة بلا قتال، ووقف نارمر في قلبها يستقبل أباه بأدب كما يفعل الرجال، فنزل الملك رمسيس من جواده واقترب، ونظر الجميع إلى الأب وابنه وترقب... وما إن وقف كل واحد منهما أمام الآخر، حتى قال الملك بصوتٍ سمعه كل وفيٍّ ومتآمر: «أرني كنَّتي يا وليدي، لأهنئها على حملها حفيدي». وكانت تلك علامة واضحة رفيعة، على عودة العلاقات وانتهاء القطيعة، فعانق نارمر أباه وبكى، وحدَّثه عن آخر أخبار المملكة وحكى، ودخل نارمر إلى زوجة ابنه داليدا، وقبَّلها كما يُقبل الأب ابنته الوحيدة... وفي خلوة الثلاثة، نارمر وداليدا والملك رمسيس، فاجأ هذا الأخير العروس والعريس، وأهداهما كنزَ عائلته النادر النفيس، حيث أخرج من جبَّته صندوقًا أسود مصنوعًا من الخشب، وما إن رآه نارمر حتى تلعثم واضطرب، وفتح الملك الصندوق وقال: «هذا كنزي وكنز آبائي على مر الزمان، سبعة جواهر حجم كل واحدة منها كحبة رمان، يتوسطهنَّ حجر الكهرمان، هذه التحفة النادرة التي تحبس بداخلها فراشة سوداء منذ سالف العصر والأوان، هي الآن من نصيبكما، ومن نصيب حفيدي وذريته من بعدكما». وفغرت داليدا فاها وأصابها الذهول فباتت حالتها حرجة،

ولم يصدق نارمر أن أباه سيذهب إلى هذه الدرجة، فعمت السعادة كامل أرجاء القلعة، وطارت داليدا فرحًا بالكهرمان وأحجارها السبعة...

ومكث الملك عند ابنه نارمر لأيام، حيث ساءت حاله وأكلت أحشاءه الآلام، وبات لا ينام ليلًا ولا نهار، ولا يأكل طعامًا إلا واستفرغ بلا انتظار، وما هي إلا ليالٍ معدودة، حتى فاضت روحه وسافر من غير عودة، وهذا ما كان من أمر مملكة الشرق، وأما في المملكة الوسطى، فإن أخبار تشارلز قد سبقته إلى المملكة، ففرح ريتشارد بكل الذي وقع لأخيه، وعزم على استغلاله في ما عزم عليه، وكان أول ما قام به في الحال، هو وضع أخيه فور وصوله رهن الاعتقال، وقيَّده في الإقامة الجبرية، وخرج للجماهير في خطبةٍ ملكية، أن «أيها الناس في هذه البلاد، إن ابنتكم داليدا قد سُبيت من طرف أهل الشرق الفُسَّاد، حيث سباها نارمر بن رمسيس ومَن معه من كلاب، ولا شك أنها تعرضت للتحرش والاغتصاب، فهذا الشرق بات مأوى للهمج المكبوتين، وإن سكتنا عليه كنا من الهالكين، فهذه ابنة أخي أنا ملك هذه الديار لم تسلم من أيادي الغادرين، فماذا تحسبونهم إذن ببناتكم فاعلين؟». وظلَّت أبواق الملك ريتشارد تنشر الأخبار، وتنقل أخبارها الزائفة في كل الأقطار، حتى هاجت الجماهير واستنفرت، وعزمت على القتال وعن أنيابها كشَّرت... وجهَّز قيادات ريتشارد الجيش الجرَّار، وبألفي سفينة استعدوا للإبحار، وأطلقوا للرياح شراع سفنهم، وأبحروا نحو الشرق بكامل قوَّتهم... ووصلت الأخبار إلى الشرق حيث كان نارمر حزينًا على أبيه، وقيادات العسكر مختلفة فيما بينها في مَن يواليه، فبعضهم قال إن نارمر ليس بأمير علينا إذ تخلّى عن المسؤولية في حياة أبيه الملك، وبعضهم قال إن الملك قد صالحه قبل أن يهلك، وما زالوا في أخذ ورد في كل صبح وعشيَّة، حتى وصلت الأخبار من سواحل قنليجيا، بأن جحافل المملكة

الوسطى قد وصلت إلى الشرق وبدأت بغزو المملكة الأبية، وكان أول مَن وقف في وجههم رجلٌ شهم يقال له «فداء»، وكان فداء هذا رجلًا شجاعًا وفارسًا معطاء، ما من ليلة تُهدى إليه فيها عروس من أجمل النساء، أو يبشر فيها بغلام من الأبناء، بأحبٍّ إليه من ليلةٍ في الصيف أو الشتاء، على رأس سرية من رجاله يصبِّح بها الأعداء، وكان معه بضعة فرسان، تجمعوا في الساحل الشمالي بلا ذلة ولا هوان، ووقف فداء قبالة جيوش القارة الوسطى وصاح بأعلى ما في حباله من صوت وكبرياء، أن «المرأة التي جئتم تطالبوننا بها وُلدت في الشرق وحواجبها سوداء، وقد كان أبوها عقيمًا لولا أن ساعدته طبيبتنا شفاء، وهذا أبوها تشارلز فاسألوه يمدكم بالأنباء، لولا أن حبسه ملككم الظالم الذي طمع في الشرق وما فيه من أراضٍ خصبة غنَّاء... فإن جئتم ضيوفا أقريناكم وأكرمنا نزلكم وأبدينا الإخاء، وإن جئتم سيوفًا، فنحن رجال الشرق لا نحني اللواء».

واستلَّ فداء سيفه البتَّار، وكذلك فعل مَن معه من فرسانه الأحرار، وتقدموا بشجاعة وهم قلة نحو ريتشارد وجيشه الجرَّار، وصمدوا صمود السباع في وجه الضباع الطمَّاعة، ولكن الكثرة للأسف الشديد تغلب الشجاعة... فمات فداء ومَن معه في الميدان، وباتت سيرة شجاعتهم على كل لسان، ووصلت الأخبار إلى الجنوب المنقسم، فعقد نارمر اجتماعه الأخير، ودعا إليه كل قائد ووزير، وأعلن بصريح العبارة أنه سيقود جيوشه الجرَّارة، وكل مَن يواليه من رجال لملاقاة جيوش ريتشارد في السهول والجبال، وأن الوقت ليس مناسبًا للتفلسف في السياسة، بينما الأرض تضيع والشرف يستباح بكل عنف وسلاسة، فاتفق معه الأعداء والأصدقاء، وجمعوا كل ما في خزائنهم من أموال، وجيشوا جيوشهم لتحرير الشمال، وقد أطلق المؤرخون على هذه الحرب الشعواء اسم «حرب الحواجب السوداء» نسبةً إلى خطبة الرجل العظيم فداء، والذي

كان يقصد بها حواجب داليدا الحسناء... وأنها تنتمي إلى الشرق وليست بشقراء، كما هو الحال في القارة الوسطى مع النساء...

وأما ما كان من أمر هذه الأخيرة، فإن المخاض جاءها في شهرها السابع، قبل يومٍ وليلة من خروج نارمر على رأس جيوشه، وأنجبت ولدًا فرحت به المملكة رغم أحزانها، فمملكة الشرق تفخر بأولادها وبناتها في عز الحرب كما تفخر بهم في وقت السلام والحب، وحمل نارمر ابنه بين يديه فتملكته السعادة وطار، ودمعت عيناه من الفرحة بعد طول انتظار، وأطلق عليه اسم «هبَّار» ومعنى اسمه «السيف» نسبةً إلى الظروف التي وُلِدَ فيها هذا الضيف... وقبَّل نارمر ابنه وزوجته، وحمل سيفه ودرعه، وخرج على رأس جواده الصهَّال لتحرير الشمال من سطوة الأنذال... فقاتل هو ورجاله بضراوة واستبسال، واستمرت هذه الحرب ثمانية أعوام وأربعة أشهر بالتمام، إلى أن جاءت وقعة قنليجيا الكبرى، والتقى رجال نارمر البواسل ريتشارد وقياداته، ودارت رحى المعركة لأسبوع أو أكثر، والرجال بين كرٍّ وفر، حتى تمكن ثوار الجنوب من قطع رأس الملك المكلوب ريتشارد الطاغية، وأسروا مَن تبقى من فئته الباغية، وانتصر الشرق في الحرب، لكن الثمن كان باهظًا بالمقابل، فقد مات آخر الأوصياء على العرش وهو يقاتل، الأمير نارمر بن رمسيس... الذي وهب حياته لشعبه من غير تدليس وبذل في سبيل تحرير أرضه الغالي والنفيس، فشيعه كل القيادات نحو الجنوب، بمَن فيهم مَن كانوا ضده قبل نشوب الحروب، وتم تجهيزه على طريقة الملوك القدامى، إذ حُنِّطَ بمعرفة علماء الدفن وبكت عليه الأرامل واليتامى، ووُضِع في نعش فاخر من الذهب وشُيِّعَ إلى وادي المقابر، حيث يرقد أجداده الملوك من الزمن الغابر، بينما تحدثت بخصاله الرجالات في كل الدواوين والمنابر، وتمت مبايعة ابنه الصغير هبَّار ملكًا على العرش في وضح النهار، وقد

عُيِّنَ مجلس للشيوخ الكبار، لمساعدة الصغير في حكم الأقطار إلى أن يشتد عوده ويصبح ملكًا كجده وآبائه الأبرار... وهذا ما كان من أمر هبَّار، وأما أمه داليدا، فقدت توشَّحت السواد، وأعلنت أنها لبقية حياتها في حداد، إذ رحل عنها الرجل الذي كان لها أرضًا صلبة يوم تلاطمت حولها الأمواج الشداد، ومأوى عندما لم تأوِها قارة ولا بلاد...

وأعطت داليدا أعظم الدروس في الوفاء، حين رفضت كل مَن خطبوها من رجال أثرياء، فباتت معروفة بلقبها الشهير «الأرملة الحسناء»... وإن هي إلا سنين أخرى، حتى أدركتها المنية هي الأخرى، فأوصت بأن تدفن مع حبيبها نارمر، في حجرته السرية بوادي المقابر، ومعها كل كنوزهما كما تقول التقاليد من جيلٍ لآخر... وهكذا زُفَّت داليدا إلى حجرة زوجها، وهذه المرَّة جثة هامدة في نعشها، بعدما حنّطتها عالمات الدفن، ووُضِعت في نعشٍ من الفضة المطلية بالفحم، ووضعت في الحجرة بجانب ضريح نارمر، ومعهما كل كنوزهما، وختمت الحجرة بلعنة أبدية... وانتهت قصتنا هنا أيها الفتية.

***

رفع أمغار الحكيم عينيه، فرأى الدموع تسيل من عينَي زوجته... بينما نام الولدان، فوضع كلًّا منهما في فراشه، وحمل كوب اللويزة وشرب آخر ما تبقى بجوفه، ثم قال بنبرة مهزومة:

- أتبكين يا عديلة؟

رفعت نظَّارتها لتمسح الدموع من تحتها ولم تنبس ببنت شفة، فطأطأ أمغار رأسه وقال بحزنٍ عميق:

- لقد حاولنا، يعلم الله أننا حاولنا، ولكن كما قال الملك شاور ذات يوم: «لا يمكن لعائلةٍ واحدة أن تحمي شعبًا كاملًا».

قالت بنبرة صوت مقهورة:

- متى تنوي أن تخبر الصغير؟

نظر أمغار إليه وهو يغطُّ في نومه العميق، وتنهد ثم قال:

- لا أظنني قادرًا على إخباره يا عديلة... على كل حال سأنتظرهما ليلة الغد لأكمل سرد القصة لهما إذ لم يسمعاها حيث كان نائمين على ما يبدو.

تقلَّب الصبي في فراشه، ووقعت عينا أمغار على تلك العلامة العريقة في كتفه اليُمنى.

مايوركا

(بعد ساعتين من شجار الحانة)

وضعت رأسها على حجره وبدت مفتونة بنظراته وتضارب الألوان في عينيه، داعب خصلات شعرها بأنامله وقال وهو ينفض رماد سيجارته على كوب النبيذ الفارغ:

- لم يعطني الشرق الكثير، ولم يعطني الغرب أكثر مما أعطانيه الشرق، تشابهت كل البلاد فلا أرى نفسي هناك ولا هنا، حتى أمي التي أنجبتني ما تنفكُّ تخبرني مرارًا أنها كرهت اليوم الذي حملتني فيه، وأنها حاولت إجهاضي مرارًا في بدايات حملها، لقد كنت خطيئتها الأكبر، أتذكر أنها ضربتني ضربًا مبرحًا ذات يوم لأنني سألتها عن أبي، تركت آثار الضرب على جسدي أذى عميقًا وبكيتُ يومها حتى أنهكني البكاء فخلدت إلى النوم، في تلك الليلة وبينما كنت نائمًا دخلت إلى غرفتي وأشعلت الضوء، فاستفقت من النوم لكني لم أبرح مكاني واستمررتُ في التظاهر بأني نائم، جلست بجانبي على السرير، وعانقتني وانهارت باكية... في تلك اللحظة سمعتها تبكي أكثر مما بكيته أنا وهي تضربني، منذ تلك الليلة تضاربت مشاعري نحوها، أغضب منها أحيانًا وأحيانًا كثيرة أشعر بالشفقة نحوها، لم تكن أمي تملك الفرصة لأن تعيش ضعيفة، كان لزامًا عليها أن تكون قوية على الدوام، وهؤلاء الذين لا يملكون خيارًا آخر في الحياة سوى أن يكونوا أقوياء هم قوم

ظاهرهم قاسٍ وموحش، لكن باطنهم هشٌّ ضعيف... قضيت سنين طفولتي هنا في الشرق، درستُ هنا في فترة الإعدادي ستة سنوات، لستُ مدينًا لتلك السنين أبدًا، كنت الأشقر الوحيد وسط جمعٍ من التلاميذ السمر، كانت عيناي موضوع كلامهم كل يوم، خافت مني الفتيات، وكرهني الأولاد، لوهلة قد تبدو لكِ هذه الكراهية غيرة، هكذا كانت تفسرها أمي على الدوام، لكنها لم تكن مجرد غيرة على الإطلاق... لم أكن واحدًا منهم قط، هكذا بهذه البساطة، كنت أشعر بذلك في نظراتهم، وفي اللقب الذي أطلقوه عليَّ.

رفعت يدها إلى وجهه، ولامست أنفه بظهر سبابتها، ثم نزلت بها إلى شفتيه، ثم أجزاء من ذقنه وهي تقول ساخرة وقد لعبت برأسها السكرة:

- ابن الرومية.

شد يدها بقوةٍ فور نطقها لذلك اللقب فتأوهت بغنج متألمة، لكنه أفلتها بعد لحظتين وقال وهو يعيد يدها إلى وجهه:

- ابن الرومية... وأي رومية؟ لقد عيروني بامرأةٍ كانت ترغب في قتلي قبل أن أكون موجودًا حتى، أترين؟ إن حياتي منطقة كوارث خطِرة، منبع إشعاعات مميتة، لا استقرار فيها ولا مكان لقطة مشرقية مثلك بين ثناياها، لذلك كنت أبتعد عنكِ دائمًا...

- أنت غبي إن كنت تظن أنك تبتعد عني، لم تغب عني في غيابك لحظة واحدة... ولستُ أتذكرك لأنني لستُ أنساك أصلًا.

نفث دخان سيجارته في الهواء وقال مردِدًا خلفها:

- ولستُ أتذكرك لأنني لست أنساك... واو، يا لكم من متحدثين بارعين يا أهل الشرق، كلماتكم، لغتكم، وأعيُنكم التي لا تكذب أبدًا... أتعرفين ما المضحك في الأمر؟ هنا في مدارس الشرق

كانوا يعيِّرونني بأنني ابن الرومية، لما عدت إلى بلادي ودرست هناك في فترة الثانوية ثم الجامعة كنت أسمعهم يتهامسون خلف ظهري بأنني «المشرقي»، وكذلك هناك لم أشعر يومًا أنني واحد منهم، لم تخبرني أمي قطُّ بالكثير عن أبي، قالت إنه مات فجأة بمرضٍ خبيث ونادر، هكذا باختصارٍ شديد ودون المزيد من التفاصيل، لكنها اعترفت والغصة في حلقها أنه كان شرقيًّا.

قالت وهي تقرصه من أنفه مبتسمة:

- لن أدعك تقترب مني إذن بعد اليوم... لعلنا إخوة، وذلك لا يجوز.

قال متهكمًا:

- وهل يجوز أن أقترب منكِ على أي حال؟

ثم ضحك بصوته الجهوري وهو يشدها من شعرها:

- ها؟ يا بنت الحرام؟

مرة أخرى تأوهت، ولم تقل كلمة أخرى غير التأوه بغنج ودلال...

قال وهو يهمس في أذنها:

- افعلي ما أطلبه منكِ، سننجز عملنا قبل النهائي، وسأرحل عن هذه الديار آخذًا معي ثأري، والجائزة الكبرى، وعينيكِ.

دارت إليه، ونامت في حضنه، وأشعرها الجرح الطازج في فخذها بوخزةٍ أخرى من الألم لكن حضنه كان أحنُّ عليها من أن تتألم وهي فيه...

قنوع الإسكافي

انتهى من وضع جميع الحقائب في الصندوق الخلفي للسيارة، وساعدته حفيدته على ذلك، لم يكن عُقاب قادرًا على حمل أمتعةٍ ثقيلة بسبب المشكلة الصحية التي تواجهه في ظهره، لقد بدأت أحوال الفتى تتحسن نسبيًّا، لم يعد يشرب الخمر حيث أقلع عنه منذ أسبوعين تقريبًا لكنه لا يزال شديد الكآبة وفي عينيه آلام العالم بأسره، كانت لحيته قد نبتت أكثر وانساب شعره المجعَّد على عينيه ووجهه الهزيل، غير أنَّه بات أكثر طهارةً من ذي قبل ولم تعد تنبعث منه روائح الكحول المقرفة كما كان في السابق، وتلك علامة مطمئنة، حيث اعتبرها قنوع «خطوة نحو الأمام».

العاشر من تشرين الأول، الساعة الرابعة وخمسون دقيقة، مدَّ الفجر خيوطه الأولى على مدينة قنليجيا عندما ركب قنوع خلف المقود وبجانبه جلس عُقاب الذي رفض القيادة جملةً وتفصيلًا ورأى الإسكافي يديه ترتجفان بمجرد ما طلب منه أن يقود بهما فلم يُلح عليه، بينما جلست هديل في المقعد الخلفي ووضعت سماعة أذنيها وراحت تطالع روايتها في صمت، وانطلقت السيارة عبر الأزِقة العريقة لقنليجيا القديمة، هذه المدينة التي تمتد جذورها عبر آلاف السنين شأنها شأن كل حجر وتراب في شاور، هذه الدولة العظيمة التي كانت ذات يومٍ منارة للشرق وقبلة للعالم بأسره، قال عُقاب وهو يراقب المباني وتصاميمها الهندسية:

- أحيانًا، أتساءل هل من المنطقي أن تكون هذه المدينة هي عاصمة الدولة؟

مدَّ قنوع يده إلى زر المدفئة وشغَّلها، وأنقص من صوت التلفاز الصغير الذي في مقدمة السيارة، وقال وهو يلتقط كوب القهوة الساخنة من المنضدة الخشبية الصغيرة بين مقعديهما:

- لم تكن قنليجيا هي عاصمة بلاد شاور في الماضي البعيد، ففي عهد الملوك كانت العاصمة تقع جنوبًا، عند قيام الجمهورية تمَّ تحويل العاصمة من الجنوب إلى الشمال.
- ما الحكمة من ذلك؟ أليس من المفروض أن تكون العاصمة هي أول مكان يقصده المستعمرون لإسقاط الدولة؟ أرى من المشين أن تكون مدينة بهذه العراقة والتاريخ عُرضة للقصف والدمار، لا أستطيع تخيل ذلك.

ابتسم قنوع وقد ارتشف بعضًا من قهوته وأعاد الكوب إلى موضعه قائلًا:

- لقد جعلوها عاصمة البلاد لكي تحمي البلاد يا عُقاب، لا لكي تكون محمية بالبلاد... كل الحملات العسكرية الغربية التي حلَّت على بلادنا كانت تبدأ من هنا، من قنليجيا، وكانت تسقط دائمًا في يد الغزاة بسهولة، ولذلك، خمن مجلس الشيوخ في ذلك الوقت أن يتم تحصين قنليجيا وجعلها عاصمة الدولة، ومنذ ذلك الحين وهذه المدينة العريقة تقف في وجه كل مَن يأتيها زائرًا أو غازيًا، تستقبل هذا بالزبيب والتمر المعسَّل والعنب والبرقوق، وذاك بالنار والحديد والبارود... ربما لم يعرف الشرق الاستقرار يومًا لهذا السبب يا بني.
- أي سبب؟

- أن الشرق لم يعطِ الدنيَّة يومًا.

طأطأ عُقاب رأسه، وتمتم قائلًا:

- إن كان الأمر كما تقول، فلمَ نحيا ولا نعيش؟ ولماذا كل هذا البؤس من حولنا والتعاسة والغرق؟

قال قنوع وهو يستمرُّ في قيادة السيارة عبر الشوارع العتيقة متوجهًا نحو الطريق الرئيسي حتى يخرج من المدينة:

- انظر من حولك بصدق يا عُقاب وسترى أن الحياة تمضي بلا تعاسة ولا غرق، لقد ألبستكم هذه السموم التي تتعاطونها نظارات شديدة السواد، جعلتكم لا ترون غير العسر، مزيدًا من العسر، والله عز وجل في كتابه الكريم يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: 5]، ثم يؤكد على ذلك في أسلوبٍ شديد التوكيد ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: 6]، أتعي ما معنى ذلك يا عُقاب؟

قال الفتى بسقم مقاطعًا:

- بأن علينا أن نصبر ونصلي حتى ينزل المطر؟

ابتسم قنوع وهو ينظر إلى زخَّات المطر تتساقط على زجاج سيارته، فشغل ماسحات الزجاج الخارجية وقال:

- كلَّا، ليس هذا هو المقصود، الآيتان لا تتكلمان عن اليُسر بعد العسر، بل عن شيءٍ آخر... عن اليسر مع العسر يا عُقاب.

في تلك اللحظة بدا كأن الشاب الكئيب قد انتبه لأمرٍ مهم حين أضاف قنوع:

- ثمة يُسر في قلب كل هذا العسر لكننا لا نراه، لا نراه لأننا لا نبحث عن مخرج، بل نبحث عن خلاص عبثيٍّ سريالي لا يكون إلا في الأحلام الوردية، لكي تعثر على اليُسر الذي في قلب العسر، الذي

مع العسر... يجب أن تسعى إليه، أن تجاهد وتجتهد من أجله، بالإنابة لله عز وجل، والتوكل عليه، بالصبر على المصاب والانتقال من حالة العجز والسكون، إلى حالة السعي والمثابرة، ساعتها يا عُقاب سترى المعجزات.

سكت عُقاب ولم يقل شيئًا، وخرجت السيارة في تلك اللحظة إلى الطريق الرئيسي، كانت الأمطار تهطل بغزارة على الطريق ولذلك قاد قنوع بحذرٍ شديد، وسمع عُقاب يقول في تلك اللحظة وهو يتحسس ظهره:

- أأنت واثق من أنني سأكون قادرًا على الانتقال من حالة العجز... إلى... حالة... ماذا سميتها؟ المثابرة؟ لقد انتهت حياتي منذ عصيت أوامر أبي، كان أبي الرجل الوحيد الذي أراد لي أن أكون أفضل منه، ولكني خذلته يا عماه... خذلته ولذلك ترك لي في وصيته الأخيرة آمرًا بأن...

قاطعه الإسكافي:

- أخبرتك أكثر من مرة أن تكفَّ عن التفكير بشأن تلك الوصية اللعينة يا عُقاب، ألم أفعل؟ إنني أعرف السيد أسعد بن هبَّار رحمه الله، ويستحيل لرجل نبيل فاضل أن يطلب منك أمرًا شنيعًا كذاك... دعك من أمر الوصية الآن وركز مع ما أنت مقبل عليه.

قال وهو ينظر إلى المرآة فرأى حفيدته الشابَّة الحسناء تغطُّ في نومٍ عميق وهي تضع سماعات الأذنين، بدت كملاك نائم فخفض الإسكافي صوته وتمتم على مضض: «أخبرتها ألف مرة ألا تنام والسماعات في أذنيها، هذه الفتاة العنيدة».

ثم التفت إلى عُقاب وهو يقول:

- هل يمكنك أن تخبرني، متى يكون الليل في أشد حالاته ظلامًا وحلكة؟

خمن عُقاب قليلًا ثم أشار برأسه نفيًا بأنه لا يدري، فقال قنوع:

- في اللحظات الأخيرة قبيل بزوغ الفجر، في اللحظة التي تعتقد فيها أن الظلام قد طغى وسواد الليل عم كل شيء، يبزغ الفجر، إن دوام الليل وهمٌ يا عُقاب، عليك أن تحمل أحلامك في عينيك في تلك العتمة القاتمة، في تلك اللحظة التي لا شيء فيها يُرى يجب أن تعرف نفسك، ستكون الوحيد الذي يرى أحلامك ساعتها، ولكي تحققها... يجب أن تواجه أوهام العتمة وحيدًا... تذكَّر هذا جيدًا يا بني.

خرجت السيارة من مدينة قنليجيا أخيرًا، ولم يعد يظهر من بين جنبي الطريق سوى مساحات شاسعة خضراء، دوى الرعد بقوة في الخارج واستمرَّ هطول الأمطار، وخشخش التلفاز الصغير الذي كان يبث بعض البرامج الصباحية المألوفة، والتي كانت تتحدث هذه المرة حول الشتاء القادم وكيف يستعد له أهالي قنليجيا والمدن المجاورة لها، فالمحطة التي كان التلفاز يستقبل إرسالها كانت المحطة الأرضية لمدينة قنليجيا وضواحيها، لم يكن عُقاب في البداية مقتنعًا بالمجيء معهم، منذ الموقف الأخير الذي حصل له مع «هدهد» نأى بنفسه بعيدًا ولم يعد يجيء إلى السوق كما كان، بحث قنوع عنه مطولًا في أرجاء المدينة ولام حفيدته كثيرًا على الكلام الجارح الذي تلفَّظت به في تلك الظهيرة حتى إنها بكت لشدة ما زجرها، ووعدته أنها ستعتذر منه في المرة القادمة، وبعد أسبوع من البحث المضني عثر عليه في إحدى الشوارع قبالة المقبرة، وانشقَّت الأرض تحت قنوع وكادت تبلعه عندما

كان أول ما قاله له وهو ينظر إلى سورها: «رحلوا جميعًا وتركوني وحدي».

طيَّب قنوع خاطره، وعانقه، وذهب به إلى الحمام حيث استحم وبدَّل ثيابه القديمة، غير أنه رفض أن يذهب عند الحلاق واحترم قنوع رغبته، وقد سُرَّ قنوع جدًّا وقتها بأن عُقاب قد أقلع عن الشرب، كانت كلمات هدهد القاسية بمنزلة صفعة قوية جعلته يستفيق مما كان فيه، لكنه لا يزال يرفض أن يكلمها، وكانت ترفض هي الأخرى أن تكلمه، غير أن قنوع شعر بأنه لا توجد ضغينة بينهما فلم يشأ أن يتدخل أكثر، وفي تلك الفترة، عرض الإسكافي على عُقاب أمرًا غاية في الأهمية، فقد كانت عطلة الخريف تقترب، ولا بدَّ لهدهد أن تذهب لزيارة جدها وجدَّتها في الريف، وكان جدها هذا رجلًا حكيمًا ومعالجًا نفسيًّا وعليمًا بشؤون الأعشاب والطب الطبيعي البديل، لقد قصد عُقاب أكثر من مشفى من أجل ظهره وجميعهم أخبروه أنه في حاجة إلى إجراء عملية جراحية، كما أن الحلَّ الجراحي قد لا يكون ناجعًا إلا إذا سافر إلى الخارج بسبب صعوبة العملية وتعقيداتها، والأمر برمته كان خارج إمكانيات عُقاب في الوقت الحالي بسبب إفلاسه ماديًّا، إذ لم يكن أمامه إلا أن يبيع آخر ما تبقى له من أملاك وهو قصر عائلته، وهو أمرٌ رفضه الإسكافي الذي أقنع عُقاب بالمجيء معه إلى الريف ليس لعلاج ظهره فحسب بل لعلاج روحه أيضًا، فالمدينة استنزفت من مشاعره وعقله الكثير، والرحلة نحو التوبة لا تكون بالهجرة من المعاصي إلى الطاعات فحسب، بل في هجرة مكان المعاصي إلى مكان الطاعات ولو مؤقتًا، وكانت عطلة الخريف هذه فرصة ذهبية للجميع بمَن فيهم قنوع نفسه الذي كان هو الآخر في حاجة إلى أن يرتاح قليلًا من السوق وأعماله...

***

كان قنوع يقود بحذر عبر الطريق السيار وقد باتت مدينة قنليجيا خلفهم منذ أكثر من ساعتين، عندما انتفض عُقاب من مكانه بعدما كان قد غفا قليلًا وغطَّ في النوم، لهث بسرعة ونظر يمينًا وشمالًا بينما نظر إليه العم قنوع بجزع وقال وهو يمده بقارورة ماء:

- أهو كابوس؟

لهث الشابُّ بهلع وهو يقول:

- لا أدري إن كان عليَّ أن أسميه كابوسًا، أو حلمًا جميلًا.

ثم التقط عبوة الماء وشرب منها قليلًا، وهدأ عنه الرَّوع وهو يقول:

- أسميه الحلم اللازوردي... ينتابني هذا الحلم بين الفينة والأخرى، وينتهي بسقوطي من مكانٍ مرتفع... من السحاب أو شيء من هذا القبيل.

قال قنوع وهو يلتفت إلى عُقاب:

- ربما كان لذلك علاقة بسباق.

قاطعه عُقاب:

- كلَّا يا عم، هذا الحلم يراودني منذ كنت فتيًّا، قبل أن أدخل مجال قيادة السيارات الرياضية أصلًا... لا أدري ما سر هذا الحلم ولمَ يراودني باستمرار هكذا.

ثم قال وهو يراقب المروج الخضراء من حولهما:

- أين يقع هذا الريف بالضبط يا عماه؟

- على الحدود مع مدينة رشد، رشد كلها أرياف وقرى كما تعلم على عكس قنليجيا التي تعتبر العصب الاقتصادي للبلاد لكن ذلك كله هراء، رشد هي العصب الحساس لاقتصاد هذه البلاد صدقني.

- لطالما سمعت أبي يقول إن سيزيف هي المدينة الأهم.

- لن نخوض نقاشًا في ماهية المدينة الأهم فالمسألة ليست مسألة مفاضلة بين المدن، قنليجيا هي واجهة البلاد وعاصمة الدولة ومن الطبيعي أن تكون على مستوى كبير من الأهمية، كما أن سيزيف تضم أكبر المصانع في البلاد وهي القلب النابض للصناعة هنا، لكنني سأقول رشد في نهاية المطاف.

- ولمَ ذلك؟

- لا يسمو شعبٌ إلا إذا كرَّس ثقافة الريف.

قال عُقاب مبتسمًا بتهكم وهو يتمتم:

- يزداد الإنسان قوة كلما كان قريبًا من الطبيعة الأم.

ردَّ عليه قنوع:

- يزداد الإنسان قوة كلما كان قريبًا من الله، لكن إلى حدٍّ ما مقولتك صحيحة، فالحياة الطبيعية أكثر صحة لجسم الإنسان من أي نمط حياة آخر، ولذلك سترى أن الناس في رشد أكثر صلابة في أجسامهم من سكان قنليجيا أو سيزيف.

- ماذا عن الصحراء؟

- ماذا عنها؟

- ما الذي تعنيه الصحراء لهذه الدولة؟

تنهد قنوع الإسكافي، وقال بعد حين:

- الصحراء هي تاريخنا المدفون في الرمال يا عُقاب... لا تقلِّب مواجعي.

سكت عُقاب قليلًا، ثم تساءل:

- لماذا ترى أن الريف أكثر أهمية من المدن؟ أخبرني لماذا تربية بقرة أو زراعة أرضٍ أكثر أهمية من إنتاج سيَّارة؟

أضحكت الجملة الأخيرة قنوع الذي قال وهو يخفض صوت التلفاز مجددًا:

- ما هي الأشياء التي يشكو الناس من غلاء أسعارها في قنليجيا؟

سكت عُقاب مخمِّنًا، ثم قال على الفور:

- الخضر... الفواكه... اللحوم... أحيانًا الحليب ومشتقاته.

قاطعه قنوع:

- أهي أشياء أساسية من أجل البقاء؟

- بالطبع...

قال قنوع في تلك اللحظة:

- وهي أشياء تنبع كلها من مشكاةٍ واحدة، الريف... المجتمع في قنليجيا يفتقر إلى ثقافة الريف، لفكرة الأرض تعطي مَن يعطيها، الناس في عاصمة البلاد قنليجيا يحبون الوظائف النظيفة الجاهزة، طقم كلاسيكي وربطة عنق أنيقة وحقيبة أعمال مليئة بالسندات ودفتر شيكات وسيولة مالية معتبرة، لا أحد يحب أن يلطخ يديه في الطين وروث الأبقار، طيب إن كنت أنت مدير، وأنا مدير، فمَن يزرع الأرض؟ ومَن يخدمها؟ في قنليجيا يحتقرون الفلاح الريفي البسيط وينظرون إليه بنظرةٍ فوقية، انظر إلى أعمالهم الفنية، إلى مسلسلاتهم وأفلامهم، سترى الفلاح دائمًا في صورة رجل أبله رث الثياب بسيط المنظر يمكنك أن تضحك عليه بسهولة ويصدقك في كل شيءٍ تقوله، ساذج وقليل حيلة في المصائب منبهر بالمدينة وليس لديه طعام لأولاده، ترسخت هذه الصورة في أذهاننا حتى ذهبنا إلى أبعد من ذلك ووصفنا الغبي بالفلاح، وقليل الفهم بالفلاح... وإذا ذهبت إلى المدرسة ودخلت

قسمًا يتكون من ثلاثين تلميذًا وطفت عليهم وسألتهم واحدًا تلو الآخر: «ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟»، سيجيبونك بكل الوظائف التي تخطر على بالك، لكن ولا واحدة من هذه الوظائف لها علاقة بالريف، لقد احتقرنا الريف... احتقرنا الطبيعة فاحتقرتنا يا عُقاب.

- وهل الحل أن نصبح جميعًا فلاحين ونترك المباني الشاهقة ونعوضها بأراضٍ زراعية وأبقارٍ ومراعٍ؟

قال عُقاب متهكمًا، فرد قنوع:

- كلَّا، يجب ألا نداوي التطرف نحو جهةٍ ما بالتطرف إلى الجهة الأخرى المقابلة، الاعتدال هو زينة الحياة، سكان مدينة رشد أدركوا هذا الأمر جيدًا، ولذلك سترى قومًا يسكنون بيوتًا فخمة فاخرة، ورغم ذلك حافظوا على نمط حياتهم الريفي البسيط، ولا تزال الأرض هناك خصبة آخذة في التوسع، وهم الذين يمدون كل أنحاء البلاد بالمواد الريفية الآن، أجود أنواع الجبن، والحليب، والألبان، الخضر والفواكه، وحتى الشوكولاتة بأنواعها، العسل والبقوليات، كل شيء يأتي من أرياف رشد، إن الفلاح البسيط الذي نضحك عليه في عقولنا وأفلامنا، هو فردٌ منتج، لذلك وجب علينا أن نقبل رأسه حين نراه، لا أن نستهزئ به ونسخر منه.

سكت عُقاب مرة أخرى، ونظر هناك وسط الحقول الخضراء إلى القطار الذي كان يعبر السهول، فقال قنوع:

- نحن مدينون لتوفيق اللحَّام ما حيينا.

التفت عُقاب وقبل أن يتساءل السبب استطرد قنوع:

- كان توفيق اللحام ثالث رئيسٍ لجمهورية بلاد شاور، ثمة اختلاف كبير بين المؤرخين فمنهم مَن يقول إنه سُمي باللحام لأنه كان

بالفعل يشتغل في الحديد، بينما يذهب البعض إلى أن لقب اللحام أُطلق عليه بسبب مشروعه العظيم في مد السكَّة الحديدية عبر كامل أرجاء بلاد شاور.

- وما أهمية ذلك؟

قطب عُقاب حاجبيه متسائلًا... فرد قنوع:

- القضاء على العزلة، هذا أهم سبب، ازدهرت سيزيف في عهده الممتد عبر عشرين عامًا، حيث كان الرئيس الوحيد الذي انتُخِب لخمسة عهود رئاسية، وقد تُوفي في أواخر العهد الخامس، كانت فكرة توفيق أن يقوم ببناء السكك الحديدية فحسب، فوجَّه الجيش كله إلى هذه المهمة الوعرة ومعهم المساجين وعمال المصانع، حتى أُطلق على عهده «العصر الحديدي»، كما أعاد ترميم الموانئ الكبرى في قنليجيا ورشد، وهكذا أصبحت القطارات الصناعية تنتقل بسهولة بين المدن والقرى والأرياف، فتوصل السلع والمواد اللازمة للبناء والغذاء والمواد الأولية بشكلٍ عام، وهكذا شُيِّدَتِ البلاد لاحقًا بشكلٍ أكثر سهولة.

في تلك اللحظة مرَّت السيارة من أمام تمثال حجري عملاق لطائر محاكي يربض على قارعة الطريق، لفت الطائر عُقاب الذي ظلَّ يراقبه للحظات بينما السيارة تعبر من أمامه، خفق قلب قنوع في تلك اللحظة ورفع عينيه على الفور لينظر إلى حفيدته، قبل أن يطمئن إلى أنها لا تزال نائمة... ولاحظ عُقاب توتر الإسكافي في تلك اللحظة، والذي قال ليتجنب أي سؤال حول التمثال:

- نحن الآن في مدخل مقاطعة رشد.

- ما قصة الطائر؟

تمتم عُقاب بفضول وصوتٍ مسموع... وفي تلك اللحظة تثاءبت الفتاة في الخلف وتمددت وهي تقوم من وسادتها الصغيرة باحثة عن روايتها في الأسفل:

- كم بقيتُ نائمة؟

قال قنوع ضاحكًا:

- أغلب فترات الطريق كعادتكِ.

ثم التفت إلى عُقاب وهمس دون أن تسمعه حفيدته:

- فلنؤجل الحديث حول التمثال لوقتٍ لاحق.

- هل وصلنا؟

- تقريبًا نعم.

قال قنوع وهو يدخل بالسيارة إلى طريقٍ فرعي، كانت الأمطار قد هدأت لكن السماء لا تزال غائمة تنذر بالمزيد، عبرت السيارة الطريق الفرعي ثم دخلت إلى طريق آخر مُعبَّد بالأحجار المتراصَّة التي نبتت الأعشاب والطحالب على أطرافها، ومن بين المروج الخضراء الشاسعة والضباب القاتم بدت لهم تلك الفيلا الفخمة من بعيد تتوسط ثلة من أشجار السنديان العملاقة، اقتربت السيارة منها أكثر فأكثر وتقلبت ملامح وجه عُقاب فجأة ولكنه لم يقل شيئًا، ومع اقتراب السيارة بدت لهم بناية خشبية أخرى خلف الفيلا، فقال قنوع مبتسمًا:

- ها هي مزرعة جدِّكِ يا هدهد.

قالت بصوتٍ مرح:

- أتوق إلى رؤية داليدا... تلك الشقية لا بدَّ أنها نسيتني.

في تلك اللحظة دار عُقاب بشكلٍ خاطف ونظر إلى الشابة الجالسة في المقعد الخلفي نظرة عميقة، ثم عاد بنظره إلى المزرعة من جديد، والتفت من حوله يمينًا وشمالًا...

- هل هناك شيء يا بني؟

قال قنوع متفاجئًا، فأجاب وهو يعتدل في جلسته بملامح متعجبة:

- لا شيء يا عماه، لا شيء.

تبادل قنوع وحفيدته نظرات سريعة في تلك اللحظة بينما توقفت السيارة عند مدخل الفيلا، ونزلت الفتاة العشرينية من سيارة جدها راكضة بمرح نحو المدخل، قال قنوع وهو يطفئ محرك السيارة:

- مهما عاملتها بلطف ومحبَّة تظل هذه البنت تكنُّ لجدها الآخر أضعاف ما تكنه لي من حب.

- ربما هي تحب المكان أيضًا.

غمغم عُقاب وهو ينزل من السيارة خلف قنوع، أمسك هذا الأخير بذراع الشاب الذي كان يستند إلى عصاه بيده الأخرى، كان البرد قارصًا لذلك أسرعا قدر الإمكان نحو الداخل وتألم عُقاب قليلًا في أثناء صعود الدرجات وسخر من نفسه حين تذكر الفتاة التي صعدتهما قبل لحظات كمهرة نشيطة، ودخلا الباب نحو البيت الدافئ، حيث كانت هدهد تعانق جدَّتها، ومن ورائهما، كان يقف عجوز ذو لحية بيضاء كثيفة يعلوها شارب عظيم وشعر كثيف منسدل على كتفيه تمكن منه الشيب لكن التساقط لم ينل منه شيئًا، وقف عُقاب في تلك اللحظة جامدًا في مكانه بلا حراك... ووقعت عين الشيخ عليه، بينما ابتسم قنوع ولم يقل كلمة أخرى، ظل عُقاب يراقب الشيخ كأنه أوجس منه خيفة، بينما أفلت الشيخ يد حفيدته واقترب أكثر من مكان وقوف عُقاب...

- مضت عشرون عامًا منذ رأيتك آخر مرة، لكنك تبدو أكبر مني سنًّا الآن، فما الذي حدث لك كل هذه السنين يا بني؟

قال الشيخ فتذكر عُقاب نبرة صوته، وقال وهو يطأطئ رأسه:

- سابقتُ الزمن فسبقني يا أمغار الحكيم.

فتح الشيخ ذراعيه لعُقاب الذي ارتمى فيهما مسقطًا عصاه على الأرض... ورأى قنوع الإسكافي كتفيه وهما تهتزان وترتجفان من البكاء، نظرت الصبيَّة الحسناء إلى عُقاب وهي في حضن جدَّتها، كانت مشاعرها متضاربة بين الشفقة والغضب، نعم لقد زار عُقاب هذا المكان من قبل لما كان صغيرًا، وهدهد حفيدة قنوع الإسكافي وأمغار الحكيم، لم تكن سوى... هديل!

أسعد

كانت السماء صافية، ومنظر البدر بديعًا في الخارج لكنه لا يجرؤ على فتح النافذة لأن البرد قارصٌ جدًّا، إن شهر آذار قد منحهم هدنة مؤقتة مع الشتاء وبدأ يلمِّح بأيام الربيع الجميلة، لكن المذيع تحدث في النشرة الجوية عشية اليوم بأن الأسبوع القادم سيكون ماطرًا وقد تحظى المرتفعات بمزيدٍ من الثلوج مما سيجعل قنليجيا باردة كالسم مرة أخرى... كان التعب قد أثقل عينيه وأنهكه الإعياء وصحته مؤخرًا لم تكن على ما يرام، إذ بات يشعر بآلام شديدة في المفاصل وكلما استيقظ صباحًا توجَّه فورًا إلى الحمام ليستفرغ، اعتقد أن الأمر راجع إلى طعامٍ ما في البداية لكن الموضوع بات ينذر بالخطر لما شاهد بقايا دمٍ في قيئه قبل أسبوعين ما جعله يتوجه نحو الطبيب ملتاعًا ولم يشأ أن يخبر سلمى بالموضوع لكي لا يُشغل بالها، فقد مرت عليها أشهر الحمل التسعة ثقيلة كالعسل الجامد لكنها وضعت في نهاية المطاف مولودها قبل شهر تقريبًا، كان ولدهما البكر، وقد فرح به أسعد حتى الثمالة وأطلق عليه لقب عُقاب، لطالما أحبَّ هذا الاسم والرمزية القوية التي تعود إليه، خاصةً أنه سمع أباه ماجد يقول ذات يوم إنه كان سيسميه عُقاب لولا تدخل جده في اللحظة الأخيرة واختياره اسم أسعد، فلبى رغبة أبيه وأطلق اسم هذا الطير الجارح العظيم على ابنه البكر...

كان الرضيع في حجر أمه في تلك اللحظة، بكى كثيرًا قبل أن تحمله إليها وتجلس على الأريكة ذات المقعدين المقابلة لأريكة أسعد، وفتحت

أزرار قميصها لتمنح رضيعها بعض الحليب إذ استيقظ جائعًا، كانت تحدق إليه مبتسمة وقالت وهي تشير إلى الشامة على كتفه اليمنى:

- انظر إلى ابني حبيبي، وإلى شامته الملكيَّة.

قال أسعد وهو يستند إلى أريكته:

- أتعرفين يا سلمى، أحيانًا أجد صعوبة في التصديق بأن هذه الشامة كانت تنتقل من جيلٍ إلى آخر في عائلتنا.

قاطعته:

- فقط عند الولد البكر للولد البكر... لا تنسَ ذلك.

قال على مضض:

- أعرف ذلك أعرف... ليس هذا ما قصدته، لكن ما أعنيه.

مرة أخرى قاطعته وأجابته قبل أن يشرح كأنها قرأت أفكاره:

- يعود ذلك إلى قوة نسل آل الهبَّار، لقد كانت الصفات الوراثية لأجداد الملك رمسيس هي الأقوى على الإطلاق من بين جميع العائلات العريقة الكبرى التي أسست حضارة الشرق قبل أكثر من سبعة آلاف عام، ولذلك كانت هذه السلالة هي التي تحكم مملكة الشرق منذ فجر التاريخ، وظلت الأمور على حالها إلى أن جاءت حرب الحواجب السوداء فبدأت النهاية.

- أتذكرين يا سلمى؟ أتذكرين يوم التقينا في كورنيش قنليجيا قبل عشر سنوات؟ في تلك العشية سألتكِ سؤالًا مفصليًّا.

قطبت حاجبيها وقالت متهكمة:

- أنا لا أتذكر ما...

قاطعها وهو يقلد صوتها في الكلام ردًّا على تهكمها:

- أنا لا أتذكر ماذا طبختُ لوجبة العشاء أمس وأنت تسألني عما حدث قبل عشر سنوات؟ أهذا ما تريدين قوله؟ حسنًا سأُذكركِ، سألتك لماذا سُمِّيَتِ الحرب بالحواجب السوداء؟ بعد أشهر كنت قد أنهيت مطالعة الكتاب، وقد فسَّر أبي الموضوع كما أخبرتني أنتِ تمامًا فيما بعد، بأن السبب يعود إلى الرجال الذين كانوا يحاربون جنود الملك ريتشارد، حيث كانوا ملثمين لا يظهر من وجوههم إلا أعينهم وحواجبهم.
- هذا صحيح، وكانت حواجبهم سوداء وكانوا يضعون الكحل عليها وعلى أعيُنهم لكي يرعبوا الغزاة.

وقف أسعد من مكانه، وسار بصعوبة إلى أن جلس بجانب زوجته على الأريكة، ووضع إصبعه الخنصر بين أصابع ابنه الصغير فتعلق هذا الأخير بها وهو يتناول حليب أمه بهدوء شره... قال أسعد:

- فكرت كثيرًا مؤخرًا في سبب العداء التاريخي بين الشرق والغرب، بيننا وبين القارة الوسطى، بين الشعبين والثقافتين، أمعنت النظر جيدًا إليهم عن قرب خاصةً لما كنت أسافر في رحلاتي التجارية إلى هناك مؤخرًا، حرصت على سماع رأيهم فينا وفي ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا.
- أي؟

تنهد أسعد وقال وهو يمسح على أنامل الرضيع بغاية اللطف:

- لقد كانت تلك الحرب بداية لكل شيءٍ يا سلمى، لكل هذا العداء، حاول الملك ريتشارد الأول أن يغزو مملكتنا ويضمها لقارته، واستغلَّ رجال الدين في إقناع أمرائه بأن القتال في الشرق حرب مقدسة من أجل الشرف، لأن المشرقيين اختطفوا الأميرة داليدا واغتصبوها حسب روايته، وهكذا بدأ الحشد الكبير لغزو الشرق،

أتعرفين كيف ردَّت شعوب الشرق على هذه الأكاذيب؟ بأن داليدا مشرقية الهوى، ولدت هنا، وأحبت هذه الأرض، وعشقت ترابها وهواءها وأحبت أميرًا مشرقيًّا وألقت بنفسها في البحر من أجله، داليدا كانت مشرقية حتى في شكلها وجمالها، كانت سوداء الأعيُن والشعر، مما يجعل حواجبها سوداء بغير شك... ولذلك، قاتل الشرق من أجل شرف الأميرة، ذات الحواجب السوداء، إن الشرف هو الشرف يا سلمى، لا يُجزَّأ، ولا يعرف عندهم شرقًا وغربًا... كانت داليدا بنت السفير يومًا، لكنها فيما بعدُ باتت واحدة منهم حين تزوجها نارمر، ولم يعد هنالك مَن يقبل الحديث في سُمعتها... لقد كانت المسألة عند المشرقيين مسألة شرف، ولذلك أطلق على هذه الحرب حرب الحواجب السوداء.

ابتسمت سلمى وقالت:

- وجهةُ نظرٍ سليمة.

قطع أسعد عنها جملتها وقال مسترسلًا:

- لكن الفكرة ليست هنا، ما يشغلني في هذا الموضوع شأنٌ آخر تمامًا، لقد اتخذ الغربُ داليدا حجة لكي يسوق جيوشه إلى الشرق، وقد دافع الشرق عن شرف داليدا وادعاءات الغربيين الباطلة، لكن... لكن ما الذي فعلته داليدا نفسها بهذا الخصوص؟ أكانت لترضى بأن ترى شعبين يتناحران فيما بينهما فقط لأنهما مختلفين فيما إن كانت قد نامت مع الأمير نارمر بإرادتها أم مكرهة؟ لقد كان سكوتها مستفزًّا للغاية.

قالت سلمى وهي تقطع كلامه مدافعة عن الأميرة التي توفيت قبل أكثر من ألفي عام:

- ومَن قال إنها سكتت؟

هزَّ أسعد كتفيه وقال ساخرًا:

- التاريخ الذي تدرسونه يقول ذلك.

التفتت إليه وقالت مفسِّرة وهي تشير إلى أربع أصابع بيدها:

- ثمة أربعة أصناف من التاريخ يا أسعد، المقروء، المسموع، المحكي، والمُغنَّى أي الذي يرِد في الأشعار والأغاني... ما هو أكثر الأنواع مصداقية حسب رأيك؟

أطرق أسعد قليلًا ثم قال:

- المحكي؟ لأنه يُعبر بصدقٍ عن ذاكرة الناس وما ترويه من جيل لآخر.

قالت مقاطعة:

- بل المقروء.

ثم اعتدلت في جلستها وأسهبت في الكلام:

- التاريخ المحكي يتحول مع مرور الوقت إلى ما يُعرف بالأساطير، انزل إلى أقرب مقهى وقل للحكواتي أن يسرد لك قصة حرب الحواجب السوداء، وستسمع قصصًا عجيبة عن الأمير نارمر بأنه كان ينفث النار من فمه وأن داليدا هي طائر عنقاء في هيئة امرأة حسناء، ثمة مقولة شهيرة بأن التاريخ يكتبه المنتصر، أين ذاكرة الناس من هذا إذن؟ لماذا لا تتناقل الأجيال الحقيقة كما هي بعيدًا عما يدوِّنه المنتصرون في سجلات التاريخ؟ أتعرف لماذا لا يحدث ذلك؟ لأن الناس البسطاء كالذين تراهم في المقاهي ودور السينما ينبهرون بالنصر، فيسردون الوقائع التي تدور حوله ويطوِّرونها جيلًا بعد الآخر، أما الحقيقة، فهي تلك التفاصيل التي تقع خلف بريق النصر، تلك التفاصيل المهملة التي تظلُّ مهجورة منبوذة

وليس لها أمل إلا أن يسردها أحدهم في كتابٍ ما أو مخطوطة أو حتى رسالة... ولذلك فإن علم التاريخ المقروء يبقى أكثر الأنواع موضوعية...

قال أسعد وهو يشير برأسه إيجابًا:

- كلام معقول إلى حدٍّ بعيد.

أكملت سلمى:

- أي نعم، والأمر ذاته ينطبق على داليدا، المشرقيين يسردون القصة دومًا على أن داليدا كانت جزءًا منهم على الدوام، لكنها في الواقع حاولت منع نشوب الحرب، حرصًا على سلامة زوجها وقومه، وعلى سلامة الغربيين الذين هم في نهاية المطاف أبناءُ قومها، ولقد حاولت داليدا بشتى الطرق منع نشوب حرب الحواجب السوداء لدرجة أن بعض المؤرخين أوردوا أنها تواصلت سرًّا مع عمها الملك ريتشارد وعرضت عليه أن تسلِّمه كنز الكهرمان مقابل أن يتراجع عن مخططه في غزو الشرق، وهذه الرواية «أنها كانت ستسلم الكنز لعمها» وإن كانت ضعيفة في الواقع وقد ردَّ عليها أبوك في كتابه «الأميرة الضائعة» بأن داليدا ما كانت لتخون أمانة الملك رمسيس بهذه السهولة، وقد استند في ذلك إلى مخطوطات قديمة، إلا أنها بالمقابل حاولت بشتى الطرق أن توصل صوتها وتمنع وقوع هذه الحرب، فراسلت قادة الجيش وكتبت لهم بخط يدها، بل وكتبت لهم حتى بلغة موطنها الأصلية، وذهبت إلى أبعد من ذلك إذ أنها تواصلت مع القائد الشهير «فداء المشرقي» قُبيل توجهه نحو الشمال للتصدي للحملة العسكرية مع رجاله، حيث كانت تخطط لأن تذهب بنفسها إلى سواحل قنليجيا لمقابلة قيادات جيوش القارة الوسطى من أجل منع نشوب الحرب

وإقناعهم بحقيقة أنها كانت تحبُّ نارمر، لكن هذا الأخير منعها بالقوة وحبسها في القصر حين اكتشف ما تنوي القيام به.

قاطع أسعد زوجته متعجبًا:

- نارمر حبس داليدا؟ أيعقل هذا الذي تقولينه؟

ردَّت عليه مبتسمة:

- ليس الأمر كما فهمته، فهو لم يودعها السجن، لقد كانت داليدا في تلك الفترة حاملًا بابنه الأمير هبَّار الذي سيصبح مَلكًا على الشرق بعد الحرب، نارمر منع زوجته من الخروج من القصر حرصًا على سلامتها وسلامة جنينها، لقد كان نارمر يدرك جيدًا أن الحرب قائمة في كل الأحوال، لأن ريتشارد وقياداته لا يبحثون عن الحقيقة، لقد أبحروا من مملكتهم وجاؤوا إلى هذه الأرض من أجل نهب خيراتها، وليس من أجل شرف داليدا، بل إن ريتشارد ما كان ليتردد لحظة واحدة في اغتيال الأميرة حتى تموت الحقيقة معها ولن يكون غريبًا أن يتهم المشرقيين بقتلها أيضًا ليزيد حربه شرعية عند شعبه، لقد عاشت داليدا أيامًا حالكةً لاعتقادها أن الحرب قد نشبت بسببها... واستمرت على حالها الحزينة تلك لدرجة أنها وضعت ولدها الأمير هبَّار في الشهر السابع من حملها إذ نجا وليدها من الموت بأعجوبة.

قال أسعد متهكمًا:

- المسكينة، ليتها كانت تفهم أن هذه الحرب كانت ستقوم بها أو من دونها، وأن ريتشارد كان سيجد حجة أخرى لغزو الشرق لأنه هدفه الأساسي حتى لو لم تكن هي موجودة من الأساس...

أطلقت ضحكة مكتومة لكي لا تُزعج صغيرها الذي بدأ يغيب في غياهب النوم في حضنها وهي تقول:

- يبدو أن زوجي العزيز أسعد قد تحول من تاجر أقمشة إلى عالِمٍ في التاريخ.

قال وهو يضحك:

- لا تبالغي يا سلمى، لا تبالغي... طيب اسمحي لي بسؤال آخر، لماذا الكنز مهم إلى هذه الدرجة؟

تغيرت ملامح وجهها، ونظرت إلى ابنها فوجدته مغمض العينين، حملته بهدوءٍ شديد وتوجهت به إلى مهده في غرفة النوم، أشعل أسعد سيجارة في تلك اللحظة ومدَّ قدميه إلى الموقد الخشبي الذي كان يطقطق في صدر البهو، وعادت في تلك الأثناء وجلست قبالته وهي تقول:

- الجواب على هذا السؤال له وجهان، الأول مادي والثاني سياسي... أما الوجه المادي فهو واضح للغاية ولا يحتاج إلى الكثير من الشرح والتفسير، لن تكون أيها التاجر في حاجة إلى أن أشرح لك الأهمية المادية لسبع جواهر أصغر واحدة منهنَّ بحجم قبضة يد إنسان بالغ، وإن كان حجر الكهرمان أكثر قيمة منهنَّ جميعًا.

- ما الذي تقصدينه؟

قال أسعد وهو ينفث دخان سيجارته بعيدًا عن وجهها... فردَّت عليه مفسِّرة:

- قيمة حجرة الكهرمان في أقدميتها يا زوجي العزيز، لقد تشكلت من الراتنج الذي تفرزه الأشجار الصنوبرية.

- تقصدين ذلك السائل اللزج ذا اللون البني الفاتح الذي يشبه العسل والذي يتراكم عادةً على جذوع بعض الأشجار؟

قالت مبتسمة وهي تمدُّ رجليها إلى الموقد بدورها لتدفئهما:

- أجل، لكننا نتحدث عن راتنج قديم جدًّا، وليس عن هذا الذي تشاهده في البستان، راتنج قديم لدرجة أنه لم يعد لزجًا أو متعجنًا، بل تحجَّر تمامًا فبات كالأحجار الكريمة في صلابته.

قال أسعد وهو يدخن سيجارته:

- لا أفهم بماذا يتميز راتنجكِ هذا وإن كنتُ معجبًا بشدة بطريقة رسم الفراشة السوداء بداخله... حتى لو كان قديمًا، سأخرج الآن إلى البستان وأنزع بعضًا منه من جذع الصنوبر وأحتفظ به لعشر سنوات حتى يتحول إلى حجر كهرمان ثم أبيعه وأحصل على ثروة طائلة، هل هذا منطقي؟

مدت يدها وخطفت السيجارة من يده، وقالت وهي تلقي بها في نار الموقد:

- عشر سنوات؟ أتعرف كم يستغرق الراتنج الذي أحدثك عنه حتى يتحجر بتلك الطريقة؟ أكثر من ستين.

قال أسعد متعجبًا وهو يقاطعها مطلقًا صفيرًا في الهواء:

- وييو... ستون عامًا؟ هذا كثير.

قالت مصححة:

- بل ستون مليون عام.

- ماذا؟

هتف أسعد بصوتٍ مرتفع فأشارت إليه بأن يخفض صوته لكي لا يوقظ الصغير النائم، وقالت بصوتٍ هادئ ناعس:

- كما سمعت يا زوجي العزيز، الكهرمان هو عبارة عن راتنج تم إفرازه من أشجار صنوبرية قديمة منقرضة وظلَّ على حاله تلك لملايين السنين.

في تلك اللحظة قال أسعد مقاطعًا:

- هل أفهم من كلامكِ أن الفراشة.

قالت مبتسمة:

- أجل... الفراشة التي رأيتها في الحجر ليست مرسومة ولا مُشكَّلة بأي فنٍّ، إنها حقيقية، فراشةٌ ما قبل أكثر من ستين مليون عام حطَّت على جذع عملاق لشجرة صنوبر، فعلقت أرجلها في سائل لزج كان يفرز بين تشققات خشب الجذع، وظلَّ هذا السائل يُفرَز على نحوٍ مستمر حتى غطَّى الفراشة تمامًا وباتت محبوسة فيه فماتت... لا شكَّ أنها قاومت كثيرًا لكي تهرب منه وتلتحق بصاحباتها الراقصات في جو الربيع، لكنه أحاط بها في النهاية وقضى على أحلامها في الهرب، غير أن الفراشة المسكينة لم تكن تدري أن سجنها هذا سيخلدها إلى الأبد... فلو طارت لعاشت كغيرها من الفراشات في متوسط عمر أقصاه أسبوعين ثم تصبح ضربًا من ضروب العدم وغبارًا مندثرًا في الطبيعة، لكنها حُبِست داخل الراتنج فتحجَّر من حولها وحفظها محنطة بداخله لأكثر من ستين مليون عام، قبل أن تقع في يد أحد أمراء مملكة الشرق وتصبح كنزًا غالي الثمن تتوارثه العائلة الملكية، وها هي الآن تنام نومتها الأبدية هذه فارعة جناحيها الأسودين ذوي الجمال الخلَّاب داخل الراتنج الذي تحول بدوره إلى حجر الكهرمان، لكم هزمها الموت يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، وألفي سنة تلو ألفي سنة، حتى تغلبت هي على الموت والزمان... وقطعت كل هذه المسافات عبر العصور إلى عصرنا هذا دون أن يطمس جمال جناحيها شيء، أجد التسمية فاتنة وغريبة على نحوٍ ما يا أسعد، «الأرملة الحسناء»... لقد كانت الأميرة داليدا هي صاحبة هذا اللقب... سُميت به بعد مقتل زوجها الأمير نارمر في حرب تحرير الشمال،

وقد رفضت كل عروض الزواج من بعده رغم صغر سنها وجمالها الأخَّاذ، فأطلق عليها لقب الأرملة الحسناء... لكني... لكني عندما أنظر إلى الحجر، إلى الفراشة المُحنطة بداخله أشعر أن هذه الفراشة الجميلة السوداء يليق بها أن يُطلَق عليها هذا الاسم... الأرملة الحسناء...

سكت أسعد قليلًا وبدت له الفكرة بديعة إلى حدٍّ مخيف، فطردها من عقله لكي لا تعكر صفو ليلته وسألها:

- ماذا عن الجانب السياسي من الموضوع؟

قالت وهي تشدُّ ثوبها إلى وسطها:

- أجل، هذا هو الوجه الثاني من جواب سؤالك الذي طرحته قبل قليل حول أهمية هذا الكنز، إن الدولة العميقة في القارة الوسطى تعرف الحقيقة، ريتشارد وتشارلز كانا يعرفان جيدًا أن الأميرة داليدا أحبت الأمير نارمر ولم يختطفها أو يغتصبها كما روَّجا لشعبهما، لقد كذب ريتشارد ليتخذ من هذه الحجة ذريعة لغزو الشرق، وتوارثت الأجيال الحاكمة في القارة الوسطى هذه الكذبة جيلًا بعد جيل، فصار يُنظرُ إلينا نحن الشرقيين على أننا مختطفو النساء ومغتصبوهنَّ وصرنا رمزًا للتخلف والكبت في أدبيات الغرب وتاريخه المكتوب، سلسلة الأكاذيب الباطلة هذه كلها بدأت من عقدة واحدة وهي عقدة الأميرة داليدا التي اختطفها المشرقيون واغتصبوها -حسب روايتهم- لكن شيئًا واحدًا ظل يدحض كل هذه الأكاذيب عبر العصور، شيءٌ وحيد لم يجد له كتَّاب تاريخهم حلًّا، وهو كنز الأرملة الحسناء، حجر الكهرمان والجواهر السبع الهدية التاريخية التي وضعها الملك رمسيس في الأشهر الأخيرة قُبيل وفاته بين يدي داليدا التي كانت زوجة ابنه نارمر في ذلك

الوقت، لم تكن تلك مجرد هدية، لقد كانت تسليمًا صريحًا للسلطة وتناقلها من الجد إلى الحفيد، ما كان للملك رمسيس أن يختطف فتاة ويسبيها ابنه ويغتصبها، ثم يهديها أغلى كنز في تاريخ الشرق، بل ما كان سيسمح لابنها باعتلاء العرش أصلًا.

سكت أسعد قليلًا، ثم قال بعد إطراقة:

- أظنني فهمت لماذا أرادني أبي أن أتزوجكِ، لم يكن لديه من الوقت ما يكفي ليشرح لي كل هذه التفاصيل رحمه الله، فأوصاني بالزواج من أنجب طالباته على الإطلاق لتتكفل هي بالأمر.

أطلقت سلمى ضحكة لطيفة بينما يستمر أسعد في الكلام:

- أجل فهمتكِ يا عزيزتي... كنز حجر الكهرمان والجواهر السبع هو أكبر دليل أن ريتشارد كذب على شعبه، وأبناؤه كذبوا من بعده، واستمرَّ كذبهم إلى اليوم، ولذلك يريدون الاستيلاء على هذا الكنز مهما كلفهم الثمن... لكي يتمكنوا من حجب نور الحقيقة إلى الأبد.

أومأت سلمى برأسها بأن نعم، ثم قال وهو يمسح على إحدى رجليها برجله قبالة الموقد مداعبًا:

- أخبريني يا سلمى، ماذا تعرفين عن موضوع لعنة ملوك الدفن القدامى؟

قالت بنبرةٍ حزينة:

- أشار البروفيسور إلى هذا الموضوع تلميحًا في آخر الكتاب، لم أتخيل يومًا أنه يمكن أن يكون حقيقيًّا، كما هو معروف كان ملوك الشرق يُدفنون وفق تقاليد خاصة، فكانت قبورهم عبارة عن حجرات باطنية تحت الأرض تضم كل كنوز الملك الميت وما اكتسبه في حياته من حاجيات نفيسة.

قاطعها على الفور وقد لمع سؤال طارئ في رأسه:

- إذا كان كنز الأرملة الحسناء متوارثًا بين ملوك السلالة الحاكمة قبل داليدا ونارمر وقبل رمسيس، فلماذا لم يُدفن مع أحد الملوك؟

- لم يكن الكنز ملكًا شخصيًّا لأيٍّ منهم، كان ملكًا للسلالة الحاكمة، ولذلك كان كل ملك يورثه لحفيده كنوعٍ من مراسم انتقال السلطة، لكن داليدا أوصت بأن يُدفن الكنز معها، كانت الأميرة ذكية وتعرف أن بني عمومتها من القارة الوسطى لن يكفُّوا عن مضايقة الشرق ومحاولة غزوه مجددًا، وأن الذريعة ستكون دومًا سلسلة الأكاذيب التي بدأت كلها بكذبة اغتصابها، لقد أخذت الكنز معها إلى مرقدها الأخير لكي يكون ضمانة على بقاء الحقيقة صامدة أمام زيف هذه الأكاذيب الباطلة، ولقد استوعب الملك شاور بن هبَّار بدوره هذا الأمر بعد عشرة قرون من موت داليدا.

- الملك شاور بن هبَّار كان يعرف بأمر الكنز؟

قاطعها أسعد مدهوشًا، فأجابته سلمى:

- في كتابه الشهير «نضالي» والذي توجد منه نسخة واحدة فقط عبر العالم، ذكر شاور أن تخليه عن الملك لم يكن فقط بسبب المشكلات الداخلية التي تعانيها المملكة، لقد أيقن أن واجب آل الهبار لم يعد ملك هذه الأرض بل حماية الحقيقة من التلف والضياع، ولذلك وضع الشرطين الذهبيين للتخلي عن الحكم في ميثاق القبة الخضراء، فكان أولهما حماية نسل آل الهبَّار من أي أخطار، والثاني أن كنز الكهرمان في حال استخراجه سيكون من نصيب أحفاد سلالة آل الهبَّار وليس للجمهورية أي حق في الاحتفاظ به أو اعتباره كنزًا قوميًّا.

تعجب أسعد من هذا الترابط المخيف في تتالي الأحداث التاريخية، ثم قال متذكرًا:

- ماذا عن اللعنة؟

- ها؟

- لعنة ملوك الدفن القدامى؟

- آه تلك، أجل... كنت أقول لك إن ملوك الشرق كانوا يُدفنون وفق تقاليد خاصة، وذلك في حجرات باطنية تحت الأرض، حيث توضع فيها جثة الملك محنَّطة وحولها كنوزه وأغراضه الثمينة، وتُختَم الحجرة بلعنةٍ خاصة لحمايتها من السلب والنهب، وكنت قد سألت يومًا البروفيسور ماجد رحمه الله حول هذا الموضوع، فردَّ بأنه لا يستبعد أن يكون صحيحًا، «أو هكذا آمل ولا آمل» قال بهذه العبارة، لن أنسى جملته تلك ما حييت... لقد أوصى نارمر بأن تُدفن داليدا معه، أو ربما تعاهدا على ذلك عند ملوك الدفن القدامى، ولذلك ظل قبر الأمير نارمر بغير ختم إلى غاية وفاة الأميرة داليدا، فنُقِلَت إلى حجرة الدفن، ووُضِعَ كنز الكهرمان بحوزتها كما أوصت، إذ كانت تلك رغبتها الأخيرة التي لباها لها ابنها هبَّار الملك اليافع، وخُتِمَتِ الحجرة وفق علم الدفن الذي لم يكن يُتقنه إلا فئة معينة من العلماء أُطلق عليهم لقب ملوك الدفن القدامى.

- هل يمكن القول إن ما يُعرف بلعنة ملوك الدفن هي عبارة عن خلطاتٍ ما كانت توضع في مدافن الملوك ككمائن منصوبة لكل مَن تُسول له نفسه نهب قبورهم والاستيلاء على كنوزهم؟

تساءل أسعد فردت عليه:

- هذا ما كان البروفيسور ماجد يُرجحه نعم، كان يقول إن هذه اللعنة لو كانت موجودة حقًّا فهي غازات سامة أو خلطات كيميائية قاتلة

ولم يستبعد حتى موضوع الإشعاعات... لا أحد يعرف بالضبط إلى أي مستوى كان العلم متقدمًا في حضارة الشرق وقتها خاصةً في الكيمياء.

وتذكرت في تلك اللحظة ورقة التقرير الأوَّلي الذي كتبه الطبيب المناوب في المستوصف حول الظروف الغامضة والغريبة التي وجد عليها البروفيسور ماجد عند باب المستوصف، قبل أن يبدِّله إلى تقرير آخر مزيَّف. المتوفَّى وُجِد في مدخل المستوصف في حالة خطِرة وغريبة حيث كان اللحم يتناثر من عظمه وعلى وجهه آثار حروق من درجات متقدمة.

تمتم أسعد بحزن:

- هكذا آمل ولا آمل... كان يأمل أن تكون هناك حماية كافية على الكنز لكي لا يكون أحدٌ ما قد عثر عليه في خلال كل هذه القرون التي خلت، ولم يكن يأمل توفرها لكي لا تؤذيه هو لحظة العثور عليه.

تثاءب أسعد مرة أخرى وقد أدركه النعاس تمامًا هذه المرة، فقال وهو ينهض برفقة زوجته إلى فراشهما:

- ماذا لديكِ غدًا؟

- لا شيء، لا أظنني سأخرج، إذ ربما ستزورني صديقتي، لماذا؟

- لا عليكِ إنه مجرد سؤال... صديقتكِ في المعهد؟

تثاءبت سلمى بدورها وهي تجيب:

- لقد أرهقت عقلي بأسئلتك اليوم يا أسعد، أجل. «لطيفة حريص»، إنها تسألني عنك باستمرار بالمناسبة، يبدو أنها مُعجبة بك... عليها اللعنة.

ضحك الزوجان وهما يسيران إلى فراشهما...

عُقاب

وضع زجاجة الجعَّة بين ساقيه بينما جلس على صندوق خشبي متهالك في الجراج المفعم بروائح الزيوت ودهن التشحيم والوقود، كان عامر واقفًا تحت العجلة الخلفية للدامغة وهو يركِّب أنبوبة الفرامل على العلبة الموصولة بها بعدما فحصها هي الأخرى... راقب عُقاب سيارته وقد بدت جاهزة للسباق النهائي، إن عامر يجعلها مثل المليحة في الخمار الأسود قبل كل سباق حيث يعتني بكل تفاصيلها وإن كان يفعل ذلك بالكثير من التذمر في بعض الأحيان، لكنَّ بال عُقاب لم يكن في الدامغة، ولا في خمارها الأسود... بل في مليحة أخرى صرفت تفكيره عن أهمية ما هو مُقبل عليه، فقال على مضض:

- هذه الفتاة يا عامر تثير جنوني وريبتي في كل مرة، إنها مثل الزئبق، لا تستقر على حال أبدًا، تارة تراها تمعن في حبِّي، تقبل عليَّ بكل لهفة وشوق واهتمام، وتارة تخبو وتنطفئ فلا أرى لها أثرًا، إنها مزاجية بشكلٍ مقزز مثير للأعصاب.

- هل أخبرتك أين ذهبت بعد الشجار؟

قال عامر وهو يضع سيجارته على طرف فمه ويقوم بتزويد الزيت في العلبة، فردَّ عليه عُقاب:

- ليس الكثير... أخبرتني أنها قادمة إلى هنا بعد قليل، هذا كل ما قالته.

- ستقضي الليلة معنا؟

قال عامر، فسكت عُقاب ولم يرد... أطلَّ عليه الميكانيكي في تلك اللحظة من تحت السيارة ووضع مفكك البراغي الذي كان بيده على الأرض وهو يقول:

- عُقاب، قد لا أكون عليمًا بالنساء وشؤون الحب والغرام بقدر ما أعرفه عن البراغي التي يفككها هذا المفتاح... ولكنني عليم بشؤون الرجال يا صاحبي، ودخولك السباق النهائي وأنت على هذه الحال أمرٌ لا يبشر بالخير على الإطلاق، يجب أن تجد حلًّا في أسرع وقتٍ ممكن... تركيزك مشتت تمامًا ولست في مزاج يسمح لك بخوض سباق بهذه الأهمية، أيًّا كانت مشكلتك مع هذه الفتاة... قم بحلِّها ليلة اليوم.

سكت عُقاب قليلًا، وظلَّ يراقب عامر وهو يعود إلى عمله تحت السيارة، قبل أن يطرح سؤالًا في غاية الغرابة:

- ألا تعتقد أن ثمة شيئًا ما بين نجمي وعفاف؟

نظر إليه عامر متعجبًا وقال وهو يمسح زخات العرق عن جبينه:

- شيء مثل ماذا؟

- لا أدري، أشعر أن البنت لا تتصرف على طبيعتها في وجوده، وحتى نجمي تصرفاته في الآونة الأخيرة غريبة بعض الشيء.

بصق عامر على الأرض، ودخل تحت السيارة من جديد وهو يغمغم:

- الحشيش الذي تتعاطاه مؤخرًا بدأ يؤثر على صحتك العقلية.

وفي تلك الأثناء سمعا صوت سيارة توقفت في الخارج، كانت ساعة معصم عُقاب تشير إلى الواحدة ظهرًا عندما دخلت عليهما عفاف مرتدية سروالًا جلديًّا وحذاءً رياضيًّا وألقت السلام بغير اكتراث... تبادل كلٌّ من عامر وعُقاب النظرات وقال هذا الأخير متسائلًا بينما تقترب منه:

- أين كنت ليلة أمس؟ بحثت عنك لحظة وقوع الشجار لكنك اختفيت كأن الأرض ابتلعتك.
- كأن الأرض ابتلعتني؟ أجننت؟ كان يمكن أن تصاب بأذى في أي لحظة، كسر في المعصم أو التواء في الكاحل.
- لقد كان يتحرش بك أمامي، هل كنت لأجلس مراقبًا؟

رفع عُقاب صوته موضِّحًا، فردَّت عليه على الفور:

- عند الضرورة نعم، إنك مقبل على أهم حدث في حياتك، أنسيت بما ضحَّيت؟ مشكلاتك مع أبيك وأموالك الطائلة التي خسرتها في سبيل هذا اليوم الموعود، أكانت ستنفعك غيرتك عليَّ لو أصابك مكروه أو قبضت عليك الشرطة وحرمت من المشاركة في السباق؟

من تحت سيارته، سمع عُقاب صوت صديقه الميكانيكي يأتي مضطربًا:

- الفتاة على حق يا عُقاب.

دارا إليه، ووقعت عين عفاف على عامر الذي أضاف وهو يلتقط قطعة قماش بالية ليمسح بها يده من آثار زيت الفرامل:

- لقد أمضيت الليل بطوله أخبره أن ما فعله كان خاطئًا، ولكنكِ تعرفين عناده أفضل مني، كان يجب أن يسمع ذلك منك أنت بالتحديد.

قال عُقاب متسائلًا بتردد:

- لكنك... لم تخبريني، أين اختفيتِ بعد اندلاع الشجار؟

دارت إليه، واحتضنته وهي تقول:

- سررت بأنك لم تُصب بمكروه، لقد تبقى أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة على النهائي، العالم كله يراقب قنليجيا، صورك أنت ونجمي تملأ الشوارع والساحات العامة ولا حديث بين الناس إلا عنكما وعنك أنت بالتحديد، نحن على بُعد خطوة من تحقيق أحلامنا فلا تضيِّعها هباء أرجوك.

أفعمت رائحة عطرها أنفه، كانت بقاياه قد علقت بخصلات شعرها ومعها بقايا رائحة السجائر. «*لقد كانت متوترة وقلقة عليَّ*». قال عُقاب لنفسه مبتسمًا ثم سمعها تقول:

- في اللحظة التي اندلع فيها الشجار حاولت الاختباء تحت البار، لكني عرفت أنني سأعطلكم بسبب كعبي العالي خاصةً لما سمعت النادل يتصل بالشرطة، فاخترت أقرب مخرج للنجدة وهربت من خلاله، لم أستطع الاتصال بك في تلك الليلة لأني ظننت أنك تحت الرقابة ولم أشأ تعريضك للخطر بالحديث معك عبر الهاتف حول أحداث السهرة.

ثم قامت من حضنه ونظرت إليه بعينيها الذابلتين وقالت:

- وهذا كل شيء.

مسح عُقاب على شعرها مبتسمًا، وتنحنح في تلك اللحظة صديقه الميكانيكي قائلًا:

- لقد أنهيتُ كل شيء، الدامغة جاهزة تمامًا لتجارب الأداء، سيكون عليك أن تقود بشجاعة ومرونة، كل الأعطاب السابقة أُصلِحَت، أصبحت سيارتك قادرة على مقارعة مايوركا ووحشه العتيد... إلا إذا كنت أنت تعاني الأعطاب.

همَّ عُقاب بأن يرد عليه لكن عفاف قالت ضاحكة:

- أنت اختصاصك إصلاح العطل في السيارة، دع إصلاح الأعطال في عُقاب عليَّ أنا.

فضحك الثلاثة، واستأذن عامر الميكانيكي في المغادرة، تاركًا عفاف معه...

أسعد

(بعد 10 ساعات)

كان أسعد ساهرًا يطالع إحدى المجلات الاقتصادية عندما سمع صوت أقدامٍ حافية تصعد الدرج نحو غرفته، فوضع الكتاب ونظر نحو الباب المفتوح... وما هي إلا لحظات حتى دخل إليه مرتديًا سروال نومه وقميصًا داخليًّا بلا أكمام وفوقه معطفه الجلدي الأسود، كان البرد شديدًا في الخارج، وقام أسعد من مكانه ليفسح المجال لولده بأن يجلس على طرف السرير أمامه، وقال له مبتسمًا:

- أجئت تجادلني مرة أخرى في جدوى ما تقوم به؟

جلس عُقاب على السرير وهو يشعر بحكَّة في الجهة اليمنى من صدره، شيئًا ما كان يخزه هناك لكنه تجاهله وقال والتردد واضح في نبرة صوته:

- كلَّا يا أبي ولكني... مقبلٌ على أهم حدث في حياتي كلها، الشيء الوحيد الذي أردته والذي سعيت نحوه وقاتلت من أجله كل هذه السنين، بات بيني وبينه ليلة واحدة فقط.

ابتسم الأب وقال بعدما سعل سعلتين خفيفتين:

- ومع ذلك، ما زلت ترى أنك في حاجة إلى إقناعي؟

قال أسعد وهو يشير برأسه نفيًا:

- قد فشلت في إقناعك منذ زمن بعيد، ولكني لا أريد أن تكون هنالك ضغائن بيننا، أريدك أن تعرف أنني أعتبرك أبي بعد كل شيء.

قال أسعد متهكمًا:

- تعتبرني أباك بعد كل شيء... يا لها من منَّة عظيمة.

رفع عُقاب رأسه، وشعر بأنه على وشك الدخول في الجدال مجددًا لذلك فضَّل السكوت، آخر ما قد يتمناه في ليلةٍ كهذه شجار آخر مع أبيه، لكن هذا الأخير باغته بسؤالٍ مدوٍّ:

- إلى متى ستظل تُحملني مسؤولية موت أمك يا ولدي؟

همَّ عُقاب بأن يجيب ولكن الأب قطع كلامه:

- ربما إلى أن تعرف الحقيقة كاملة، كنت دومًا أجد سببًا لأخفيه عنك كل هذه السنين لكني فهمت فيما بعدُ أني لم أكن أريد إخفاءه عنك فحسب، بل كنت أريد حمايتك منها... من الحقيقة المرَّة التي حملتها بين أضلاعي.

قال أسعد فنظر إليه عُقاب مستغربًا، وقبل أن يقول أي شيء آخر أومأ أسعد برأسه إيجابًا وهو يقول:

- لطالما كنت فخورًا بك يا ولدي حتى وأنت تخوض تلك السباقات العاتية، كانت مشاهدة الدامغة وهي تهرب في المركز الأول مبتعدة عن باقي السيَّارات تثير فيَّ قشعريرة النصر دائمًا، لكن لا تتوقع لأي أبٍ في هذه الحياة أن يكون سعيدًا حين يرسل ابنه ووريثه الوحيد إلى خطر الموت، أنت تعرف أفضل مني أخطار تلك السباقات المميتة والسرعات الهائلة التي تقود بها في مضامير السباق، لكنك لا تعرف ما الذي ضحَّينا به من أجل سلامتك والحفاظ على حياتك يا ولدي.

شعر عُقاب بالخوف، وقال مقاطعًا:

- أي حقيقة يا أبي؟

طأطأ الأب رأسه وقال بحزن:

- حقيقة موت أمك.

هتف عُقاب بسأم:

- لا أريد أن أفتح هذا الموضوع معك فقد تعبت منه، إنك تحاول دائمًا أن تضغط مشاعري بذكر أمي وموتها كأنني الولد الوحيد الذي ماتت أمه بسبب المرض والإهمال.

- أمك ماتت مقتولة يا عُقاب.

قال أسعد هذه الجملة فانفصل عُقاب عن الواقع للحظات، شعر بصداعٍ غريب ينتابه وتلاعبت أمعاؤه بمحتوياتها، نظر إلى أبيه نظرة عميقة فاحصة وبقي لأكثر من عشر ثوانٍ بلا حراك، وأسهب أسعد في الحديث:

- تعود الحكاية إلى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، عندما تُوفي جدك ماجد بن هبَّار في ظروف غامضة في أثناء قيامه بإحدى رحلاته الاستكشافية نحو الجنوب، فيما بعدُ أدركت أن هذه الرحلة كانت الأخطر والأهم في حياته كلها، ولأنني كنت ساعتها مشغولًا برحلاتي التجارية لم يكن لديه متسع من الوقت لإخباري بحقيقة هذا الاكتشاف التاريخي العظيم، لقد تمكن جدُّك من استخراج كنز لا يُقدر بثمن، قد لا يكون لديَّ متسع من الوقت لأخبرك بماهية هذا الكنز وأهميته الآن، لكن أمك كانت تعرف جيدًا قيمته مثلما أعرفها أنا، في الواقع... لقد تعلمت ذلك بفضلها، فأمك كانت عالمة تاريخ

عظيمة وكانت طالبة لدى جدك في الكلية، ثم اشتغلت عنده في المعهد القومي للآثار لسنوات، قبل أن يعرِّفها إليَّ.

ابتسم أسعد وهو شارد الذهن يتذكر تلك الأيام الخوالي، وقام من مكانه متمايلًا نحو خزنته حيث بدا أنه يبحث عن شيءٍ ما بداخلها وهو يقول:

- كنت أغار منها في ذلك الوقت، حسبتُ أن أبي ينوي الزواج منها لكثرة ما كان يتحدث عن ذكائها وكفاءتها في علم التاريخ أمامي.

ثم أطلق ضحكة تهكم وهو يقول:

- كنت غبيًّا وساذجًا وقتها... ليتنا نحن الرجال نفهم آباءنا في الوقت المناسب يا عُقاب، لقد كان أبي يريدني أن أدرس تاريخ عائلتنا وبلادنا، لكي أستوعب خطورة ما نحن مقبلون عليه، ولما يئس مني بسبب اهتمامي بالتجارة والاقتصاد، حاول أن يجعلني أتعلق بسلمى أمك رحمها الله، لقد كان أبي يريدها لي لا لنفسه... وبعدما مات في تلك الظروف الغامضة، بحثت أنا وأمك كثيرًا حول الأسباب الحقيقية لوفاته، ولم نصل إلى أي شيء يُذكر... وفي اليوم الأربعين بالتمام بعد وفاة جدك، وبينما كنت في البيت برفقة صديقي الوفي عاكف ابن الضبعة، زارني رجل غامض ومنحني وصية أبي الأخيرة مع الأمانة التي تركها لي.

تمتم عُقاب:

- هذا الرجل هو العم المحترم.

دار أسعد بفزع إلى ابنه وهو يحمل في يده ورقة قديمة بالية:

- ماذا قلت؟ من أين تعرفه؟

- لقد قابلت سائقه قبل أيام، وسرد لي كيف عادوا من الجنوب في تلك الليلة السوداء... لقد فهمت الآن أن الرجل الذي كان يتحدث عنه نفيس الفيل كان جدي ماجد بن هبَّار... كنت أشكُّ في ذلك منذ تلك اللحظة.

اقترب أسعد من ابنه، ووضع في حجره الورقة وهو يقول:

- إذا كانت لديك أي طريقة للتواصل مع هذا الذي سرد عليك هذه القصة، فأخبره أن حياته في خطر.

ثم أشار إلى الورقة وقال:

- كانت هذه رسالة جدِّك الأخيرة لنا.

فتحها عُقاب بلهفة، وقرأ بصوتٍ مرتفع: **«إلى سندي ووليدي ووحيدي أسعد».**

ثم انتقل بين الأسطر إلى أن وصل إلى كلماتٍ جعلته يشعر بالصدمة:

منذ عهدٍ بعيد وضع جدنا العظيم الملك شاور من آل الهبَّار شرطين سماهما «الشرطين الذهبيين» على مؤسسي هذه الدولة في القبة الخضراء، فكان الشرط الأول أن تحمي الدولة سلالة عائلتنا من الزوال، وأما الشرط الثاني فكان أن يكون لنا نحنُ آل الهبَّار كامل الحق في الاحتفاظ بكنز عائلتنا التاريخي «كنز حجر الكهرمان».

أوقفت الدهشة عُقاب عن القراءة، فنظر إلى أبيه وقال ذاهلًا:

- أسطورة حجر الكهرمان؟

ثم عاد إلى الورقة وقرأ بلهفة:

لقد سخَّرت الدولة المعهد القومي للآثار كله تحت إمرتي من أجل الوصول إلى هذا الكنز الذي أفنيتُ حياتي كلها في البحث عنه، ورغم السريَّة الشديدة التي أحاطت بالمشروع فإننا اضطررنا إلى

الاستعانة بشركةٍ أجنبية من أجل استئجار معدات البحث والتنقيب في الصحراء المعروفة بوادي المقابر، وقد أدركنا بعد سنتين من انطلاق المشروع أننا ارتكبنا غلطةً فادحة، فمالك الشركة الأجنبية التي كنا نعمل بالاستعانة بمعداتها تبيَّن أنه لص آثار ومجرم يسرق تاريخ الشعوب والأمم بلا ضمير، كان اسم هذا الرجل «سايمون راميريز»، لحسن حظِّنا لم يكن سايمون هذا يعرف طبيعة وأهمية ما كنا نبحث عنه، كان يعتقد أن الموضوع يتعلق بمجموعةٍ أثرية يعود أصلها إلى حضارتنا القديمة، لم يكن يعرف أن للأمر علاقة بالإرث التاريخي لآل الهبَّار بل ولم تكن لديه أدنى فكرة أن هذا الكنز موجود أصلًا...

- الرجل الأجنبي الذي صحبه كلٌّ من نفيس وجدي من مطار الأرقم بسيزيف في تلك الليلة كان سايمون راميريز، يا لها من مصيبة... الرجل نزل معهم إلى السرداب بحسب ما قاله نفيس الفيل لي قبل يومين... كيف تمكنوا من إنقاذ الكنز من السرقة فيما بعدُ؟ ثم... السؤال الأهم في كل هذا... ما علاقة مَقتل أمي بالموضوع؟

قال أسعد وهو يشبك أصابعه بعضها ببعض بعدما جلس مرة أخرى بجانب عُقاب:

- بعد مضي قرابة ثمانية عشر عامًا على موت جدِّك، كنت أنت في بدايات صباك حين وصلت إلينا تهديدات حقيقية بالقتل إن لم نقم بتسليم آخر اكتشافات جدك الأثرية، لم يكن العدو واثقًا تمامًا حول ماهية هذا الاكتشاف، لكنه كان يريده على أي حال، مما جعلني أستنتج أنه قادم من طرف سايمون راميريز، أو قد يكون سايمون راميريز نفسه.

- ولماذا هددوا بقتل أمي بالتحديد؟

قال عُقاب متعجبًا بأسى وأسف، لكن أسعد باغته بإجابة لم تخطر على باله:

- في الواقع يا بني... لقد هددونا بقتلك أنت.

قشعر جسد عُقاب ونظر إلى أبيه بدهشة وذهول، ولم يقل أي كلمة أخرى... فقد بدأت خيوط المعادلة تنسج في عقله الآن، لقد أرسلوه بعيدًا إلى الريف لكي يحموه من الموت...

- وماتت أمي بدلًا مني؟

استند أسعد على ركبته وهو يقول:

- تلك قصة أخرى، لقد تسللت جاسوسة خبيثة بيننا... جاسوسة ماكرة تمكنت من الإطاحة بنا على غفلة منا، أحبتها أمك وأحسنت إليها، واعتبرتها صديقة لها، طيلة عشر سنوات أكرمتها وأدخلتها بيتنا فباتت واحدةً منا وفينا، كانت تعمل في المعهد القومي للآثار، امرأة أجنبية اعتنقت ملتنا وأضحت أكثر إيمانًا بالله من أمك نفسها، هذا ما كان ظاهرًا لنا على الأقل، لطيفة حريص.

قال أسعد وهو يعض على شفتيه بعد نطق اسمها، واعتصره الأسى أكثر حين تذكر بسمتها الصفراء ونظراتها الجميلة البريئة:

- لقد قتلت لطيفة أمك يا عُقاب... واختفت تمامًا عن الوجود، استعملت جواز سفرها الأجنبي في الهرب إلى بلادها مرة أخرى ولم يعرف لها أثر حتى الآن، حاولت أن تسرقنا، ولما كشفتها أمك قامت بقتلها وفرَّت هاربة.

دمعت عينا عُقاب وهو يومئ برأسه قائلًا:

- أرسلتماني إلى الريف من أجل حمايتي... ولم تحميا نفسيكما، هل كان الحفاظ على هذا الكنز يستحق حياة أمي يا أبي؟

سحب أسعد ابنه إلى حضنه بقوة وعانقه بشدَّة بينما كان الولد ينتحب باكيًا:

- كانت أمك لتكون فخورة بك يا عُقاب، ولكن ليس بالحياة التي تعيشها مؤخرًا، ابتعد عن المعاصي يا ولدي... ما تعيشه من لهو وملذات، وما أنت مدمنٌ عليه من خمر وحشيش، إنك تقطع قلبي، وتدمي جراحي، وتؤذي أمك وهي في قبرها عظام ورميم.
- أعدك يا أبي، وأعد أمي وروحها بيننا الآن... أنني سأقلع عن كل ما أنا فيه بعد السباق النهائي، سأفوز بالجائزة الكبرى لأجلكما، وسأعود بها إلى البيت، وسأحمي تراث عائلتي وإرثها المجيد.

قال وهو يمسح دموعه، ثم قام متهاديًا، وقبَّل رأس أبيه الذي ظل يراقبه مبتسمًا، ومشى خطوتين نحو الباب، ثم دار وقال وقد بدا أنه تذكر السؤال الأهم في القصة كلها:

- لكن... أين هو الكنز الآن يا أبي؟

استمرَّ أسعد في النظر إليه للحظات، ثم قال وهو يتكئ على فراشه:

- بعدما تنتهي من سباقك العظيم هذا، سأخبرك.

عُقاب

ركن عُقاب سيَّارته «الدامغة» في المكان المخصص لها عند خط البداية ونزل هناك لتحية الجماهير الغفيرة التي كانت تقف على التلال وحواف المضمار الأفعواني الشهير، ورغم سوء الأحوال الجوية وتقلبات أحوال الطقس فإنَّ عشرات الآلاف من المشاهدين تنقلوا إلى المكان من أجل أن يشهدوا نهائي الجائزة الكبرى لسباق قنليجيا في دورته التاسعة والسبعين، كان بعض المشاهدين يحملون مطارياتهم استعدادًا لهطول الأمطار في أي لحظة بينما تخيَّر الآخرون أماكنهم بعناية تحت الأشجار والأحراش، لم يتمكن المعلِّق الرياضي الشهير «هاني العدل» من تقديم إحصائيات دقيقة حول نسبة المشاهدات التي وصل إليها السباق من خلال البث التلفزيوني في بلاد شاور وبقية بلدان العالم لكنه قال إنها قد تصل إلى أكثر من أربعين مليون مشاهدة حتى هذه اللحظة، وقد تزايدت المشاهدات بشكلٍ جنوني في اللحظة التي وصلت فيها سيَّارة عُقاب إلى مكان السباق، «هذا طبيعي أيها السيدات والسادة، مَن الذي لا يشعر بالحماس لدى رؤيته للدودج تشالنجر التي ستمثل مقاطعة قنليجيا وبلاد شاور قاطبة في هذا النهائي العالمي المثير»، هتف هاني بصوته المشهور فاندفعت من خلفه أصوات الجماهير لتحية نجم سباق السيارات «عُقاب بن هبَّار»...

كان هذا الأخير يراقب الأجواء ومن خلفه عفاف التي أشارت إلى جهة اليسار قائلة:

- انظر حبيبي، نجمي هناك.

التفت عُقاب إلى المكان الذي أشارت إليه وهناك كان يقف أمام سيارته الشيفروليه كورفيت التي تستمد اسمها من لونها «العنَّابية»، اقترب منه عُقاب وصافحه بحراره بينما عانقه نجمي وهو يقول: «عسى أن يفوز الأفضل». فردد عُقاب من بعده: «عسى أن يفوز الأفضل». ثم نظر إلى سيارة نجمي وتساءل:

- أهي جاهزة؟

أومأ نجمي برأسه إيجابًا:

- هذا ما نأمله جميعًا، قل لي يا عُقاب... ألم تسمع الأخبار قبل وصولك إلى هنا؟

- أي أخبار؟

قال عُقاب متسائلًا، فطأطأ نجمي رأسه وأخذ عُقاب من يده إلى الزاوية وردَّ بنبرةٍ جافَّة:

- صبيحة اليوم عثرت الشرطة على نفيس الفيل منتحرًا في شقَّته.

اقترب عُقاب من نجمي وهو يحاول أن يسمع منه بشكلٍ أفضل وقال بملامح ذاهلة:

- ماذا؟ أعِد ماذا قلت؟

سكت نجمي، ولم يقل شيئًا، وظلَّ عُقاب ساكتًا للحظات هو الآخر وحال بينهما موجٌ من صخب الجماهير وصياحها وهما حائران.

- كيف؟ ولماذا حدث ذلك؟

- لا أدري يا عُقاب، لا أدري... كل ما سمعته أن بعض الجيران أبلغوا عن رؤيتهم لجثة معلقة في المطبخ بشقته، ولما اقتحمت الشرطة

المكان عثرت عليه ميتًا، تقديرات الطب الشرعي أشارت إلى أنه كان قد تُوفي قبل اثنتي عشرة ساعة فقط لحظة العثور عليه.

وضع عُقاب يده على رأسه ودارت الدنيا من حوله دورة سريعة خاطفة. «*لقد قضيت ليلتي عنده قبل أقل من ثلاثة أيام، كانت آماله وتطلعاته إلى المستقبل من أجل معرفة أسباب مَقتل العم المحترم كبيرة، يستحيل أن يكون قد انتحر هكذا ببساطة بعد أقل من يومين*».

رفع عُقاب عينيه ونظر في عينَي نجمي وقال جملة واحدة:

- الفيل لم ينتحر يا نجمي، لقد مات مقتولًا.

في تلك اللحظة سمع الاثنان موجة صاخبة من صيحات الاستهجان وقد بدأت السماء ترسل أولى قطرات المطر، نظر كلٌّ منهما إلى المدخل وشعر عُقاب بوخزة الخوف تهز الأرض من تحت أقدامه لدى رؤيته للتويوتا سوبرا الملقبة بـ«صقر الجديان» تصل إلى المكان أخيرًا، فزمَّ شفتيه ثم أطلق تنهيدة قوية وهو يقول:

- مايوركا.

ثم التفت إلى كلٍّ من نجمي وعفاف، وعامر الذي كان قد وقف للتو أمامهم:

- لقد وصل... هيا يا نجمي.

ضرب نجمي على كتفه مشجعًا، وصافحه عامر بحرارة وهو يقول:

- تذكر جيدًا يا عُقاب... قُد بليونة، كن كالسراب ولن تتمكن منك الضباع.

- سأكون كالسراب، وإلا أصبحتُ سرابًا يا عامر.

ثم التفت إلى عفاف، كانت تنظر إليه نظرات عميقة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ابتسم وهو يمسح الدموع عن عينيها:

- سننتصر يا عزيزتي، ستكون الليلة ليلتنا.

- عُقاب.

هتفت به وهو يتوجه نحو سيارته تاركًا إياها، فالتفت نحوها... نزلت دمعة أخرى من عينيها وركضت نحوه، وعانقته بقوة كما لم تفعل من قبل... كان يرتدي قفازاته الجلدية المفتوحة عند أطراف الأصابع، فأقحم أنامله في فروة شعرها، وداعب خصلاتها بحنان ليهدِّئ من روعها وسط صخب الجماهير وصياح المعلق، ثم تركها وتوجه نحو سيارته... فتح الباب وصعد، وجلس في مقعده وأغلق عامر الباب من خلفه...

ردَّد بداخله:

«كان الخريف يمر في لحمي جنازة برتقال

قمرًا نحاسيًّا تفتته الحجارة والرمال

وتساقط الأطفال في قلبي على مهج الرجال

كل الوجوم نصيب عيني كل شيء لا يقال

ومن الدم المسفوك أذرع تناديني... تعال».

صاح المعلق في تلك الأثناء:

- ها قد اتخذ السائقون الثلاثة أماكنهم، وحانت اللحظة الموعودة من اليوم المشهود... أيها السيدات والسادة أقدم لكم أمهر ثلاثة سائقين في العالم في سباق الشوارع للسيارات... نجمي بسيارته العنابية شيفروليه كورفيت، مايوركا وسيارته صقر الجديان تويوتا سوبرا، وعُقاب يقود الدامغة دودج تشالنجر، في النهائي الكبير لجائزة قنليجيا الكبرى!

نظر عُقاب إلى يساره، وتمكن من رؤية مايوركا وهو ينظر إليه مبتسمًا، كان قد حلق شعره وارتدى حلقًا في أذنه ولولا لحيته المدببة

لجزم سليل الهبَّار أنه فتاة لا رجل... ثم نظر مرة أخرى إلى نجمي الذي كانت نظراته المتوترة لا تركز إلا على الطريق أمامه... رفع زجاج سيارته، وها قد بات وحيدًا تمامًا الآن، وقال وهو يضع يديه على المقود:

لا تسأليني عن أعيُن أمي أو زغاليل الخميلة

شرف الطفولة أنها خطر على أمن القبيلة...

صاح المعلق بصوته الرنان بالعد التنازلي: «5».

«إني أباركهم بمجد يرفض الدم والرذيلة».

«4»

«وأهنِّئ الجلاد منتصرًا على عين كحيلة».

«3»

«كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديلة».

«2»

«مرحى لقاتلك الجسور حبيبتي... مرحى لسفَّاح الطفولة».

«1»

«انطلاااااق».

وزأرت التويوتا سوبرا بأعلى صوتها وهي تندفع كالرياح مع الرياح، لحقت بها العنابية ونجمي يقودها بارتباك وتوتر... وصاحت الجماهير بأعلى صوتها عندما اندفعت الدامغة بينهما تلعن الطريق وأحوال الطقس وأمطار الشتاء، كان عُقاب يقود سيارته ببراعته كلها، لكن عقله لم يكن في السباق بل في ما دار بينه وبين أبيه من أحاديث ليلة أمس، كانت السيارات الثلاث تطوي الطريق طيًّا وتماهت المشاهد على النوافذ والسرعة تقترب من حدٍّ جنوني، التويوتا سوبرا في المرتبة الأولى حتى الآن، غير بعيد عنها انطلقت الدامغة تنافسها على المركز الأول وصاح

هاني بأعلى صوته: «شيء لاااا يُصدق... صقر الجديان السيارة التي كانت تبتعد بمراحل على خصومها في السباقات الإقصائية باتت الآن تواجه منافسة شرسة وبالكاد تتقدم بأمتار قليلة عن الدامغة، الدودج تشالنجر التي تمثل آمال الأمة كلها في حسم السباق لمصلحتنا بهذه الليلة الماطرة».

ثم قال المحلل الجالس بجانبه: «آمل أن يكون فريق الإعداد الميكانيكي بكل سيارة قد حسب حسابًا للأحوال الجوية اليوم، من سوء حظ السائقين الثلاثة أنها قد تمطر بغزارة في أي لحظة».

«*كيف ولماذا؟ ما الذي حلَّ بنفيس يا ترى؟*». لمعت بين عينيه نظرة عابرة فتذكر جملة أبيه: «إذا كنت على تواصل مع هذا الرجل فأخبره أن حياته في خطر»... «*كيف عرف نجمي أن نفيس الفيل هو نفسه أسامة زيدان السائق الأسطوري الذي انسحب من نهائي سباق جائزة قنليجيا الكبرى في الماضي؟ وأين كانت عفاف طيلة الساعات التي تلت أحداث الشجار في البار في تلك الليلة الحمراء؟*»... تذكر عُقاب في تلك اللحظة كلام أبيه ليلة البارحة: «وفي اليوم الأربعين بالتمام بعد وفاة جدك، وبينما كنت في البيت برفقة صديقي الوفي عاكف ابن الضبعة، زارني رجل غامض ومنحني وصية أبي الأخيرة مع الأمانة التي تركها لي...».

فكَّر عُقاب وفكَّر، وسرح بتخيلاته واستنتاجاته بعيدًا بينما لا يزال يقود سيارته في المركز الثاني والسباق في ذروته، واقتربت السيارات الثلاث من المنعرج الأول لمنعرجات المضمار الأفعواني الكبير، وقد اجتازه الثلاثة بنجاح، وتمكن مايوركا من التقدم أكثر فهو شديد المهارة في تجاوز المنعرجات بأسرع ما يمكن، لكن عُقاب استمر في مطاردته وهو يفكر بعمق: «*لطالما تدخَّل نفيس الفيل لإنقاذي، لطالما كان موجودًا في كل الأماكن التي كنت موجودًا فيها، في سباق*

النصف نهائي أكاد أجزم أنه كان بإمكانه حسم السباق بسهولة، لكنه كان يطارد خصومي ويمنعهم من تجاوزي، لم أكن ساذجًا لأغفل عن ذلك، حتى في ليلة شجار الحانة لولا تدخله لاعتقلتني الشرطة ولربما حرمت من المشاركة في النهائي بكل تأكيد، لقد كان نفيس يشتغل مع الرجل الذي جلب الأمانة لأبي بعد وفاة جدي... إنه رجلٌ صالح، جنديٌّ مخلص لبلاده ودولته، وأيًّا كان هذا الذي قتله فهو بكل تأكيد يستهدفني ويستهدف أبي، لقد كان نفيس يحميني، من السيئ جدًّا أن يقتل رجل كان يحميني»... «وبينما كنت في البيت برفقة صديقي الوفي عاكف ابن الضبعة، زارني رجل غامض ومنحني وصية أبي الأخيرة مع الأمانة التي تركها لي». مرة أخرى تذكر هذه الجملة وتردد صداها في رأسه... ثم تذكر النظرات الغريبة بين عفاف ونجمي... ذلك الشعور بأن ثمة شيئًا يجمعهما في الخفاء لم يفارق عقله للحظة، الغموض الذي يكتنف عفاف... وغيابها الغريب عن الأنظار لأكثر من ثلاثة أيام بعد السهرة الحمراء. «*يا إلهي... عاكف ابن الضبعة؟ يا إلهي الرحيم... نجمي... عفاف... الكنز*». تسارعت الحقائق والاستنتاجات في رأسه كما يتسارع الأدرينالين في عروقه في أثناء القيادة.

- نجمي يا ابن العاهرة... سأقتلك... سأقتلكم جميعًا لو حصل مكروه لأبي...

لا يُعقل أن الذي خطر بباله قد يكون صحيحًا، كانت صدمته شديدة حتى إنه بدأ يفقد السيطرة على أعصابه وبات يفكر جديًّا في الانسحاب من السباق، نعم، نجمي يخطط لسرقة الكنز، إنه يعرف بشأنه، وعفاف تعملُ لصالحه حتمًا. «*هل قتلا نفيس الفيل معًا؟ إذا لم يكونا قد فعلا ذلك فإن عفاف تشتغل حتمًا لصالح طرف ثالث وأخبرته بحقيقة نفيس التي عرفتها من نجمي، طرف يسعى بكل قوته نحو الكنز، كما كان*

يسعى *إليه من قبل...*». تيرا راميريز. كان على بُعد أمتار قليلة من المنعرج الرابع أخطر منعرجات المضمار عندما ضغط الفرامل لكي ينسحب من السباق ويعود إلى البيت بأقصى سرعة لحماية أبيه، وبهت عندما لم تتناقص سرعة سيارته على الإطلاق، الفرامل لا تعمل... شعر بالذعر في تلك اللحظة وفقد السيطرة على نفسه وعلى سيارته، وطارت به خارج المضمار...

«أظفار حمراء مطلية، أنامل رقيقة ناعمة لفتاة حسناء تشبك أصابعها بأنامله... المروج الخضراء على امتداد البصر وعينين جميلتين حزينتين تسألانه بعتاب قاتل: «أتعدني يا عُقاب؟». كانت السيارة في الهواء تهوي به في طريقها إلى الوادي: «أعدكِ بماذا؟». قالت وهي تهزُّ كتفيها بإصرار: «قلت لك عدني»، تماوجت السحب من تحت قدميه وانقلبت الدنيا من حوله رأسًا على عقب، ولكمته وسائد الحماية بقوة بينما تنقلب به السيارة بعنف في المنحدر الخطِر نحو الأسفل وسط دهشة الجماهير والمعلق الذي سكت تمامًا ولم يدرِ ما يقول.

انقسم المقعد من خلف ظهر عُقاب الذي لم يكن متأكدًا إن كان المقعد هو الذي انقسم أم ظهره...

وفقد الوعي وسط الأمطار الغزيرة المتساقطة مع الصخور والنباتات الشائكة التي اقتحمت سيارته وطين الوادي المفعم برائحة الزيت والبنزين، وآخر ما رآه بين عينيه صورة أبيه أسعد... وأمه سلمى... وأنامل أنثوية رقيقة لفتاةٍ بالكاد يتذكرها... تذكره بوعد ما كان قد أخلفه على ما يبدو... واللون اللازوردي الباهت لضوء مشكاة قديمة معلقة في الظلام...

أسعد

قام من أريكته مفزوعًا وهو يشاهد سيارة ابنه «الدامغة» تنقلب في منحدرات وادي الموت متحولة إلى كومة من الخردة وصفائح الحديد المشوهة كأنها ورقة مسودة ألقى بها شاعر في سلة المهملات بعدما شعر بعدم أهمية ما هو مكتوب فيها، مع اختلاف فظيع وهو أن مَن كان موجودًا بداخل تلك الكومة كان آخر وريث لعائلة الهبَّار، لقد رأى أسعد نهاية سلالته أمام عينيه وحدث ما كان يخشاه طيلة هذه السنوات، شعر بالعجز فوق عجزه القاتل وانتابته نوبة ألم عظيمة سرت في كامل عظامه كأن تيارًا كهربائيًّا شديد الدلالة قد ضربه، اقترب من شاشة التلفزيون وهو يتمتم كالمجنون «عق... عقا... عُقاب؟ ولدي؟ عُقاب... عقاااب...». وسمع في تلك الأثناء المعلق سامي العدل يطمئن الجماهير والمشاهدين:

- الدامغة خارج السباق يا سادة ولكن سائقها على ما يبدو حيٌّ يُرزق، لقد وصلت إليه فِرق الإنقاذ للتو والتقارير الأولية تقول إنه قد نجا من الموت بأعجوبة... لا يزال السباق مستمرًّا بين نجمي ومايوركا... هذا الأخير متقدم...

في تلك اللحظة سمع صوت ارتطام عظيم في الباب الخارجي، فتوجه نحو السلالم لكي يرى ما يحدث فإذ به يشاهد مجموعة من الملثمين الذين يرتدون ملابس سوداء ولا يظهر من وجوههم إلا أعيُنهم، كانوا ضخام الجثة يحملون أسلحةً رشاشة عليها كواتم صوت... فركض

أسعد فور رؤيتهم نحو مكتبه، وكانوا قد رأوه وهو يتوجه إلى هناك فهرولوا خلفه وحاول أحدهم إصابته بطلق ناري في إحدى ساقيه فتجنب الرصاصة في اللحظة الأخيرة، أوصد الباب خلفه بعناية وتوجه نحو المكتب لاهثًا: «*إنني ميتٌ في كل حال، حتى لو لم أمت برصاصكم سأموت بالمرض*». جلس على الكرسي وفتح الدرج، وأخرج منه كومة من الأوراق البيضاء، ثم حمل قلمًا جافًّا... وسمع صوت أقدامهم وقد وقفت عند الباب، وبدؤوا يحاولون فتحه بقوة، تذكر في تلك اللحظة كلمات أبيه في رسالته الأخيرة إليه: «أنت لا تعرف معنى أن يحمل الإنسان قلمًا ليقوم بتوثيق نهايته».

وبأقصى ما يمكنه من هدوء، خطَّ أسعد وصيته الأخيرة لابنه، بخطٍّ واضح وكلمات خاطفة لم تزد وصيته عن سطرين، ما إن أنهاهما حتى انكسر البابُ ودخل الملثمون الأربعة إلى المكان، اقتربوا منه بحذر وهم يصوِّبون رشاشاتهم نحوه.

- ارفع يديك حيث يمكننا رؤيتهما.

وقف أسعد واضعًا يديه المرتجفتين على رأسه، لم يكن يعرف مَن هؤلاء، لكنه كان يدرك جيدًا لأي سبب جاؤوا، وتمنى لو يقتلوه قبل أن يطرحوا عليه ذلك السؤال الذي كان آخر ما يتمنى سماعه في لحظاته الأخيرة...

- أين خزنة ماجد للآثار؟

قال أحدهم بصوت خشن، فابتلع أسعد رعبه في حلقه وقال متوجسًا بصوت خائر القوى:

- لا أعرف... لا أعرف عما تتحدث أيها السيد.

بخطوات متمايلة سار أحد الملثمين ففهم أسعد على الفور أنها امرأة، وقفت قبالته وقالت بصوتٍ يعرفه جيدًا:

- لا نريد أن نتسبب لك في أي أذى يا أسعد، امنحنا مفتاح الخزنة السرية فحسب، سنأخذها ونرحل من هنا... هذا كل ما نبحثُ عنه.

انهار على الكرسي بعدما أعياه الوقوف، وقال وهو ينظر إلى عينَي المرأة الملثمة:

- لقد أحببناكِ... وثقنا بكِ، وفتحنا لكِ قلوبنا وبيتنا، كنتِ وحيدة فصادقناك، كنتِ أرملة غريبة عن هذه الديار فآويناكِ وكنا لكِ أهلًا وصحبة وأعطيناكِ كل ما نملك من حب وصداقة ورفقة طيبة، على بساط هذه الدار أرسل ابنك خطواته الأولى، ولقد أحبَّتك سلمى أكثر من أيِّ واحدة من صديقاتها، أهكذا تجازيننا على حبنا لك؟ هنا في هذا المكتب رفعنا كؤوس العصير احتفالًا بعيد ميلادك ذات يوم، أترفعين في وجهي السلاح اليوم كما رفعته يومًا ما في وجه سلمى؟

خفضت المرأة الملثَّمة رشاشها... ووضعت يدها على اللثام الذي في وجهها فأماطته وهي تنظر إلى أسعد بقسوة وكبرياء، نظر أسعد مرة أخرى وقال متمتمًا:

- لطيفة... لماذا؟

- تيرا... أدعى تيرا راميريز يا سيد أسعد، اسمي المشرقي لطيفة حريص لم يكن سوى حبر على ورق ورثته من رجل أبله تزوجني ذات يوم وظن أن بإمكانه شراء قلبي وجسدي بأمواله، ألا يذكرك اسم راميريز بأي شيء يا أسعد؟

- سايمون... سايمون راميريز؟

قال مرتجفًا، فأومأت برأسها إيجابًا وهي تقول:

- أجل، أنا ابنته يا أسعد، ابنته الوحيدة... لقد جئت إلى هنا لأفهم ماذا فعلتم بأبي؟ الرجل الذي غادر بلادنا قبل أكثر من ثلاثين عامًا من أجل جولة استكشافية إلى هنا، يمرض فجأة بسرطان في الدماغ بتلك الطريقة ويموت بعدها بأشهر قليلة، هكذا بهذه البساطة، دون أن تكون لكم أيها المشرقيين يد في موته؟

طأطأ أسعد رأسه وخرج سؤاله بصوت رصين منبعثًا من أعمق نقطة حزينة في دواخله:

- ألهذا قتلتِ سلمى؟ لأن أباكِ مات بعد سفرية عمل نحو الشرق؟ ألهذا انتقمتِ منا وحقدتِ علينا كل هذه السنين؟

- أأنت واثق من أنها كانت سفرية عمل عادية؟

قالت متسائلة فصرخ في وجهها ووجه رجالها المسلحين وهو يضرب على صدره بغضب واللعاب يتطاير من فمه:

- لقد مات أبي في الرحلة نفسها أيتها الغبية البلهاء، هل قتلت سلمى أبي أيضًا؟

طأطأت تيرا رأسها وقالت والحزن يعتصرها:

- موت سلمى كان غلطة فظيعة لم أسامح نفسي عليها، لقد وقفت في وجهي في اللحظة التي أردت فيها أخذ ما هو لي، ما هو حقي... أريد خزنة الآثار تلك، أريد أن أذهب من هنا ومعي الشيء الذي مات أبي من أجله.

الحمد لله أنها وقفت في وجهكِ وقتها، لأن الخزنة في ذلك الوقت كانت فعلًا تحتوي على الكنز الثمين.

قال أسعد في دواخله وهو يلهث ناظرًا إليها بعينين محمرَّتين، قالت تيرا وهي تنظر إلى عينيه مباشرةً:

- لا أحد يريد إصابتك بأذى يا أسعد، أعطني المفتاح فحسب ودع كل هذا ينتهي بسلام مرة واحدة وإلى الأبد.

نظر إلى أسفل وقال على مضض:

- الخزنة هنا تحت قدميَّ، ومفتاحها.

قال وهو يدخل يده في درج المكتب ويخرج منه مفتاحًا حديديًّا بمقبض حجري أنيق موصول بقلادة مصنوعة من ضفيرة جلدية سميكة:

- ومفتاحها هو هذا.

همَّت تيرا بالاقتراب منه لالتقاط المفتاح منه لكنه تراجع خطوتين إلى الوراء وقال وهو يُخرج يده التي يحمل بها المفتاح من النافذة المطلة على الطابق السفلي:

- المفتاح مصنوع بقبضة رخامية بيضاء كما ترين وإذا أفلتُّه من النافذة وسقط بالأسفل فسوف تتحطم قبضته، الخزنة مصممة لتُفتح بهذا المفتاح وهذا المفتاح فقط، وإذا تحطمت قبضته الرخامية فلا شيء في الدنيا قادر على فتح هذه الخزنة أبدًا، إذ إن أي محاولة لفتحها بغير هذا المفتاح ستجعلها تنفجر تلقائيًّا ويضيع محتواها إلى الأبد.

جمدت تيرا في مكانها وهي تطلق شتيمة من الغضب وأشارت إلى رجالها بالتوقف بعدما كانوا متوجهين نحوه، وقالت بنبرة دبلوماسية رسمية:

- سيد أسعد، أرجوك، دعنا نوقف هذا الجنون، لم يعد هناك معنى لكل هذا، لقد انتهت هذه اللعبة، أعطني ما أريد ودعني أرحل فحسب.

ردَّ عليها وهو يشعر بالآلام تنخر مفاصله:

- سأعطيك... سأعطيك... لكن ليس قبل أن تُجيبيني على أهم سؤال، كيف عرفت أن ما تسعين إليه موجود بحوزتنا؟

كان أسعد يشك في لحظاته الأخيرة أن الدولة قد خانته وخانت عهد آبائه بأن باعت سرَّ عائلة الهبَّار، قالت تيرا في تلك اللحظة مجيبة وهي تجلس على الكرسي:

- لم يكن الأمر في حاجةٍ إلى عبقرية كبيرة يا أسعد كفاك غباءً، لقد راقبت جدول أعمالك وكل لقاءاتك منذ اللحظة الأولى التي تُوفي فيها والدك، كل تحركاتكما أنت وسلمى كانت توحي بأنكما كنتما تقومان بالتحقيق في حيثيات الوفاة الغامضة لعالم الآثار ماجد بن هبَّار، ليتوقف كل ذلك الفضول والرغبة في معرفة الحقيقة فجأة عندما زارك شخص غامضٌ ذات صباح.

ابتسم أسعد براحة، وقال متهكمًا:

- يبدو أنك بحثت طويلًا عن ذلك الشخص.

تنهدت تيرا قائلة:

- الشخص الثالث؟ أجل... فوق ما تتصور، بالمناسبة، مَن كان؟

أومأ أسعد برأسه نفيًا وهو يقول بنبرةٍ مستفزة:

- لا أعرفه، ولو كنت أعرفه ما كنت لأخبرك مَن يكون.

ثم أدخل يده من النافذة ومد بالمفتاح إليها قائلًا:

- ولن تكوني في حاجة إلى معرفته الآن، فقد بلغت غايتك على أي حال...

قامت تيرا من مكانها واقتربت منه خطوتين لتلتقط المفتاح، ووضعت يدها على يده لتحمله فصافحها، ثم جذبها إليه بقوة في لحظةٍ خاطفة

وعانقها بقوة وهو يلفُّ القلادة الجلدية حول رقبتها ويخنقها بقوة، كانت تزعق محاوِلةً الإفلات منه لكنه شدَّها بكل ما تبقى في جسده من قوة خاملة أعياها المرض كل هذه السنين، وعاد إلى الوراء أكثر وهو يتذكر ضحكات سلمى وشعرها الطويل... نظراتها الفاحصة للمجلدات وإطراقتها التي تسبق استنتاجًا ما... حاول الرجال الثلاثة إفلاتها من قبضته لكنه كان يشدُّ عليها بقوة أكبر وهي تتخبط بين يديه كالروح وهي تخرج من نعجة ذُبحت للتو، وأطلقوا عليه النار فأصيب بثلاث رصاصات إحداهنَّ استقرت في كبده والأخرى في فخذه بينما الثالثة في كليته... لكنه استمرَّ في خنقها للحظة الأخيرة وسمعها وهي تشخر بين يديه... سقط أرضًا وسقطت أرضًا معه، كانت القبضة الرخامية البيضاء للمفتاح قد تلطخت بدمائه حين تقدم أحد الرجال الثلاثة والتقط المفتاح منه... بينما وقف آخر أمامه، وكان آخر ما رآه أسعد في حياته فوهة كاتم صوت المسدس موجَّهة بين عينيه...

عُقاب

كان الخمسة قد أنهوا تناول طعام العشاء قبل قليل، حيث أعدَّت عديلة وجبةً دسمة قالت إنها ستساعد الجميع على نومٍ طويل، وكان عُقاب أول المنتهين من الأكل حيث استأذن في الانصراف بعد ربع ساعة من تقديم العشاء وقال إنه شبع، تجاهلته هديل وحاولت عديلة إقناعه بتناول المزيد رفقة أمغار وقنوع لكنه كرر اعتذاره وانصرف إلى الغرفة العلوية في الطابق الثالث من البناية، ثم تبعه أمغار ليكمل قنوع طعامه بعد ذلك ويتبعهما، وبقيت عديلة مع حفيدتها، هذه تغسل الصحون وتلك تعدُّ الشاي ومشروب اللويزة للسهرة.

جلس عُقاب على الأريكة متفحصًا مجلَّة قديمة بينما جلس قبالته أمغار الحكيم متنهدًا، وقال قنوع مبتسمًا وهو يشعل غليونه:

- ليس هناك بعد الطعام الدسم شيء أجمل من حمد النعمة ثم تناول التبغ.

بادله كلٌّ من عُقاب وأمغار الابتسامة، ثم قال ابن الهبَّار متسائلًا:

- هل سبق لك أن عالجت إصابة خطِرة كهذه يا عم أمغار؟

مسح الشيخ الحكيم على لحيته وقال متنحنحًا:

- إصابتك ليست بالخطورة التي تبدو عليها، لقد انزلقت إحدى فقراتك وهذا طبيعي نتيجة للصدمة القوية التي تعرضت لها بعد الحادث المريع، عليك أن تحمد الله عز وجل يا بني، فنجاتك من ذلك الحادث أشبه بمعجزة.

نظر عُقاب إلى الأفق شارد الذهن... وقال بصوت كئيب:

- معجزة؟ أتعرف ما المعجزة يا عمَّاه؟ لقد كنت أعيش ضاحكًا وسعيدًا، أسكر وألهو وألعب وأنتصر، لكن تلك الحياة كانت كلها كذبة... كل الحقائق بدت تنساب أمامي بعد تلك الليلة، لقد سكتت الحياة لأكثر من عشرين عامًا، ثم قررت أن تخبرني بالحقيقة كلها دفعةً واحدة، بعد السباق دخلت في غيبوبة لأكثر من ثلاثة أشهر، أخبرني الأطباء أنهم كانوا يعتقدون أنني ميتٌ لا محالة، حتى إنهم في كثيرٍ من الأحيان تشاوروا على إيقاف الأجهزة الاستشفائية عني لكي أموت، كان هناك رجلٌ يزورني باستمرار، رجل واحدٌ فقط، هذا العم الإسكافي الجالس بجانبي الآن... كان السبب الوحيد في بقائي حيًّا، ولم أكن أدري إن كان عليَّ أن أشكره على ذلك أم أذمه، الناسُ الذين أحببتهم ووثقت بهم تآمروا على قتلي... نجمي، وعفاف.

قال قنوع وهو يدخن غليونه:

- لم أكن أعرف وقتها هُويتك ولم أهتم كثيرًا لأعرفها، تواصل معي السيد أمغار وأخبرني أن ثمة شابًّا يرقد في المستشفى الجامعي بقنليجيا الوسطى وأن أهتم به ففعلت، حتى شفاك الله والحمد لله، وزرتني يومًا بالمحل وأخبرتني مَن تكون، ولأكون صادقًا معك يا بني، لما رأيتك لأول مرة في المشفى حسبت أنك لن تعيش، كانت حولك خيوط وأنابيب وأجهزة طبية من كل صنفٍ ونوع، لقد كنت تقول دومًا إن حياتك بلا معنى، لكنك لست أعلم من الله العظيم... كان بالإمكان أن تموت في ذلك الحادث ليلة النهائي لكنك نجوت بأعجوبة بعد كل ما مرَّ عليك، لماذا برأيك؟ كل دقيقة تعيشها

تحمل ألف معنى إن كنت تفقه ذلك وتعيه، إن الله عز في علاه قد أبقاك حيًّا لسببٍ وحكمة يعلمها.

طأطأ عُقاب رأسه، وانتابته تلك الذكريات الأليمة حول الحادث الخطِر الذي تعرض له ليلة النهائي، لكنه تجاهل تلك الصور العابرة بين عينيه بأسرع ما يمكنه وقال متوجهًا بالسؤال إلى الشيخ الحكيم وهو يحاول اتخاذ أنسب وضعية للجلوس:

- كيف تعرفت على أبي يا عماه؟

تبادل أمغار وقنوع النظرات، ثم أجاب الشيخ مبتسمًا ببشاشة:

- هذه حكاية طويلة أخرى.

قال عُقاب مطلقًا ابتسامة عابرة:

- لكم اشتقت إلى سماع الحكايات في هذا البيت الجميل... ليلتنا طويلة يا عمُّ... وليس هنالك شيءٌ يهزم الليالي الطويلة كالحكايات... أليس هذا ما قلته لي يومًا؟

ضحك الرجال الثلاثة معًا... ثم قال أمغار:

- في الواقع يا بني... يجب أن تعرف قبل كل شيء مَن أكون قبل أن تعرف كيف تعرَّف إليَّ السيدُ والدك.

ثم نظر إلى قنوع مانحًا إياه الإذن بالكلام، فقال الإسكافي مشيرًا إلى الشيخ:

- لقد كان أمغار الحكيم رئيس جهاز المخابرات يا عُقاب.

- ماذا؟

اعتدل عُقاب في جلسته وهو يتساءل بعدما نظر بذهول إلى الحكيم الجالس قبالته... ثم عاد بالنظر إلى قنوع، وقال وهو يحول ناظريه بين قنوع وأمغار:

- لا تعني ذلك صحيح؟

ضحك الشيخ أمغار وهو يقول:

- لماذا تستغرب الأمر يا بني؟

سكت عُقاب قليلًا، وحاول استيعاب الحقيقة فلم يقدر... إلى أن كسر قنوع حاجز صمته بأن قال مبتسمًا:

- أكنت تتخيل رئيس جهاز المخابرات في هيئة أخرى؟ أممم دعني أخمن... رجل قاسي الملامح جاد لا يضحك كثيرًا ولا يتكلم كثيرًا، غامض ولا يكترث لآراء الآخرين.

شعر عُقاب بالإحراج وهو ينظر إلى أمغار على استحياء معترفًا بنظراته أن كلام الإسكافي صحيح، لكن العم أمغار تكلّم بشكل يخفف حرج الشاب:

- لا يمكنني أن ألومك على تصوراتك فما يُعرَض في الأفلام والمسلسلات يُسيطر على الأحكام المسبقة والصورة المنمَّطة في أذهان الناس، لقد كنتُ رئيسًا لجهاز المخابرات لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، ولأني كنت مهتمًّا بالتاريخ منذ شبابي وخاصةً تاريخ هذه البلاد فقد كانت تجمعني علاقة شخصية طيبة بطلبة التاريخ أيام كنت في الجامعة، وخاصةً السيد ماجد بن هبَّار، كان هذا الرجل داهية في علوم الرياضيات وملمًّا بالفنون، ولكنه كان يردد دائمًا بأنه اختار التاريخ لكي يعرف نفسه... مع مرور الوقت التحقتُ أنا بصفوف الجيش بينما استمر هو في دراسة التاريخ إلى أن تخرَّج من الكلية بشهادة دكتوراه ثم ارتقى شيئًا فشيئًا في الرتب العلمية حتى تقلد البروفيسورية... وساعتها كنت أنا قد أصبحت إطارًا ساميًا في المخابرات وأحد أبرز المرشحين لخلافة الرئيس، لماذا اختاروني؟ لأنني كنت رجل الإجماع في الجهاز،

لم تكن لي مصلحة خاصة أدافع عنها، ولماذا يجب أن تكون لي مصالح خاصة؟ ورثتُ عن أبي مزرعته الضخمة في أرقى أرياف إقليم رشد وكانت مداخيلها ممتازة أيام الثورة الزراعية الكبرى، في جهاز المخابرات هنالك تشققات وتصدعات، كل رجل يسعى إلى إثبات وجهة نظره وكل طرف يريد الزعامة لكي يحقق رغبته في حماية الوطن، وكنت أنا أغلِّب مصلحة البلاد على رغبتي الشخصية في الرئاسة، ولذلك وقع عليَّ الاختيار.

ثم التفت إلى عُقاب وقال وهو يتوجه إليه بالكلام:

- ولكي أجيب على سؤالك يا بني، فقد تواصل معي السيد والدك أسعد بن هبَّار بعد موت ماجد جدِّك رحمة الله عليهما بنحو عشر سنوات أو أكثر، وعلمت منه أن ثمة شيئًا جديدًا وخطِرًا بخصوص قضية البروفيسور ماجد، حيث إنه هو أسعد وزوجته سلمى يتلقيان تهديدات من مجهولين بخصوص اكتشافات ماجد بن هبَّار الأثرية، حيث تبيَّن أن ثمة جهةً ما تريد الاستيلاء على ما سمَّته «آخر اكتشافات البروفيسور قبل وفاته».

قال عُقاب متسائلًا:

- آخر اكتشافاته؟ هكذا بهذا اللفظ؟

- أي نعم، وقد استنتجت وقتها أن سايمون راميريز قد سرَّب معلومات حول تلك الخرجة الاستكشافية التي قام بها مع جدك رحمه الله، وأن هذه التهديدات التي تصل إلى أسعد وسلمى كانت بناءً على تلك التسريبات، فالتقارير السرية التي كانت بحوزتي وقتها أفادت بأن ماجد بن هبَّار لحظة خروجه من حجرة الدفن كان يحمل معه صندوقًا به كنز الكهرمان والجواهر السبع لكن

عالِم الآثار الأجنبي سايمون راميريز لم يكن على دراية بمحتوى الصندوق إذ لم يُفتح هذا الأخير أمامه نهائيًّا.

- إذا لم يكونوا على دراية بمحتوى الصندوق، فلماذا أصرُّوا كل هذا الإصرار على الوصول إليه؟ لماذا قتلوا أمي.

ثم طأطأ رأسه وقال بغصةٍ أكبر:

- ولماذا قتلوا أبي؟

وقف أمغار من مكانه، وجلس بجانب عُقاب... وقال وهو يمسح على رأسه:

- أمك وأبوك كانا على علمٍ بخطورة ما كانا مقبلين عليه، لقد جمع بينهما الحب... الحب الحقيقي النادر في زماننا هذا، كانت لعنة ملوك الدفن القدامى كفيلة بقتل ماجد بن هبّار في اللحظة التي تعمَّق فيها بداخل الحجرة حيث إن التقارير السرية بحوزتي تقول إنه وصل إلى غاية قبر السيدة داليدا وبحث مطولًا بين كنوزها حتى عثر على الصندوق المطلوب، بينما وقف سايمون راميريز عند مدخل الحجرة... وكان سيتوغل أكثر هو الآخر لولا حدوث هزةٍ أرضية غامضة جعلت الثلاثة يهربون فورًا من المكان، ولحسن حظِّ عائلتك أن ماجد كان قد التقط الصندوق قبل حدوث الهزة، ومات بعد ساعاتٍ من خروجه من الحجرة، ولسوء حظ عائلتك تُوفي سايمون بعدها ببضعة أشهر على ما أذكر، بضعة أشهر كانت كفيلة بأن يسرب معلومات حول ما رآه في السرداب وحجرة الدفن، فأسال لعاب الدولة العميقة في القارة الغربية والتي كانت ولا تزال تأمل في العثور على الكنز منذ قرون، وقد استغلَّ هؤلاء ابنة سايمون راميريز ورغبتها في معرفة حقيقة مرض أبيها وموته في أن أرسلوها إلى الشرق... لم تكن تيرا على علمٍ بماهية

الكنز، كل ما كانت ترغب فيه هو الحصول على الاستكشاف الأثري الذي مرض والدها ومات في سبيل الوصول إليه مهما كان، لم تكن على درايةٍ بأن هذا الاستكشاف هو الكنز الذي يتقاتل عليه الشرق والغرب منذ قرون.

قاطعه عُقاب بصوت نزق:

- كنتم تعرفون تيرا، وكنتم تعرفون نواياها في الانتقام، كنتم تعرفون أنها صديقة مقرَّبة لأمي وتحمل هوية مزيفة باسم «لطيفة حريص»، لماذا لم توقفوها؟

أطلق أمغار زفرةً طويلة من أعماقه أعقبتها عبرات وعبرات، وبدا أنه في حاجة إلى أن يتمالك نفسه لكي يستطيع قول جملته التالية:

- إنني أتحمل مسؤولية ذلك كاملة، موت أمك سلمى يا عُقاب كان سببًا في خروجي من جهاز المخابرات، حيث قدمتُ استقالتي صبيحة اليوم التالي لمقتلها، كنت أنت في ذلك الوقت مقيمًا هنا عندي في البيت، خمسون عامًا كنت قد قضيتها في الخدمة بالمراكز الحساسة للجيش والمخابرات، ورغم ذلك افتقرت إلى الشجاعة الكافية لأن أخبر صبيًّا صغيرًا أن أمه ماتت.

سعل سعالًا شديدًا فجأة، فناوله عُقاب كوب ماء تجرَّعه العجوز دفعةً واحدة، وسكت للحظات ثم أضاف:

- تيرا راميريز، منذ وصولها إلى الشرق كانت هناك شكوك كبيرة حولها، لكني لم أُعِرِ الموضوع اهتمامًا وقتها، إذ تأتي مئات الآلاف من النساء والرجال من شتى أقطار الأرض للعيش في بلاد شاور سواء من أجل الاستثمار أو من أجل الاستقرار هنا على نحوٍ دائم، لذلك لم أشك يومًا في أمر تلك المرأة، رغم أن أحد أبرز رجالي كان قد حذَّرني منها مرارًا، قال لي بالحرف الواحد ذات يوم وهو

يدخل بيتي على الرابعة صباحًا حاملًا صورتها التي أخذها من شرطة المطار: «هذه المرأة تشبهه يا سيدي، إنني لا أنسى ملامح ذلك الرجل، وهذه المرأة تشبهه تمامًا». كان وقتها يقصد سايمون راميريز، لم أصغِ إليه، تهاونت... ودفعت الثمن باهظًا... دفعته أنت بأن خسرت أمك، ودفعناه نحن أيضًا.

قبض عُقاب بقوة على الدثار الذي كان يغلف الفراش الجالس عليه، لكنه أفلته باسترخاء أخيرًا وهو يقول:

- إذن فالذين أرسلوا تيرا راميريز إلى الشرق يعرفون بأمر كنز الكهرمان؟

أشار أمغار برأسه إيجابًا وهو يقول:

- قيادات المخابرات الأجنبية أكثر خطورة مما تتصور، إنهم يرثون القضايا ويورثونها، التاريخ مقدس بالنسبة لهم، والثأر الذي لا يتم اليوم يتم بعد مئة عام لا مشكلة لهم في ذلك، إنهم لا ينسون ثاراتهم ولا يتركون ملفاتهم مفتوحة ولو بعد ألف عام، ولذلك يسعون خلف الكنز إلى اليوم بعد مرور ألفي عام على دفنه واندثاره، لطالما حاربَنا الغربُ وسعى بكل عنفوانه من أجل أن يطمس هذا التاريخ العظيم الذي نملكه، لا يزال كنز الكهرمان شوكة في حلوقهم، والحجة الدامغة بأن كل ادعاءاتهم حول الشرق بُنيت على كذبة سخيفة، عندما علمتُ بأن ماجد قد تمكن من استخراج كنز الأرملة الحسناء أمرتُ بأن تقام له مراسم دفن استثنائية لكي لا يكتشف أحدٌ حقيقة موته، حاولنا جاهدين منع أي تسريب بخصوص تلك الرحلة لكن سايمون كان قد أفلت من يدنا وعاد إلى بلاده في اليوم نفسه الذي اكتشف فيه الكنز، وهذه كانت غلطتنا القاتلة.

أطلق عُقاب تنهيدةً عميقة تنمُّ عن استسلامه للقدر، وقال مستفسرًا:

- لقد كان لي لقاء مع سائق سيارات محترف يقال له نفيس الفيل، للأسف اغتيل في الليلة التي سبقت النهائي... نفيس كان الرجل الذي رافق جدي ماجد بن هبَّار وسايمون راميريز رفقة الرجل الثالث «العم المحترم» إلى وادي المقابر في تلك الليلة التي اكتشف فيها الكنز، لقد كان العم المحترم أحد أهم رجالك، وهو الذي حمل الأمانة من جدي وأوصلها إلى أبي، وهو الذي حذَّرك من تيرا راميريز ولم تصغِ له، وهو الذي أطلعك حول كل المعلومات السرية والخاصة عن رحلة الموت تلك لاستكشاف كنز الكهرمان، فهو كان ثالث الثلاثة الذين نزلوا إلى السرداب... أليس كذلك؟

ابتسم أمغار ابتسامةً عريضة، ولم يُجِب بكلمة واحدة... بل أومأ برأسه بأن نعم... وأضاف عُقاب سؤالًا آخر:

- كيف لم يُصب العم المحترم بلعنة الملوك القدامى إذا كان قد رافق جدي وسايمون إلى السرداب؟

- اللعنة موجودة بحجرة الدفن، وحجرة الدفن لم يدخلها سوى جدك وسايمون، أما هو فقد بقي بانتظارهما في الخارج في السرداب الذي يقود إلى الحجرة.

عمَّ الصمت للحظات، قبل أن يبتسم عُقاب بمكر قائلًا:

- طيلة الأربعين يومًا التي تلت موت جدي... كان الكنز بحوزتكما أنت والعم المحترم، كنتما ببساطة تستطيعان الاستيلاء عليه، كنز يتقاتل عليه الشرق والغرب كل هذه القرون لا شكَّ وأنه ذو قيمة باهظة.

ضحك العجوز أمغار وهو يضغط مؤخرة عنق عُقاب ثم ضمَّه إلى صدره وهو يقول لقنوع:

- تخيل لو كنت كما كان يتصورني، ذلك الضابط الصارم العنيف المتعطش للدم، لأطلقت عليه النار الآن بسبب تشكيكه في نزاهتي.

انفجر الثلاثة ضاحكين...

ودخلت هديل في تلك اللحظة وهي تحمل صينية بها ثلاثة أكواب شاي وبعض المكسَّرات، وضعت الصينية على المنضدة الخشبية الصغيرة ثم حملت الكوب الأول وسلَّمته لجدها الإسكافي، وبالطريقة نفسها حملت الكوب الثاني وأعطته لجدها أمغار، وتجاهلت وجود عُقاب إذ لم تمنحه الكوب الثالث بل همَّت بالانصراف وهي تقول:

- إن لم تكونا في حاجة إليَّ فسأنزل إلى المزرعة الآن لتفقد الخيول.

أومأ لها أمغار بأن نعم.

قال عُقاب متمتمًا: «الحمد لله أنني لا أحب الشاي». لكنها تجاهلت كلماته وانصرفت...

تبادل أمغار وقنوع النظرات فقال الإسكافي مبتسمًا:

- إنهما يتقاتلان باستمرار.

قاطعه عُقاب بفظاظة:

- لستُ أقاتل أحدًا يا عمَّاه، العالم بأسره يتآمر عليَّ ليقتلني فلماذا أكون في حاجة إلى أعداء جدد يا ترى؟

ضحك أمغار وهو يقول:

- أعداء؟ لا أظن ذلك، عندما كنت صغيرًا تواصل أبوك معي عن طريق محافظ الأمن وأعلمني بوجود تهديدٍ على حياتك فاستقبلتك عندي هنا في البيت.

قال عُقاب بصوتٍ حزين للغاية:

- أعلم ذلك، لقد عشت حياتي معتقدًا أن أبي كان يُبعدني عنه وعن أمي، لكنه فعل ذلك ليحميني.

- إذن فأنت تتذكر الليالي التي كنا نسهرها معًا، أنت... وأنا... وهديل.

أومأ عُقاب برأسه إيجابًا، فقال أمغار مضيفًا:

- لقد كنتما أعداء طيلة الوقت، أتذكر؟

نظر عُقاب إليه نظرةً فاحصة وهو يقول متهكمًا:

- كما لو أنه حدث البارحة، كانت حفيدتك تكرهني.

قاطعه أمغار:

- أهذا كل ما تتذكره؟

اعتصر عُقاب ذاكرته، (أهو وعد؟ أجل وعد...) (أتعدني يا عُقاب...).

ظلَّت ذاكرته تومض بومضاتٍ خاطفة بين الفينة والأخرى، وظلَّ شارد الذهن للحظات قبل أن يقطع عليه الإسكافي صمته قائلًا:

- أتدري يا عُقاب، لو تعلم ماذا فعلت بهذه الفتاة لنزلت وقبَّلت رأسها الآن.

نظر عُقاب إلى العم قنوع، وشعر لأول لحظة بجدية خالصة في كلامه... وقبل أن يُجيبه بأي شيء تكلَّم أمغار الحكيم:

- قبل وصولك إلى هنا يا عُقاب، كانت هديل قد تعرضت لحادثة مأساوية فظيعة جعلتها تخسر والديها معًا في حادث مرور مريع، وما زاد الطين بلَّة في مأساتها هو أنها كانت تعتقد أنها السبب الرئيسي في حدوثها. شعر عُقاب بنبرة حزنٍ في صوت أمغار، الذي سكت ولم يستطع إنهاء كلامه، فقال قنوع الإسكافي وهو يضع بعض التبغ في غليونه:

- كان عمر ابني يحب زميلته في الكلية فدوى بنت أمغار.

ثم تنهَّد وهو يستطرد:

- لقد حاول التقرب منها في البداية لكنها كانت محاطة بالحراس الشخصيين ومحمية بشكلٍ يجعل الوصول إليها مستحيلًا، أخبرني عن أمرها في ذلك الوقت فقلت له إنها حتمًا بنت أحد أكابر البلاد، وأنت لست سوى ابن إسكافي بسيط... لكنه كان يرد دومًا: «إنني أعرف قدر نفسي». واجتهد عمر وأنهى دراسته في الكلية وتخرج والتحق بسلك الشرطة، وأصبح محققًا لا يشق له غبار، وفي تلك الفترة تعرَّف مجددًا على فدوى التي كانت تشق طريقها في سلك المحاماة.

ثم ضحك وهو يتذكر تلك الأيام قائلًا:

- عندما توجهنا لخطبتها قال لي عند مدخل الباب أن والد فدوى يكون رئيس المخابرات، فكدت أعود على أعقابي خوفًا ورعبًا... لكننا دخلنا فاستقبلنا السيد أمغار أحسن استقبال، وكانت صدمتي وقتها تُعادل أضعاف صدمتك قبل قليل لما علمت بأنه كان رئيسًا للمخابرات.

ضحك أمغار بدوره، وبدا على وجه الرجلين حزن من نوعٍ آخر لم يره عُقاب من قبل. «*ما أصدق الحزن في وجوه الرجال*»... أكمل أمغار الحكيم:

- رزقا بهديل، وكانت ابنتهما الوحيدة... تعلَّقنا بها جميعًا وأحببناها، كانت بركة بيتنا ونوره، لم يستطع أحدٌ منا التخلص من عشقه لها حتى إنها جعلتني أفكر بشكلٍ جاد في بيع كل أملاكي في الريف والانتقال للعيش في المدينة.

استطرد قنوع:

- كنا نحبها جميعًا، وقد زرع كل واحدٍ منا فيها شيئًا، تعلمت ركوب الخيل من جدها أمغار، والرسم والقراءة من أمها فدوى رحمها الله، والطبخ من جدتها عديلة، والسباحة مني.

تمتم عُقاب:

- لا عجب أن طبخها لذيذ إذن... لكن ماذا عن أبيها؟ ماذا تعلمت من العم عمر؟

- الحب.

قال أمغار مجيبًا على الفور كأنه توقع السؤال فأعد جوابه مسبقًا، ثم استطرد:

- لا كلمات تصف مدى الحب الذي كان يجمع عمر بابنته هديل، كانت متعلقة جدًّا به، لدرجة أنها لما تأتي لزيارتنا في أيام عطلتها تنتظر مكالمته بشكلٍ يومي وبفارغ الصبر أحيانًا، حيث كان يكلمها عادةً في الليل حين يكون قد عاد من عمله ولم تكن تنام إلا على صوته.

شعر عُقاب بأن هذه القصة الجميلة تملك نهاية حزينة قد لا يرغب في سماعها، فكلما كانت البدايات جميلة جاءت النهايات بما يشيب لهوله الطفل الرضيع.

- في إحدى زياراتها لنا.

قال أمغار، ثم توقف عن الكلام للحظات وحمل كوب الماء، وأخذ منه شربة معتبرة... وأعاد وضعه إلى مكانه من جديد وهو يقول:

- في إحدى زياراتها لنا كانت تلعب في المزرعة في الخارج، عندما رأت طائرًا كسيرًا، كان غير قادر على الطيران بسبب كسر في جناحه، إذ كان يطير قليلًا ثم يسقط، ولذلك طاردته هديل لتمسك

به... فطار بصعوبة واستقرَّ بأحد أغصان شجرة الرمان، لحقت به وصعدت على الشجرة لتمسكه لكنها سقطت منها وتعرضت لكسر في الكاحل مع فقدان جزئي للذاكرة بسبب قوة السقوط... تواصلت مع السيد قنوع عبر الهاتف وأخبرته بالأمر، حيث أخذتها إلى مشفى مدينة رشد المركزي، وعندما وصل الخبر إلى عمر وفدوى ركبا السيارة بأسرع ما يمكن للمجيء إلى هنا من أجل الاطمئنان عليها، وكان عمر عندما علم بسبب وقوع الحادث معها توجه إلى أحد باعة الطيور واشترى لها «طائرًا محاكي»، ثم قاد بسرعةٍ جنونية في الطريق السيار ما بين قنليجيا ورشد وهناك.

سكت أمغار قليلًا... ووضع عُقاب يده على عينيه حيث توقَّع النهاية، وراح أمغار يضيف:

- ...وفي أثناء الطريق تعرضا لحادث مرور مروِّع، ماتت ابنتي فدوى على الفور بينما لفظ عمر أنفاسه الأخيرة في سيارة الإسعاف في أثناء نقله إلى المشفى... لما وصل المسعفون إلى مكان الحادث كان الطائر المحاكي مسحوقًا داخل القفص المحطم، وتلك كانت نهاية هذه الأسرة السعيدة.

توقف أمغار عن الكلام، ورأى عُقاب عينيه البشوشتين تتحولان إلى حفرتين عميقتين مليئتين بالظلام والعدم... ابتسم في تلك اللحظة قنوع الإسكافي ابتسامة عابرة وهو يقول:

- (ربما لم أستطع أن أهديك طائرًا محاكي لكني أهديتك روحي)، كان هذا المكتوب أسفل ذلك التمثال العملاق للطائر المحاكي في الطريق الرئيسي بين قنليجيا ورشد، في المكان الذي تعرضت فيه سيارة عمر وفدوى للحادث، أقامت مديرية الشرطة ذلك التمثال تخليدًا لذكرى هذا الأب الرائع.

تذكر عُقاب ذلك التمثال أخيرًا... وبات يشعر بالشفقة الشديدة على هديل وهو يتذكر نظراتها الصامدة، شعر بالعار من نفسه، لقد انحرف وتعاطى المخدرات وشرب الخمور وكانت حجته بينه وبين نفسه دائمًا هي صعوبة حياته بعيدًا عن أمه، لكن هديل تربَّت يتيمة الأب والأم... ورغم ذلك عاشت حياتها في طاعة الله عز وجل بعيدًا عن صخب الانحراف وآثامه...

قال أمغار في تلك الأثناء:

- عاشت هديل في صدمةٍ شديدة بعد وفاة والديها، لم تكن تريد شيئًا في الحياة، لم تعد تحب الخيول ولا الرسم، اعتزلتنا جميعًا ولم تكن تأكل الطعام إلا بإلحاحٍ شديد مني أو من جدتها وتناقص وزنها، لم تتجاوب مع شيء، لا مع طبيب نفسي، ولا مع دواء ولا مع أي شيء آخر، لقد كانت تضيع من بين يدينا ولم يكن بيدنا حيلة على الإطلاق... كانت تسهر الليل بجانب الهاتف منتظرة اتصالًا من والدها، ثم تنام من شدة الإحباط لما يطلع الفجر ولا يتصل بها... أتذكر الأفلام الوثائقية التي يعرضون فيها مراحل نمو الأزهار وتفتحها؟ لقد كان المشهد أشبه بذلك كثيرًا لكن بشكلٍ عكسي، كنت أشاهد حفيدتي تذبل وتحترق كوردة أُلقيت في الجحيم.
- ولكنها الآن في قمة جمالها وتبدو بصحةٍ جيدة يا عم أمغار، كيف تجاوزت تلك المرحلة؟

قال عُقاب وهو يلتقط كوب الماء ليشرب فهذه الحكاية جعلته يشعر بجفاف الصحراء في حلقه...

أجابه الشيخ على سؤاله بخامته الرنانة:

- بعد الله عز وجل، كان الفضل يعود إليك أنت...

تطاير الماء من فم عُقاب وشهق وسعل بقوة، ثم شرب مرة أخرى ليتخلص من هذه الشرقة المفاجئة بينما تبادل أمغار وقنوع النظرات والضحكات.

- ماذا؟ أحم أحم... ماذا تعني بكلامك؟

- منذ أن زرتنا في تلك الفترة، بدأت طباع هديل تتغير نحو الأحسن، مشاكساتها معك وشجاراتكما المتعددة والمتنوعة كانت مثل السلام على قلبي، لقد لاحظت أنا وجدتها أنها بدأت تتغير نحو الأفضل، كانت برفقتك أكثر حيوية وإقبالًا على الحياة، عادت لتهتم بالخيول والرسم وسماع القصص... صحيح أنها كانت شديدة العناد والشجار معك لكنك جعلتها تتجاوب مع الحياة من جديد، وجودك استفزَّ رغبتها في إثبات نفسها مجددًا فتفتحت تلك الوردة الذابلة من جديد.

قال عُقاب مستنتجًا:

- لهذا كنت تتوقف عن سرد القصص لما تراها نامت، لأنها لم تعد تسهر الليل في انتظار مكالمةٍ من المرحوم أبيها كما كانت بل صارت تنام بانتظام... آخ منها كانت تنام مبكرًا فتحرمني من سماع نهاية القصة.

ابتسم أمغار للحظات، ثم قال متسائلًا:

- ما دامت تتذكر ذلك كله، كيف لا تتذكر وعدك لها عند مغادرتك؟

- أي وعد؟

- كنت وعدتها بأنك ستعود... لكنك لم تفعل، غبت سنين طويلة، انتظرتك مطولًا، ولكنها على كل حال كانت أفضل حالًا مما كانت

عليه بعد وفاة والديها، ربما لا تزال تحقد عليك قليلًا لأنك أخلفت بوعدك لها.

كان عُقاب ينظر إلى أمغار في حيرةٍ من أمره، أراد أن يسأله: «هل أنت جادٌّ في ما تقول؟»، لكنه استحى أن يقول ذلك لشيخٍ حكيم كان رئيس جهاز المخابرات ذات يوم، ولذلك لزم الصمت، وراح يفكر بعمق شديد... في أثناء هذه السنين التي كان يبدد فيها حياته، كان سببًا في إعادة أحدهم إلى الحياة وهو لا يدري، أخيرًا فهم لماذا كان يراوده ذلك الحلم الأخضر دائمًا... تلك الفتاة في الحلم كانت هديل، حتى عندما نسيها لم يستطع نسيانها.

مايوركا

كانت الشقة تفوح بروائح القمامة والقاذورات، زجاجات الكحول منتشرة في أرضيتها والمرحاض مليء بآثار البراز غير الممسوح، أوراق ووثائق مبعثرة هنا وهناك، آثار القيء والدماء منتشرة بجدران الغرفة وبقايا طعام باتت مَرتعًا للدود والبكتيريا وهي على درجة متقدمة من التعفن، تلفازٌ مشتعل يبث برامج ساقطة موضوع بجانبه مجسم على شكل درع من الزجاج السميك متوسط الحجم وُضعت عليه ثلاث عجلات ذهبية مرصعة بالألماس، وأسفلهنَّ كتب «درع الجائزة الكبرى لقنليجيا-الدورة التاسعة والسبعون»، على الأريكة المتهالكة المقابلة للتلفاز كان ممددًا في نشوته كأنه على بساط سحري بين السماء والأرض، كلما أشرف تأثير السكرة على الزوال بدأ ذلك البساط بالتآكل من تحته، ويرى نفسه على أعتاب السقوط إلى الواقع، فيبادر إلى التعاطي مرة أخرى، يمد يده إلى قارورة الخمر ويحتسي آخر ما تبقى بجوفها، ثم يرميها فترتطم بالجدار وتسقط منكسرة، ويلتقط زجاجة أخرى فيفتحها ويذهب في رحلته بين السماء والأرض مرة أخرى.

وبين المعنى والهذيان، رأى مايوركا ظلًّا لرجل متوسط القامة أنيق الثياب يحول بينه وبين الفتاة الراقصة في البرنامج التلفزيوني، رجل يرتدي طقمًا كلاسيكيًّا وربطة عنق فاقعة اللون تكاد تشعُّ ضوء كأن قماشها نُسج من أسلاك كهربائية، ظلَّ الرجل يراوح مكانه وينظر إليه ولم يتبين مايوركا ملامحه جيدًا، حاول أن يحدثه لكن السكرة منعته،

لم يستطع أن يأتي على أي حركة، لقد كان كفأر يحاول الركض داخل علبة قشدة، وسمع في لحظات حوارًا يدور بجانبه لكن الأصوات تصل إليه كأنها قادمة من شقة أخرى:

- إنه تقريبًا فاقد للوعي... مايو... مايوركا... أتسمعني؟

- لا جدوى... احمله.

أمسكت به يد قوية لرجل ملثم وسحبته إلى الحمَّام، وهناك وقف الرجل الأنيق أمام حنفية البانيو بينما حمله الآخر على ساعده ووضعه بداخله، أشعل ماء الحنفية بينما كان مايوركا مستلقيًا داخل الحوض في هذيان شديد، لا يزال يحلِّق في بساطه فوق الرياح، لكن الأرض من تحته استحالت إلى بحر، بحر عميق على امتداد البصر يسحبه إليه نحو الأسفل بسرعة، وراح البساط السحري يهوي به ويهوي، حتى وجد نفسه يقتحم المياه الباردة فانتفض في مكانه فزعًا، لا يزال رأسه ثقيلًا جدًّا لكنه بدأ يستوعب أنه بداخل حوض الحمام...

* * *

في خلال اليومين اللاحقين، نُظِّفت الشقة من طرف بعض الأشخاص الذين لم يتمكن من التعرف إليهم، وجاء حلَّاق إلى البيت فقام بتحسين قصة شعره، ومع نزع اللحية من وجهه بات أشبه بما كان عليه قبل سنتين، قال وهو ينظر إلى الرجل الأنيق الجالس قبالته بينما الحلَّاق يعدل ما بقي من شعره:

- مَن أنتم؟ وماذا تريدون مني؟

- نحن الذين ربَّينا المرأة التي قامت بتربيتك يا بني. ثم منحه مرآة كانت موضوعة بجانبه لكي ينظر إلى وجهه...

قال مايوركا وهو ينظر إليه بنظرة قرف:

- تعني أنكم الذين أرسلتموها إلى حتفها؟

وضع الرجل الأنيق ساقًا فوق الأخرى وقال وهو يستند إلى الأريكة:

- أمك خلطت بين مشاعرها الشخصية وعملها، ولذلك ماتت... حذرتها من ذلك مرارًا، وأبدت تجاوبًا مع نصائحي في كل مرة، ولكن.

ثم شبك أصابع يديه ببعضها وقال وهو يسند ذراعيه إلى ركبتيه:

- المشاعر يا مايوركا همسة خطِرة، شيطان عشوائي مختلط، عديم الرغبة ويرغب في كل شيء... وفي أشد لحظاتك أهمية يظهر هذا الشيطان، يهمس في أذنك، فيجعلك تخبط خبط عشواء وأنت في أمسِّ الحاجة إلى الهدوء والتركيز، كانت أمك شديدة التعلق بوالدها، طلبت هذه المهمة خصيصًا من أجل الانتقام له... وقد حذَّرتها يا مايوركا، حذَّرتها من سحر الشرق ومشاعره، الروح هناك أهم من المادة، وأعظم الأشياء أهمية عندهم هي تلك التي لا تستطيع لمسها أو رؤيتها بالعين المجردة، لن نستطيع هزيمة هؤلاء القوم بالمشاعر يا مايوركا، المشاعر مجال اختصاصهم، وميدانهم... أما نحنُ فاختصاصنا هو هذا.

قال الرجل وهو يشير إلى المسدس على خصره، وفي تلك اللحظة أبعد مايوركا المرآة عن وجهه وقال وهو ينظر في عينَي الرجل:

- لقد حذرتموها من المشاعر ولكنها لم تصغِ إليكم، فأحبت رجلًا شرقيًّا في النهاية وأنجبت منه...

- كلَّا، إنجابك لم يكن بذلك السوء بالنسبة لنا، أمك أحبت المشرقيين كلهم، وليس أبوك فحسب.

ضحك مايوركا متهكمًا:

- ولذلك كانت ترغب في إجهاضي؟

- أنت تعرف جيدًا أن أمك...

همَّ الرجل بالتحدث فقاطعه مايوركا:

- كل هذا لا يهم الآن، لقد أعطتكم أمي ما تريدون، بذلت روحها في سبيل ذلك، جلبت لكم خزنة آل الهبَّار وصار بين أيديكم كل ما اكتشفه ذلك البروفيسور اللعين.

طأطأ الرجل رأسه وقال متأسفًا:

- أعتقد أنك بتَّ تعرف الآن أن كل ما وجدناه في تلك الخزنة كان عبارة عن آثار مزيفة لا معنى لها.

قام مايوركا من مكانه وزجر في وجه الرجل بأعلى صوته غاضبًا:

- إذن فقد ماتت أمي من أجل لا شيء، قتلنا، وانتهكنا أعراضًا، وتآمرنا وتجسسنا من أجل لا شيء، كل شيء كان عبارة عن سراب وألاعيب، ذلك البروفيسور الدجَّال تلاعب بعقولكم.

ثم توجه نحو أريكته حيث كانت الطاولة الجانبية وقد وُضِعت عليها مذكرةٌ ما، حملها مايوركا وألقى بها في حجر الرجل الجالس قبالته وهتف:

- هذا «الكنز الذي لا يُقدر بثمن» على حدِّ تعبير صاحب هذه المذكرة غير موجود، لا في الشرق ولا في الغرب، ولا حتى في السماء على ما يبدو.

التقط الرجل الأنيقُ المذكرة، وقرأ في صفحتها الأولى جملة «مذكرات سايمون راميريز» فابتسم وقال وهو يضع المذكِّرة جانبًا بهدوء تام:

- لم تمت أمك من أجل لا شيء يا مايوركا، كما لم تنجبك من أجل لا شيء... لقد تعرضنا لخديعة كبرى، خزنة ماجد الأثرية لم تكن

تحتوي إلا على قشور، بضعة تماثيل وعملات نقدية قديمة مزورة، يستحيل أن يكون هذا هو الإرث الأثري لأهم عالم آثار في تاريخ بلاد شاور، كما أنني عرضت مذكرات جدِّك سايمون على بعض كبار علماء التاريخ في جامعة راشفورد وكان هناك شبه إجماع منهم أن هذا الاكتشاف ليس عاديًّا على الإطلاق، لم يكن أسعد ليغامر بحياته حتى يلفت انتباه تيرا وفريقها إلى خزنة تحوي قطعًا مزيَّفة ويفتديها بحياته ويحميها حتى اللحظة الأخيرة كأنها أغلى ما يملك، لقد كان يخدعنا، هذا الرجل جعل نفسه طعمًا لنا لكي يخفي شيئًا آخر أعظم بكثير، شيئًا يستحق ما وصفه سايمون به، كنزٌ لا يقدر بثمن.

بدا في كلام الرجل شيء من المنطق، وبدا مايوركا في حاجة إلى بعض الشراب حتى يهدِّئ أعصابه ويستوعبه، فتوجه إلى ثلاجته وأخرج منها زجاجة مشروب والتقط كيس مثلجات فتحه بعضَّةٍ منه، ووضع ثلاثة مكعبات في كوب واسع، ثم فتح العبوة ذات الغطاء الخشبي بالمفتاح المخصص لها وصبَّ في الكأس، وما هي إلا لحظات حتى غرقت مكعبات الثلج الثلاثة في المشروب كما يغرق الإنسان المدمن في الخطيئة، وجلس قبالة الرجل مرة أخرى وهو يقول متسائلًا:

- تقول إن أمي لم تمت من أجل لا شيء، هل لك أن تشرح لي قصدك؟

- اسمع يا مايوركا، إن مفتاح هذه القضية كله يكمُن هنا.

وأشار إلى المذكرة، فأطلق مايوركا ضحكة ساخرة وهو يقول:

- في مذكراتٍ كتبها رجل مجنون.

- لم يكن سايمون راميريز مجرد عالِم أثريات عادي، لقد كان صيَّادَ آثارٍ ماهر، ولم يكن رجل كهذا ليصف شيئًا ما بأنه «كنزٌ لا يُقدر

بثمن» إلا إذا كان فعليًّا لا يُقدر بثمن... ثم... ثم إنك ستكون غبيًّا لو تظن أننا أشعلنا كل هذه الحرب من أجل مذكرات رجل مجنون كما سميته يا بني... لقد أشار سايمون في مذكراته حول تلك الليلة إلى رجلٍ ثالث نزل معهم إلى النفق الأرضي، وعندما بحثت أمك في أرشيف المعهد حول الوثائق الرسمية لهذه الخرجة الاستكشافية وجدت أن ماجد بن هبَّار كان قد أدرج اسمه واسم جدك سايمون فقط في الرحلة... وأنه لا وجود لأي شخصٍ ثالث على الورق، ما يعني أن ماجد بن هبَّار كان قد خطط لخداع سايمون منذ البداية، وأيًّا كان ما استخرجه من تلك الحفرة في الصحراء، فقد أرسله مع الشخص الثالث هذا.

- فإذا لم يكن الاستكشاف الأثري موجودًا عند أسعد بن هبَّار الوريث الشرعي والوحيد لماجد، وإذا لم يكن بحوزة الدولة وغير موثق في سجلاتها، فبقي أن نبحث عنه عند الشخص الثالث، أهذا ما تعنيه؟

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة حتى لمعت أسنانه البيضاء في الإضاءة الخافتة للمكان، وقال وهو يشير إلى كوب الشراب في يد مايوركا:

- يبدو أن الحديث معك بوجود الخمر يختلف عن الحديث مع عدم وجوده.

ثم عدَّل جلسته وقال وقد ذابت ابتسامته وسط ملامح وجهه الجادَّة:

- قد يكون الأمر بهذا الوضوح، لكنه ليس بهذه السهولة، التشريح النهائي لجثة أسعد بن هبَّار أظهر أنه كان مسمومًا قبل ليلة وفاته، فالمرض النادر الذي كان قد أصابه في وقتٍ سابق من حياته سببه أنه تعرض لتسميم محترف.

وضع مايوركا كأس الشراب جانبًا والصدمة تستولي عليه من رأسه إلى أخمص قدميه.

- أسعد كان مسمومًا؟ مستحيل... كيف؟ مَن؟

- لا ندري على وجه التحديد، لكن المؤكد أن الذي سممه يعرف شيئًا لا نعرفه، أو أنه يسعى بدوره إلى ما نسعى إليه، ثمة طرف آخر مجهول في هذه المعادلة، والآن يا مايوركا قل لي... هل كان أسعد ليرمي نفسه في النار، وهل كان هنالك مَن يقوم بفعل خطِر كهذا وهو تسميم رجل بأهمية أسعد بن هبَّار، إن لم يكن في الموضوع أمر خطِر؟ إن لم يكن للأمر علاقة بكنزٍ لا يُقدر بثمن؟

ساد الصمت بين الرجلين، ورفع مايوركا رأسه إلى الرجل وقال بمرارة:

- ماذا تريدون مني؟

ابتسم الرجل، ثم اعتدل في جلسته وقال بهدوء:

- دورية أخيرة نحو الشرق، سأمنحك فرصة للانتقام لمقتل أمك، فرصة لرد الاعتبار بعد الذي جرى لك، ليس لدينا أمل آخر سوى أن نجد الرجل الثالث، سوف تقوم باختطاف عُقاب بن هبَّار، لن أسمح لك بقتله... أحضِره حيًّا إلى هنا... ساعتها سيظهر هذا الرجل الثالث حتمًا، وسنساومه وقتها على حياة عُقاب مقابل الكنز، كما أنك ستكون حرًّا في القضاء على نجمي... أليس هو مَن باعك تلك المعلومات حول الخزنة؟ لقد كذب عليك، وكان سببًا رئيسيًّا في مقتل أمك، إنه إما يبحث عن الكنز بدوره، وإما أنه كذب ليحمي آل الهبَّار، وفي الحالتين هو عدو لك فتخلص منه.

سكت مايوركا قليلًا، ثم تساءل:

- وبأيِّ ذريعةٍ سأعود إلى الشرق؟

ابتسم الرجل ابتسامةً عريضة في تلك الأثناء، وأخرج من جيب سترته الداخلي فيشة مطوية ووضعها على الطاولة بينهما، ابتسم مايوركا بسمةً عابرة وهو ينظر إليها... كانت الفيشة عبارة عن إعلان رسمي لموعد انطلاق سباقات التصفيات برسم جائزة قنليجيا الكبرى لسباق السيارات في دورتها الثمانين...

عُقاب

ظلَّ ينظر من حوله داخل السيارة وقد بدأ يشعر بالاختناق كأنه وُضع في تابوت وهو على قيد الحياة، لم يعد يستطيع أن يقترب من المقود، هذا الشاب الذي كان يكاد يستطيع القيادة مغمض العينين بات يخشى الاقتراب من مقود السيارة أو الجلوس في المقعد الأمامي خلفه، لا تزال الكوابيس والأحلام المُفزعة تنتابه حول تلك الليلة قبل سنتين، لا يعرف إلى هذه اللحظة كيف حدث ما حدث، لقد تجاوز المضمار الأفعواني مرَّات عديدة، صحيح أن ذلك المنعرج كان يصعب عليه تجاوزه بالكفاءة نفسها مقارنةً بالمنعرجات الأخرى لكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، شيءٌ ما حدث للدامغة في تلك اللحظة التي أراد فيها أن يخفض السرعة من أجل أن يتجنب المنحدر، ومصيبة عُقاب الكبرى كانت أنه لا يريد أن يتذكر تلك الليلة أصلًا، لا يريد أن يدقق في تفاصيلها وحيثياتها، لقد كان منتشيًا بسبب العقار الذي قدمته له عفاف، ثم ماذا بعد ذلك؟ صياح الجماهير وصوت المحرِّكات وهي تزعق في الهواء، رائحة البنزين والكثير من الدم، السرعة الجنونية التي كان يقود بها ثم لحظة الانحدار نحو الهاوية... لا أحد بقي معه في تلك اللحظة، لا عصا يمسك بها، لا أموال أبيه، ولا ثقته بنفسه، ولا أصدقاؤه نجمي وعامر، ولا حبيبته عفاف... إن الموت يجعل كل شيءٍ غبارًا في لحظات... وتذكر ذلك الحلم الأخضر مرة أخرى.

لم تكن تلك الفتاة في الحلم غير هديل الإسكافي، حفيدة العم قنوع والعم أمغار، كم كانت تعني له هذه الفتاة وهو لا يدري. «*كم خبَّأت قلوبنا من أسرار في صناديق المشاعر ولم نعثر على مفاتيحها إلا بعد فوات الأوان*». تمتم عُقاب وهو يتذكر ذلك كله، إنه جالسٌ هنا منذ نصف ساعة، في سيارة العم قنوع الإسكافي، يحاول تشغيل محرِّكها لقيادتها في جولةٍ بسيطة لكنه لا يستطيع... لا تزال الهيبة تحاصر قلبه والخوف يجلد ظهره بسياطه فلا يتركه إلا وهو يرتعد رعبًا، نزع يديه المرتجفتين من المقود، ونزل من السيارة، كان البرد في الخارج شديدًا، الساعة تُشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، الجميع كانوا نائمين، حتى الخيول في المزرعة، لم يشاركه مغامرته هذه إلا ديكٌ لعين ظل يصيح بين الفينة والأخرى حتى يكاد يسقط قلبه بين قدميه، في الآونة الأخيرة بدأ ظهر عُقاب يتماثل للشفاء بسبب البرنامج التدريبي الصارم الذي حدده أمغار إضافةً إلى بعض الأعشاب والحمام البخاري الطبيعي الذي كان يزوره مرة كل يومين، أخبره الحكيم أن الفقرة المنزلقة في ظهره تحتاج إلى بعض الوقت حتى يلين ما حولها ثم يردها بضربةٍ واحدة، وهو ما حدث حين ثبَّته العم قنوع الإسكافي، وقام شابٌّ مزارع يُدعى «خياط» بضرب المكان الذي انزلقت فيه الفقرة، فصاح عُقاب بأعلى صوته حتى صهلت الخيول في المزرعة لصيحته، ثم أمره أمغار فضربه ضربة ثانية، وهذه المرة شعر بالكهرباء تسري في كامل عموده الفقري وتضرب مؤخرة عنقه، فأغمي عليه من الألم، وظل للحظاتٍ يتهادى في أحلامه، رأى أباه وأمه يلعبان معه... رأى عامر يبكي ويقسم له إنه لم يخنه يومًا، فبكى لبكائه حتى تبللت الوسادة تحته، ثم رأى ذلك الحلم الأخضر مرة أخرى... ورأى فراشة سوداء تطير وسط بلورة عسلية محطَّمة، تضرب بجناحيها الهواء فتحدث عاصفة هوجاء تلتهم العالم بأسره... رأى حبل المشنقة متدليًا أمامه، وتذكر وصية أبيه، فقام من

منامه فزعًا كان يتفصَّد عرقًا وعيناه محمرَّتان من الدموع، وفي تلك اللحظة كان الحكيم أمغار ينظر إليه مبتسمًا وهو يقول: «الحمد لله يا بني... لقد عادت الفقرة إلى مكانها». كان ذلك منذ أسبوع تقريبًا، وقد بات يشعر بأنه أفضل حالًا بكل تأكيد، ولو أن بعض الآلام لا تزال تنخزه بين الفينة والأخرى لكن أمغار طمأنه بأنها ستزول تمامًا ما إن تستقر الفقرة في مكانها الطبيعي.

في الريف باتت حياة عُقاب أفضل بكثير، لقد أقلع عن الشرب منذ مدة طويلة، وحتى السجائر ما عاد يدخِّنها، ساعده الهواء العليل للمروج الخضراء في التخلص من الرغبة الملحة في الانتشاء بالمخدرات بين الفينة والأخرى، فأقلع عن تناول الحشيش والعقاقير المخدرة، وباتت نفسه أقرب إلى الطمأنينة والسلام، لكن ذلك الجانب المظلم لا يزال يعكِّر صفو حياته، وصية أبيه التي لم تفارق ذهنه لحظة واحدة، وذلك الكنز الغامض الذي لا أثر له حتى الآن، الكنز الذي بسببه تدمرت حياته وحياة عائلته...

كان عُقاب ينام باكرًا، تمامًا كما طلب منه أمغار، فالنوم المبكر يساعد على ارتخاء الأعصاب وهو مهم جدًّا في تسريع عملية التعافي، وكان ينهض قبل الفجر بساعتين تقريبًا، فيصلي بضع ركعات لله عز وجل في جوف الليل ويطلب منه المغفرة، ثم يفتح المصحف ويقرأ منه ما تيسر من القرآن الكريم، تلك الآيات التي كانت تُنير لياليه، وتهدِّئ باله كلما هبَّت عليه رياح الرغبة في العودة إلى طريق المعصية، ثم يخرج ليتمشى قليلًا، ويعود بعد شروق الشمس فيجد الخالة عديلة قد تركت له بعض الطعام لفطور الصباح على المنضدة فيتناوله ويعود لفراشه وينام قليلًا، لم يكن التخلص من الإدمان سهلًا، لقد دمَّرته الأعراض الانسحابية في البداية، فقضى ليالٍ برمتها وهو يرتجف، يشعر بالبرد

الشديد ولا تكفيه نار الدنيا كلها لتدفئه، أسنانه تصطكُّ والمناظر تصبح مشوشة بين عينيه، ويظل يبكي مرددًا قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَيتَنَا وَهَب لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وهكذا، بعدما أنهى عُقاب أداء صلاة الفجر اليوم، خرج كعادته لاستقبال اليوم الجديد وسط المروج الخضراء، وحاول للمرة العاشرة أن يشغل سيارة العم قنوع وقيادتها قليلًا من أجل التخلص من رهبة وخوف السياقة لكنه لم يقدر وخرج منها يجرُّ أذيال الخيبة، سار عبر الطريق الحجري بين الأعشاب نحو البيت، ودخل متثائبًا متمايلًا من الباب الخلفي للبيت حيث المطبخ. «*لا بأس سأحاول غدًا مرة أخرى*». قال لنفسه وهو يهم بدخول الباب فتجمَّد في مكانه من الذعر حين لمح ملاكًا في ثوب حريري أبيض مع شعر طويل منسدل على كتفيه، التفتت إليه وشهقت بقوة فزادته رعبًا وحضنت الفراغ لتغطي مفاتنها وهي تنظر إليه مذعورة.

- عُقاب؟ أهذا أنت؟

شعر بالحياء الشديد منها بينما كانت تنظر إليه بغضب وخوف كقطة مذعورة، ثم تنهَّدت وانصرفت من المكان في الحال، تاركة المطبخ يفوح بعبيرها الأنثوي الساحر وعطرها الذي أغرق عُقاب في ألف بحرٍ وبحر في خلال ثانيتين، اقترب من المكان الذي كانت واقفةً عنده فوجد علبة زبدة وبضع بيضات في السلة، وسمع وقع أقدامها وهي تقترب من المطبخ مرة أخرى فعاد إلى الخلف ووقف متسمرًا في مكانه، وقفت عند المدخل وأشعلت الضوء، وكانت هذه المرة ترتدي ملابس أكثر حشمة حيث ارتدت سترة طويلة وشدتها بحزام إلى منتصفها ووضعت شالًا على شعرها.

- أرعبتني... ما الذي تفعله هنا؟

- أعتذر إن كنت، أحرجتكِ أنا... كنت.

- أأنت جائع؟

تلعثم عُقاب ولم يعرف ما يقول، لكنه مدَّ يده وجلس إلى الكرسي في طاولة المطبخ مفسحًا لها المجال أن تعود إلى زبدتها وبيضاتها، وقال مترددًا:

- أجل... نوعًا ما أعني... أكنتِ ستفطرين؟

التفتت إليه ورأى حمرةً في خدها، وتذكر بشكلٍ خاطفٍ منظرها قبل لحظات وهي تحضن صدرها بيديها، تذكر بقع النمش الخفيفة على ذراعيها البيضاوين كأنها فراشات حطَّت على أعمدة رخامية، قالت والتردد واضح في صوتها:

- أجل... أنا، سوف أفطر.

ساد الصمت للحظات، كانت تقف أمام المنضدة وتُقشر شيئًا ما، طأطأ رأسه وقال وهو يشبك أصابعه ببعضها:

- طيلة الأيام الماضية كنت أخرج لتنشُّق الهواء العليل في الخارج بعد الفجر، وعندما أعود قبل الشروق بلحظات أجد الخالة عديلة قد جهَّزت لي فطور الصباح وتركته في الطاولة هنا، إن لكِ جدَّة طيِّبة القلب، أحسدكِ عليها.

دهنت هديل الخبز المحمَّص ببعض الزبدة وهي تقول:

- وما الذي جعلك تعود مبكرًا اليوم؟

- لم أفهم؟

- قلت إنك كنت تعود قبل شروق الشمس بلحظات، لكنك اليوم عدت قبل ذلك بكثير...

- آاه.

قال عُقاب ثم أطلق ضحكة خفيفة وقال مبتسمًا:

- البرد هو ما أعادني باكرًا اليوم، كل صباح أكثر برودة من الصباح الذي يسبقه، أعتقد أني سأرتدي ثيابًا مضاعفة غدًا.

وضعت كوبين على الطاولة، ثم كسرت بضع بيضات على المقلاة وتركتها لنصف دقيقة أو أكثر بقليل قبل أن تطفئ الموقد وتضع البيض على الصحن، ثم أفرغت عليه بعضًا من زيت الزيتون ووضعت الصحن على الصينية التي كانت قد وضعت عليها صحن زيتون وصحفة خشبية بها قطعة جبن وبعضًا من مربى المشمش، قام عُقاب إلى الموقد ووضع عليه بعض الأخشاب الإضافية لتزيد ناره اتقادًا، ثم جلس مرة أخرى إلى المائدة وكانت هديل قد أنهت تجهيزها، وجلست قبالته متثائبة قبل أن يباغتها عُقاب بسؤاله:

- لماذا لم تخبريني؟

- عفوًا؟

- لماذا لم تخبريني أنكِ... هديل؟ لماذا لم يخبرني العم قنوع بذلك؟

نظرت إليه بلؤم وهي تقول:

- ولماذا أخبرك إن كنت قد نسيت كل شيء؟ بعض الأشياء يجب أن تعرفها بنفسك، وتتذكرها بنفسك، وتدركها بنفسك، إنها تفقد قيمتها حين تُقال.

حكَّ عُقاب شعره وقال بسأم:

- أأفهم من كلامكِ أنكِ طلبتِ من العم قنوع ألا يخبرني عنكِ؟

صبَّت في كوبها بعض الحليب، ثم ذوَّبت قطعتين من السكر به وتجاهلت سؤاله تمامًا، وقالت وهي تحمل ملعقةً صغيرة:

- كنت في الكلية ذات يوم، عندما سمعت من بعض الفتيات أن سائق السيارات الشهير عُقاب بن هبَّار سيزور النادي الملحق بالكلية في الحفل المقام عشية ذلك اليوم، كنَّ يتكلمن عنك كأنك أسطورةٌ ما، نجم ساطع في السماء ويصعب الاقتراب منه، السائق الوسيم البارع، بسيارته الشهيرة... ما كان اسمها؟

ابتلع عُقاب مرارته في حلقه وهو يجيب بكلمة واحدة:

- الدامغة.

- أجل، الدامغة.

قالت وهي تلوِّح بالملعقة في الهواء مضيفة:

- لقد كانت الفتيات يؤلفن قصصًا عنك وعن سيارتك، سأكذب عليك إن قلت إنني لم أكن متشوقة إلى رؤيتك يومها، أعني... تلك الفتاة انتظرتك طويلًا، ظلَّت تسرد قصصًا عنك في مخيلتي، عن آخر أمراء بني الهبَّار، حفيد داليدا الأرملة الحسناء ونارمر الأمير الشجاع الذي افتدى الشرق بروحه في حرب الحواجب السوداء... لم تكن فتيات الكلية تعرف هذه المعلومة عنك، لكني كنت أعرفها... ولذلك كنت أشعر بالشفقة عليهنَّ حين أسمعهنَّ يتكلمن عن مهارتك في السياقة وكيف تفوز بالسباقات، كنت أقول في نفسي: «إن عُقاب الذي أعرفه أكبر من كل هذه الأشياء»، وصلت في تلك العشية إلى النادي، ورأيتك من بعيد، كان حولك المعجبون والمعجبات وجموع الصحفيين والمصورين، ونزلت من سيارتك برفقة فتاة صهباء ترتدي فستانًا أرجوانيًّا فاضحًا، أمسكت بخصرها والتقطت لكما بعض الصور في البساط الأحمر، ثم غادرت المكان نحو الداخل، كانت عيناك زائغتين، وابتسامتك المستفزة تلك التي جعلتني أرغب في سحقك بحوافر حصاني

في مخيلتي، لكني لم أفعل، لم ترني، لم تَرَ تلك الفتاة التي كانت تقف بين الجموع ناظرةً إليك أنت دون سواك، كانوا ينظرون إلى سيارتك، إلى ساعة يدك المرصعة بالجواهر، وثوبك الفاخر باهظ الثمن، وحدي أنا كنت أنظر إلى عينيك، لكنك لم ترَني... ساعتها، أيقنت أنني أضعتك إلى الأبد... وأن لا جدوى من انتظارك.

الفتاة الصهباء التي تتحدث عنها كانت عفاف بلا أدنى شك، لكنه لا يتذكر المناسبة بالضبط، أو بالكاد يتذكرها، وضعت هديل الملعقة داخل كوب الحليب وراحت تحركه ثم قالت بلهجة أكثر هدوءًا:

- لقد تجاوزتك يا عُقاب، سبقتك، تركتك خلفي، ولم يعد الآن لديَّ ما أُقدمه لك إلا أطيب تمنياتي لك بالشفاء العاجل والخلاص مما أنت فيه من هموم وأحزان.
- ماذا لو كنتِ أنتِ خلاصي؟

رفعت عينيها إليه على استحياء، ثم خفضتهما مرة أخرى إلى الكوب، وشربت منه بعض الحليب والملعقة لا تزال بداخله... وأعادت الكوب إلى مكانه، بينما قال عُقاب وهو يضع نصف قطعة سكر داخل فنجان قهوته:

- لم تكوني الوحيدة التي تجاوزتني يا هديل، ولم يكن مايوركا الوحيد الذي تجاوزني، الزمن كله تجاوزني، وسبقني، وتغلَّب عليَّ، أنا أعرف أنني خيبتُ أملكِ، سامحيني لأنني لم أكن ذلك الأمير أو الفارس الذي حلمتِ به منذ كنتِ صغيرة، لم أكن إلا مدمنًا مقامرًا قذرًا خسر كل شيء، وهذه هي الحقيقة المرعبة الوحيدة التي باتت تواجهني وترفض أن تسبقني هي الأخرى، لقد أضعتُ نفسي، وأضعتُ إرث عائلتي، لم أعد موجودًا، حتى ذلك الشاب القذر الذي تتكلمين عنه أضعته، وخذلته... فأصبح مجرد جثة

تسكنها أشباح الماضي وهواجسه، هواجس تجعله يرتعد خوفًا من مجرد الجلوس خلف مقود سيارة... لم تكن تلك الفقرة وحدها مَن انزلقت في ظهري، إنما حياتي كلها انزلقت نحو الهاوية.

ساد الصمت للحظات، وبدا عليها التأثر من كلامه، لكنها استجمعت أنفاسها قائلة:

- وعفاف؟

قالت بصوتها الناعم لكن بنبرةٍ حادة، فالتفت إليها عُقاب وأكملت قبل أن يقول شيئًا:

- ألم تكن تحبك حقًّا؟

طأطأ عُقاب رأسه، وقال وهو يستشعر الغليان في دمائه:

- عفاف تآمرت عليَّ لقتلي.

- ماذا؟

قالت هديل مدهوشة... فساد الصمت بينهما للحظات، ولم يقطعه إلا صوت طقطقة الخشب وهو يحترق في الموقد، قبل أن يضيف عُقاب:

- قبل لحظاتٍ من وقوع الحادث كانت سيارتي بلا فرامل، أخبرني نجمي في آخر مرة زارني فيها أنه تفحَّص أجزاء السيارة جيدًا ووجد أن علبة زيت الفرامل كانت مثقوبة، ذلك النوع من الثقوب الذي يحدث بفعل فاعل...

ثم ارتشف بعضًا من قهوته وأضاف:

- في الليلة الأخيرة قبل السباق النهائي، عفاف كانت نائمة في بيتنا.

اتسعت حدقتا هديل... لكنها لم تقل شيئًا، وأكمل عُقاب:

- عادةً أقضي ليلتي في الغرفة المجاورة للجراج في الليلة الأخيرة قبل كل سباق، حيث أحب أن أستشعر وجود سيارتي بجانبي،

ربما هو أحد الطقوس الغبية التي أقوم بها قبل السباقات... كأن أقرأ شيئًا من الشعر لحظة إعطاء إشارة الانطلاق، في تلك الليلة، تركت عفاف نائمة في الغرفة بجوار الجراج وصعدت إلى البيت، لا أدري ما الذي حدث معي، شعرت فجأة برغبة ملحة في رؤية أبي ومعانقته، ذهبتُ إليه، ودار بيننا حديث طويل، كانت ليلة لا تُنسى، وعدته بأنني سأتوب وأُقلع عن كل المعاصي بعد السباق النهائي، وكما كانت رغبتي التي حققتها، عانقت أبي عناقًا طويلًا... استشعرتُ الدفء الحميم بين أضلاعه، لم أكن أعرف أن تلك الرغبة التي انتابتني للذهاب إليه في تلك الليلة كانت نداءً خفيًّا من القدر... بأن أقوم لرؤية أبي للمرة الأخيرة وتوديعه.

وانقطع عُقاب عن الكلام، قالت هديل وهي تبتلع المرارة في حلقها:

- فاستغلت عفاف غيابك، وقامت فأحدثت ثقبًا في علبة زيت الفرامل.

أومأ عُقاب برأسه بأن نعم، بينما ابتسمت بحسرة وهي تقول:

- كانت عندك في تلك الليلة إذن.

التفت عُقاب إليها وهو يقول:

- هديل أنا.

تجاهلته، وبدا أنها لا تدري ما تقول أو تفعل، وفي تلك الأثناء وصلت الخالة عديلة إلى المطبخ، فقامت هديل من مكانها واستأذنت في الانصراف ثم خرجت إلى المزرعة بعدما ابتسمت الخالة لهما وهي تصبِّحهما بالخير، كان عُقاب ينظر إلى كوب الحليب الذي كانت تشرب منه قبل لحظات، ومد يده إليه بسرعة خاطفة وانتزع الملعقة منه، ثم وضعها بداخل فنجان قهوته، فأطلقت الملعقة خيوطًا بيضاء وسط سواد

القهوة، وارتشف من الفنجان رشفتين وهو يتذوَّق فيه نكهة حليبها، ثم أعاد الفنجان إلى مكانه بينما تسأله الخالة:

- لماذا لم تأكل شيئًا يا بني؟ لقد طلب منك أمغار أن تتناول طعامك بانتظام أليس كذلك؟

قال عُقاب وهو يمدُّ يده إلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة:

- سأفعل يا خالتي... لقد وجدت هديل في المطبخ جائعة فطلبت منها أن تعد لي فطور الصباح هذه المرة بدلًا منكِ... أخبرتها أنكِ كنتِ تتركين الفطور في المنضدة هنا لأجده كلما أعود من نزهتي الصباحية.

ابتسمت الخالة عديلة وقالت هامسة:

- لقد كانت هديل هي مَن تقوم كل صباح سرًّا لتعدَّ لك الفطور وتتركه هنا في المنضدة وليس أنا، يبدو أنك أمسكت بها متلبسة اليوم...

استحوذت الدهشة على عُقاب حين سمع كلام الجدة، ووقع بصره على المزرعة في الخارج والتي تطلُّ عليها نافذة المطبخ، اعتلت صهوة جوادها وشدَّت على لجامها وتحركت بألق وسط الباحة، كانت فرسها «داليدا» نشيطة في هذا الصباح البارد... ورأى عُقاب الخلخال الذهبي يرتعد في العقب الأيمن لساق فارستها هديل... فارتعد قلبه بين أضلعه كما لم يرتعد من قبل وهو يهوي في ذلك الوادي السحيق ذات ليلة مشؤومة، وتبيَّن له أن الحب أخطر من الموت!

نجمي

مضغت علكتها وهي تقوم بحَقْن دواءٍ ما في زجاجة السيروم المعلَّقة فوق رأس المريض الذي كان يرقد بملامح جامدة لا حياة فيها، وقد شعر نجمي بمرارة شديدة عندما أحسَّ بعدم الاكتراث في تصرفات الممرضة التي كان واضحًا أنها باتت تدرك مدى تدهور صحة المريض الذي دخل مراحل جد متقدمة من المرض وأصبح هلاكه مسألة جرَّة قلم على ورق ليس إلا، جلس قبالته على الكرسي ونظر إلى جهاز تتبع نبضات القلب الذي كان خطُّه المتكسِّر قابلًا للاستقامة في أي لحظة، عندما أنهت الممرضة عملها انصرفت خارج الغرفة تاركة نجمي مستلقيًا على الكرسي وهو ينظر إلى المريض بعينين كئيبتين، كانت الساعة الثانية والنصف زوالًا تقريبًا، في الطابق العلوي من المشفى حيث جناح العناية المركزة كان الهدوء التام يستحوذ على المكان ولا يقطعه إلا صوت الأجهزة الطبية بين الفينة والأخرى، حتى الأطباء والممرضين والممرضات لم يكونوا يتخاطبون إلا همسًا، وقد كان يستحيل أن يُسمَح لنجمي بأن يوجد في هذا المكان لولا أن إدارة المشفى كانت متيقنة من أن المريض «ميتٌ طبيًّا» على حدِّ تعبير كبير الأطباء.

قال نجمي وهو ينظر عبر النافذة مخاطبًا المريض:

- ها قد صرنا وحدنا أخيرًا، أنت وأنا... يقولون لي إنك في العالم الآخر الآن، وأن عودتك إلى الحياة مستحيلة، صبيحة اليوم سألني طبيبك السيد آدم أبو بكر إن كنت أرغب في سحب أجهزة التنفس

الصناعي منك، أتذكر طبيبك آدم؟ أتذكر كم كنت تحبه وتطمئن لكلامه؟ كم كنت تردد أنه أمهر طبيب في البلاد كلها؟ لقد كان صديقك قبل أن يكون طبيبك، صبيحة اليوم طلب مني أن نتخلى عنك، قال لي إن علينا سحب الأجهزة لندعك تموت في سلام، أعز أصدقائك قال لي هذا، فماذا عسى الآخرين يقولون؟ لم يبقَ لك غيري، ولم يبقَ لي غيرك... أنت، وأنا... وهذه الأنابيب والخيوط والأجهزة، حياتك كلها صارت مرهونة بحبرٍ على ورق، إمضاء أضعه في وثيقةٍ ما، إجراء بيروقراطي بسيط يفصل بينك وبين أن تُرسَل إلى مثواك الأخير.

تنهَّد نجمي، وقال وهو يغمض عينيه الكئيبتين:

- يؤسفني أن أخبرك وأنت على ما أنت فيه من لحظاتك الأخيرة، أننا خسرنا المعركة، كل الفظاعات والخيانات التي ارتكبناها، كل القذارات التي كنا طرفًا فيها بشكلٍ مباشِر أو غير مباشِر، اتضح في نهاية المطاف أنها كانت من أجل لا شيء، منذ أن فتحت عينيَّ على هذه الحياة، منذ أن كان لي وعيٌ وذاكرة، وأنا أسمعك تتكلم عن ذلك الكنز العظيم الذي لدى أسرة آل الهبَّار، كنت تقسم لي إنه موجود، وأنك رأيته بأم عينك... تلك الحجرة النفيسة والجواهر السبع المرفقة بها، جعلته أعظم أحلامي، قلت إن الحصول عليه سيجعلنا ملوكًا، ولن نحتاج إلى أن نشتغل مرة أخرى طيلة حياتنا، أتذكر ذلك؟ كنت تسرد لي منذ طفولتي ما الذي يمكننا أن نفعله بكنزٍ باهظ الثمن كهذا، سبع جواهر يا نجمي، حجم كل واحدة منها بقبضة يدك.

قال نجمي وهو ينظر إلى قبضة يده، ثم أضاف:

- تقرَّبتُ من عُقاب، صاحبتُه، كنتُ له نعم الصديق ووثق بي وأحبني، وأكون كذَّابًا لو أُنكر أنني أحببته، مهما أوغلت في صدري من جهته لم أستطع يومًا أن أكرهه، ولكنك جعلت حبَّ الكنز في داخلي أعظم من أي شعور آخر، أعظم حتى من رابط الدم بيننا، وقمنا بتسميم أبيه أسعد، تلك كانت خطَّتك، أن تجعل آل الهبَّار يفقدون قوتهم وثروتهم فيكون لزامًا عليهم استخراج كنزهم الذي لا يعرف أحد أين أخفوه حتى هذه اللحظة، ومرض أسعد كل تلك السنين، وكنتُ الصديق المقرب لابنه خلالها، وكنت أرى ما فعله سُمُّك فيه، كيف كان جسمه يتهالك شيئًا فشيئًا، وكيف كان ابنه يبدد ثروته في ملذاته، لكي نسرِّع إفلاس هذه العائلة جعلت عشيقتي السرِّية صديقة مقرَّبة من عُقاب، وحبيبةً له... تضحية عظيمة أخرى قدمتها في سبيل معركتك الأزلية من أجل الحصول على الكنز، كل شيء كان يسير وفق الخطة، وحتى لما ظهر ذلك الغبي ابن الرومية وأمه الشمطاء عرفنا كيف نتعامل معهم في نهاية المطاف، حيثُ منحتُه معلومات مؤكدة بخصوص خزنة ماجد بن هبَّار رغم أنني فتحت تلك الخزنة بنفسي ذات يوم ورأيت أن كلَّ ما فيها سخيف ومزيف ولا علاقة له بالجواهر والأحجار الكريمة، خدعناهم، وأبعدناهم عن طريقنا... لكننا دفعنًا ثمنًا باهظًا في خضم ذلك، لم يكن اتفاقنا أن يقتلوا أسعد، أو يحاولوا اغتيال عُقاب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين حاول مايوركا بشكلٍ واضح وصريح أن يقتلني في اللفة الأخيرة من المضمار لولا أنني أوقفت سيارتي وانسحبت من السباق لكنت في عداد الموتى أنا الآخر، لقد غدر بي، كان الاتفاق بسيطًا جدًّا، أن يسرقوا الخزنة في عملية سطو بسيطة ويغادروا البلاد، لم نكن نحسب حسابًا بأن بين أسعد وتلك الرومية الشمطاء ثأرًا

قديمًا، تبين أنها هي مَن قتلت زوجته تصوَّر... تيرا راميريز والدة مايوركا كانت هي المرأة التي قتلت الخالة سلمى عاصم، تلك المرأة البشوشة الودودة التي كانت تستقبلني في بيتها وتعدُّني ابنًا لها... لقد خنتها، خنتها وخنت ولدها... والنتيجة كانت وخيمة علينا جميعًا، لقد بعنا أنفسنا مقابل كنزك المزعوم، ماذا استفدنا في الأخير؟ لا الكنز ظهر، ولا عُقاب انتصر، ولا نحن صرنا بذلك الثراء الفاحش الذي كنت تُحدِّثني عنه طيلة حياتي... لقد كنا نلاحق سرابًا يا أبي... سرابًا صنعته بنفسك لنفسك، وها أنت الآن ترقد في غيبوبتك الأخيرة مودِّعًا هذه الحياة، تاركًا كل همومك ومآسيك وفظاعاتك وصمة عار على كاهلي وحدي.

اغرورقت عينا نجمي بالدموع، فتوقف قليلًا عن الكلام، ثم قام من مكانه واقترب من سرير المريض وتنحنح قائلًا:

- لقد يئستُ من العثور على هذا الكنز، مات أسعد بن هبَّار، وأفلس ابنه عُقاب وبات مجرد سكير مكسور الظهر بالكاد يملك نقودًا لطعام ليلته، أي رجل هذا الذي يملك كنزًا عظيمًا كالذي تتحدث عنه ويرضى لنفسه بأن يعيش حياةً كهذه؟ ما فعله مايوركا حطَّم خطتنا التي كانت تسير بوتيرة بطيئة، لكنه كشف لنا أنها كانت أساسًا بلا جدوى... ربما عليَّ أن أسافر إليه لكي أشكره على ذلك... لقد كان على قسوته، أكثر وضوحًا معي وأكثر صدقًا على الأقل حتى في عداوته.

أفلت قضيب السرير من قبضة يده، واعتدل في وقفته وتوجه نحو النافذة، لاحت له مدينة قنليجيا من أعلى وهي تغرق في ضبابٍ كئيب، الشوارع حزينة والطرقات تعجُّ بالفراغ، قال نجمي وهو يشعر أن الدنيا كلها سكتت لكي تصغي إلى كلماته:

- لم يعد لي أحدٌ على الإطلاق، عُقاب خذلته... خنته وحفرت له هاوية سحيقة كل هذه السنين، يعلم الله أني لم أكن أريد له أن يصل إلى ما وصل إليه، وخانته عفاف، عفاف التي كان يحسبها صديقة وحبيبة فلم تكن إلا جاسوسًا يلعب على الحبلين بيننا، كانت تشرف على إدمانه بنفسها، وتحرص على توغله في طريق التبذير والانحراف وكل ذلك بإيعاز مني... لكن ذلك كله كان لا يساوي شيئًا أمام ما فعله عامر، ذلك الميكانيكي الخسيس.

ونظر نجمي إلى قبضتَي يديه مرتجفًا وهو يضيف:

- بعد مرور أسبوع على ذلك النهائي، وبعد وقوع تلك الحادثة المشؤومة بسقوط الدامغة من أعلى المنحدر، نزلت بنفسي إلى الوادي، تفحصت أجزاء تلك السيارة التي كان أزيز محركها يبث الرعب في قلوب أعتى السائقين في العالم، كانت محطمة بين الصخور متفحمة وقد استحالت مقاعدها الجلدية الأنيقة إلى ركام، وكما توقعت تمامًا، كان الحادث مفتعلًا، قد يكون عُقاب أبله، قد يكون سكيرًا أو مدمنًا، لكنه سائق عبقري لعين ويستحيل أن يتعرض لحادثٍ مماثل ما لم تكن هناك يد خفية، يد غادرة طعنته في الظهر وأفشلت جميع مخططاتنا، لقد كان هنالك خلل في منظومة المكابح، عثرت على علبة الهيدروليك مثقوبة، كان زيت المكابح يتسرب من السيارة وعُقاب لا يدري، طيلة الطريق نحو مكان السباق كانت المكابح تعمل بصفة عادية لكن الزيت كان يستمر في التسرب دون أن ينتبه له أحد، ومع زيادة الضغط بسبب سرعة الانطلاق تزايدت كمية التسريب، في اللحظة التي وصلت فيها السيارة إلى المنعرج ومع محاولة عُقاب تخفيف السرعة من أجل تجاوزه كانت المكابح لا تعمل، والنهاية كانت

معروفة... مَن برأيك يتحمل مسؤولية ذلك؟ عامر الميكانيكي، ذلك الوغد الخائن، توجهت إلى بيته ودخلت غرفته، وبيديَّ هاتين خنقته حتى الموت، أنكر، وأقسم بأغلظ الأيمان على براءته، لكني لم أُفلته، قبضت عليه أكثر... وأكثر... وأكثر... حتى انزلقت روحه بين يديَّ، وشعرت بعنقه يتفتت بين قبضتيَّ كأنني كنت أقبض على كومة غبار... ماذا بعد ذلك كله؟ بعد كل هذا الدمار وهذه الخيانات والمؤامرات، والدسائس تلو الدسائس، ماذا استفدنا يا أبي؟

أخرج من جيب سترته ورقة كانت مطوية، وفتحها... ونظر فيها، ثم نظر مرة أخرى إلى المريض المستلقي على الفراش، واقترب من السرير وكبس على الزر الذي بجانبه لاستدعاء الطبيب، وقال وهو يغمض عينيه بحسرة:

- لقد عشت نصف عمري أحلم بالكنوز والثراء الفاحش، ويبدو أنني سأقضي النصف الآخر في الانتقام، حتى الكلاب تأنف من عيشةٍ كهذه.

في يد نجمي كانت ورقة الإعلان عن موعد انطلاق نهائيات سباق قنليجيا في دورته الثمانين، اعتدل نجمي في وقفته وهو يقول:

- بالأمس كان عُقاب وحده مَن دفع الثمن، وذنبه الوحيد أن أباه كان أثرى من أبي، لقد قتلتُ عامر الميكانيكي، والدور قادم على ذلك المتحذلق ابن الرومية، لا نجوت إن نجا مني هذه المرة...

دخل الطبيب، فنظر إليه نجمي بعينين محمرَّتين من الدموع... ثم طبع قبلةً على رأس أبيه وهو يقول:

- عليَّ أن أتقبل الحقيقة يا دكتور، أبي لم يعد بيننا... بإمكانكم سحب الأجهزة الطِّبية عنه.

مسح الطبيب على كتف نجمي مواسيًا، ثم التفت إلى الممرضة التي كانت تقف عند الباب:

- أخبري إدارة المشفى أن تبدأ الإجراءات اللازمة لنقل السيد عاكف ابن الضبعة من مرحلة الموت الإكلينيكي إلى الموت البيولوجي وذلك بإيعازٍ من ابنه الوحيد وورثيه.

ثم التفت إلى نجمي وقال متأسفًا:

- عظَّم الله أجرك يا بني.

وقف نجمي، وقبض على الورقة التي بيده بقوة، ثم غادر المكان متمتمًا:

- فليعظم أجر مايوركا أيضًا في الذي سيناله مني.

عُقاب

كان الحليب يُصدر نقيرًا عندما ينسكب على الدلو بينما كان العجوز أمغار مندسًّا تحت البقرة ليحلبها، وقف عُقاب أمامه على استحياء وهو يقول:

- أخبرتني الخالة عديلة أنك طلبتني يا حكيم.

تجاهل أمغار كلامه، وبدا لعُقاب أنه لم يسمعه، فكرر:

- حكيم؟

- أخبرني السيد قنوع عن فحوى وصيَّة أبيك يا بني.

قال أمغار وهو يستمر في عمله، وشعر عُقاب بانقباض في أعصاب بطنه فانهار جالسًا على قالبٍ من التبن وقال متمتمًا:

- تلك الكلمات لا تفارق ذاكرتي يا عماه، لربما كان أبي قد يئس مني ليترك لي وصية بذلك الشكل، قد كنت ابنًا عاقًّا حيث قصَّرت كثيرًا في حقِّه ولم أعرف كيف أرد فضله عليَّ.

- لو كان العقوق يقاس بردِّ الفضل إلى الوالدين، فلا أحد منا بارٌّ بأبويه، ديون الآباء والأجداد يستحيل سدادها يا عُقاب، كل جيل في هذه الأمة يُفني حياته في سبيل الجيل الذي يليه، فكيف تريد لنا أن نفي أسلافنا فضلهم علينا ونحن نعيش حياتنا كلها في سبيل تحقيق حياةٍ أفضل لأولادنا؟

ثم رفع رأسه ملتفتًا إلى عُقاب وأضاف:

- إذا كنت تريد أن تُنفذ وصية أبيك فلك ذلك، لكن ليس الآن، عليك أولًا أن تقوم بواجبك تجاه عائلتك... أنت آخر ما تبقى من آل الهبَّار ووريث أهم سلالة في تاريخ هذه البلاد، سنكون أضحوكة بين الأمم إذا مات آخر أبناء بني الهبَّار منتحرًا، ثم إن الكنز في عهدتك وحمايتك، ويجب أن تفعل كل شيءٍ من أجل الحفاظ عليه،

- أي كنز يا عماه؟ كيف أحافظ على شيء وهو ليس عندي أصلًا؟

قاطعه عُقاب بسأم، وأطلقت البقرة خوارًا عظيمًا حيث بدا أن أمغار قد أشعرها بالألم، وكادت أن تفرَّ هاربة لولا أنه مسح عليها مهدِّئًا، ثم قال وهو يلتفت إلى عُقاب بنظراتٍ جادة:

- أخبرني يا عُقاب، أتذكر شكل تيرا راميريز؟

سكت عُقاب قليلًا واعتصر ذاكرته، ثم قال محاولًا ترتيب أفكاره في كلمات:

- ليس كثيرًا، أتذكر أن امرأةً كانت تزور بيتنا بين الفينة والأخرى، كان شعرها قصيرًا أشقر وكانت ملامحها غريبة بعض الشيء، كانت تجلب لي قصصًا مصورة وهدايا، وفي بعض المرات كانت تأتي مع ابنٍ لها على ما أظن، لطيفة حريص... هذه هي؟

ابتسم أمغار بمكرٍ وقال وهو يعود إلى عمله:

- ماذا تعرف عن ذلك الولد؟

- ابنها؟

- أجل...

مرة أخرى سكت عُقاب، وتذكر بعض الشجارات اليدوية بينه وبين ذلك الطفل، كان أكبر سنًّا منه بقليل، أدمى شفته مرة بصفعةٍ قوية

لكنهما كانا صغيرين، كان ذلك كل ما يتذكَّره عُقاب... وقبل أن ينطق بأي كلمة أخرى فجَّر الحكيم على مسمعيه قنبلةً من العيار الثقيل:

- ذلك الولد الصغير الذي كانت تأتي به إلى بيتكم، هو مايوركا خصمك في سباق قنليجيا الأخير.

اهتزَّ كيان عُقاب بعنف ومادت الأرض تحت رجليه، لم يقوَ على قول شيء من هو الصدمة وظلَّ يحدِّق إلى الثياب البيضاء للحكيم أمغار وهو يندس تحت البقرة:

- لماذا ينادونه ابن الرومية يا عامر؟

- لأن أمه أجنبية على ضوء ما سمعت، بينما أبوه مشرقي.

«أيعقل أنني كنت أعمى إلى هذا الحد؟ الرومية... الأجنبية... شكل عينيه... وشعره الأشقر، يا إلهي هذا صحيح، مايوركا هو ابن تيرا راميريز، كيف لم أنتبه إلى ذلك؟! كيف فاتني ذلك كيف؟!».

- لكي ترى يا بني، أن لا مصادفة في كل ما حدث معك من قبل، لقد كان مايوركا يستهدف الوصول لما كانت تريد أمه الوصول إليه، في اللحظة التي كنت تسابقه فيها في المضمار كانت أمه وفريقها يداهمون بيتكم لسرقة خزنة جدك للآثار، في تلك الليلة التي مات فيها أبوك رحمة الله عليه... كان مخططًا أن تموت أنت الآخر، لكنك نجوت بأعجوبة، كانوا يعتقدون أنهم بسرقتهم الخزنة سوف تنتهي هذه الحرب الاستخباراتية.

اغرورقت عينا عُقاب بالدموع وهو يتذكر مآسيه القديمة كلها، وقال وهو يحبس شهقته داخل صدره:

- وقد نجحوا في ذلك، قتلوا أمي... وقتلوا أبي... وأخذوا الخزنة.

- لكنهم لم يأخذوا الكنز!

جاء صوت الحكيم من تحت البقرة كشمسٍ أشرقت بين تلال الظلام، ورفع عُقاب ناظريه نحوه مصعوقًا... فأكمل أمغار قائلًا:

- عندما حاولت لطيفة أو تيرا في الماضي سرقة الخزنة كانت تحتوي فعلًا على الكنز، وساعتها لولا أن أمك تدخلت ومنعتها لكان الكنز بحوزتهم الآن، لقد افتدت سلمى ذلك الكنز بروحها فغادرت لطيفة القصر دون الحصول على مرادها، حيث طعنت سلمى وفرَّت هاربة قبل وصول رجال الشرطة إلى المكان، ومنذ ذلك اليوم قرر أبوك أسعد تغيير مكان الكنز.

مسح عُقاب الدموع عن عينيه وقال والذهول يتملَّكه تمامًا:

- أتعني... أن الكنز لم يكن في الخزنة لحظة سرقتها قبل سنتين؟

أومأ الحكيم برأسه إيجابًا، ثم قال:

- لكن لا أحد يعرف على وجه التحديد أين هو الآن، لقد رحل أبوك آخذًا السر معه... لكني لم أطلبك إلى هنا لأجل هذا، إنما ثمة خبرٌ أعتقد أنك ستحب الاطلاع عليه.

ثم اعتدل في جلسته ليرتاح قليلًا وهو يقول متنهدًا:

- مايوركا عائدٌ بشكلٍ رسمي إلى البلاد، سوف يشارك في الدورة الثمانين من سباق قنليجيا، وهو لم يأتِ إلى هنا لكي يفوز بجائزة قد فاز بها من قبل، إنه قادم من أجل الغاية التي تعرفها جيدًا، سوف يبحث عنك، وعن الرجل الثالث، وعن أي طريقةٍ توصله إلى غرضه.

- جيد، فلتقم الدولة باعتقاله إذن.

- بأي تهمة يتم اعتقاله؟ ليس لدى الدولة أي دليل ضده، كل الأفعال الفظيعة التي قام بها تندرج في إطار المنافسة الشرسة في أثناء

سباق قنليجيا وأنت تعرف أفضل مني أن كل شيء مباح داخل مضمار السباق بما في ذلك القتال حتى الموت، هو والذين أرسلوه يعرفون جيدًا أن وجوده هنا في هذه البلاد بصفته متسابقًا ضمن فعاليات جائزة قنليجيا الكبرى سيمنحه حصانة وحماية خاصتين، إن أي اقتراب منه بصفة رسمية سيسبب أزمة دبلوماسية بين البلدين، ولو اقتربنا منه بصفة غير رسمية فستنشب حرب استخباراتية بين البلدين أيضًا، وفي كل الأحوال وجوده هنا ليس من أجل الكنز فحسب، مايوركا طُعم يا عُقاب، طُعم ألقوا به إلينا، فإذا ابتلعنا الطعم سيكتشفون أن الكنز بحوزتنا، وهو ما يريدون التحقق منه خاصةً وأن دولة شاور لا تعترف بوجود أي كنز كهذا على الصعيد الرسمي... أتفهمني يا عُقاب؟ ليست هنالك طريقة أخرى لمواجهة هذا الكلب المسعور إلا أن تضربه بسلاحه.

شعر عُقاب بحرارة الحمى تتصاعد نحو دماغه من شدة الغضب، لكنه تماسك أعصابه وقال بهدوءٍ مصطنع:

- ما الذي تريده مني؟

- أن تسابق مرة أخرى، نحن مضطرون إلى الضرب تحت الحزام، يجب أن نؤدِّب هذا الفتى ومَن معه لكن بغطاء وصيغة تنافسية، كسباق قنليجيا للسيارات مثلًا.

قال عُقاب وهو يومئ برأسه نفيًا:

- إذا وُجِدتُ في المضمار مع مايوركا مرة أخرى فلن يكون هناك أي تأديب يا عماه، سيكون إما هو وإما أنا... الموت سيُغيِّب أحدنا قبل خط النهاية.

سكت العجوز قليلًا، ثم قال بصوتٍ رصين:

- أنت الوحيد القادر على إيقافه يا بني... فافعل ما يجب عليك فعله!

ساد الصمت بينهما للحظات، قبل أن يقول عُقاب متنهدًا:

- لو كان الكنز... لو كان الكنز بحوزتي لهان الأمر كله.

ردَّ عليه العجوز مبتسمًا:

- انظر إلى هذه النقطة من الجانب المشرق، إن كنا نحنُ لا نعرف أين خبَّأ أبوك الكنز، فيستحيل أن يعرف أعداؤنا ذلك أيضًا... سيمنحنا ذلك أفضليةً في المناورة، لكنهم سيستهدفونك، وسيستهدفون الناس الذين تحبهم، فهم بطبيعة الحال لن يصدقوا أنك لا تعرف شيئًا عن مكان وجود الكنز حاليًّا وإن كانت هذه هي الحقيقة، لذلك أخبرتك أننا لا نملك خيارًا آخر سوى المواجهة، لقد هرب جدك، وأبوك هرب أيضًا... طيلة حياتنا كنا نهرب يا بني فلم نجنِ من الهرب إلا مزيدًا من الإرهاق والتعب، آن الأوان لأن نكفَّ عن الهرب، ونخرج لهذا الوحش بكامل قوتنا.

طأطأ عُقاب رأسه مرة أخرى، وفي حزنٍ شديد قال:

- لقد حمَّلتني هذه العائلة أمانة ثقيلة يا عمَّاه، وأخشى أنني لا أستطيع أن أصون شيئًا لا أملكه، بشيءٍ لا أملكه... منذ تعرُّضي لذلك الحادث الخطِر في المضمار الأفعواني لم أقد سيارة، لا أملك من الشجاعة ما يكفيني لأفعل... الشياطين والأشباح تطاردانني كلما وضعت يدي على مقود، أتذكر تلك السقطة الحرة من أعلى نحو القاع... ذلك الانحدار المميت، الزجاج المتحطم والصخور وهي تضربني من كل جانب.

ارتعش جسده وهو يقول ذلك فسكت قليلًا... وسكت أمغار أيضًا إذ ترك الفتى يُخرج ما في جعبته من أهوال، وأردف عُقاب:

- ثمة مشكلة أخرى، لا أملك سيارةً أهزمه بها... لدى مايوركا سيارة جبَّارة بمحرك فريد من نوعه عالميًّا، والسيارة الوحيدة التي كانت تستطيع الوقوف في وجه صقر الجديان هي الدامغة.

قاطعه أمغار بجملةٍ جعلته يشعر أن الدماء تسري في عروقه لأول مرة منذ زمنٍ بعيد:

- نستطيع إعادة بنائها، هذه ليست مشكلة.
- نعيد بناء ماذا؟ الدامغة؟ مستحيل... لقد كان هناك ميكانيكي واحد في هذه الحياة يستطيع إصلاحها وهو عامر.

ثم قال متنهدًا وقد بعثت فيه ذكرى صديقه الميكانيكي الكثير من الحزن:

- وعامر عُثر عليه مقتولًا في شقته قبل أشهر طويلة.

تقدم أمغار وهو يحمل الدلو، ثم التفت إلى عُقاب قائلًا:

- أعرف رجلًا يستطيع أن يصنع من الدامغة أعجوبة مرة أخرى، بعد يومين سيسافر عمُّك قنوع إلى قنليجيا مرة أخرى ليباشر بعض الإجراءات السرية هناك، ستُستَخرَج الدامغة من ذلك الوادي، وسنجلبها إلى هنا... وهنا ستُصلح.

ثم قال وهو يتوجه إلى بيته بدلو الحليب:

- السيارة مجرد جلد وحديد ومطاط وأسلاك كهربائية يا عُقاب، يمكن إصلاح الحديد ويمكن إصلاح المطاط، الروح هي التي يصعبُ إصلاحها... ونحن في أمس الحاجة إلى روحك يا بني.

وقف عُقاب ينظر إلى أمغار وهو يبتعد ذاهبًا، ولم ينتبه إلى تلك التنورة البنفسجية التي كانت صاحبتها فتاةٌ حسناء تقف خلف باب المزرعة وقد سمعت الحوار الكامل الذي دار بين أمغار وعُقاب قبل لحظات... تلك الفتاة كانت هديل.

قنوع الإسكافي

وضعت هديل الشاي على الطاولة بعد طعام العشاء، ثم نظرت إليهما وقالت بتهذيب متكلف ونبرة واجمة:

- أتريدان شيئًا آخر؟

تبادل الجدَّان النظرات، ثم تنحنح أمغار قائلًا:

- أجل يا بنيتي، أشعر ببعض الحموضة في معدتي فهلَّا جلبتِ لي قليلًا من الحليب؟

أشارت بعينيها بأن نعم وانصرفت دون أن تقول كلمةً واحدة، همس قنوع لأمغار متسائلًا:

- ما قصة حفيدتك أيها الحكيم؟ تبدو غاضبة.

سعل أمغار سعلتين خفيفتين وتبسَّم قائلًا:

- أخبرتني عديلة أنها سمعت الحوار الذي دار بيني وبين عُقاب البارحة بخصوص مشاركته في سباق قنليجيا، هديل تعتبر ذلك «غباء ومغامرة واستهتار مراهقين» على حدٍّ تعبيرها ولكن الموضوع على ما يبدو أكبر من ذلك.

- ماذا تعني بأكبر من ذلك أيها العجوز؟

قال الإسكافي مبتسمًا بخبث، فردَّ أمغار عليه هامسًا:

- بيني وبينك؟ أنا وجدَّتها نعتقد أنها خائفةٌ عليه.

- إيه يا أمغار... أظن أنها علامات ذلك الذي يقولون له الحب.

وضحك العجوزان بصوتٍ مرتفع وقد دخلت عليهما هديل في تلك اللحظة حاملة جرَّة من الحليب الطازج، ثم همت بالاستئذان في الانصراف حين قطع الإسكافي استئذانها مبتسمًا:

- تعالي يا بنيتي... تعالي اجلسي معنا، ألا نستحق أنا وهذا العجوز الخرِف أن تسامرنا فتاة جميلة مثلك؟

توجهت هديل إلى المكان الشاغر في الكنبة بينهما، وجلست هناك ثم مدَّت يدها وصبَّت لكلٍّ منهما كوبًا من الشاي، قال أمغار في تلك اللحظة وقد غمز الإسكافي:

- إذن يا سيد قنوع، أكنت تقول لي إن منافسات جائزة قنليجيا الكبرى قد أُلغيت هذا العام بسبب الحالة السيئة لمضامير السباق؟

- أجل يا حكيم، هذا ما سمعته في الراديو صباح اليوم.

ردَّ الإسكافي وهو يكتم ابتسامته. قالت هديل وهي تضع الكوب بجانب الإسكافي:

- لماذا يتصرف الرجال بطيشٍ هكذا يا جدي؟ يقولون إن النساء ناقصات عقل لكني لا أرى مَن هو أكثر نقصانًا في العقل من بعض الرجال، حروبٌ ونزاعات، سباقات مميتة ومعارك طاحنة، لماذا الرجال توَّاقون إلى الدم والحرب هكذا؟

قال أمغار وقد لطَّخ اللبن شاربه بعدما أخذ منه شربةً عميقة:

- هذا هو طبع الإنسان يا بنيَّتي، وهذه هي سنَّة الحياة، السعي نحو امتلاك القوة من أجل النفوذ والسيطرة كان دَيدن الإنسان منذ فجر التاريخ، لم يكن الإنسان ليعيش كالملائكة، وهو الذي وصفه الله عز وجل في كتابه الكريم بأنه «يطغى»، وبأنه «أكثر شيءٍ جدلًا».

- أليس من الخطورة عليه خوض سباقاتٍ كهذه؟

قالت هديل مندفعة، ثم استدركت ذلك بتردد: «أقصد الإنسان طبعًا، أمم... وليس عُقاب».

تبادل أمغار وقنوع النظرات، ثم قال الإسكافي وهو يمسح على شعر حفيدته:

- ما زلتِ صغيرة على فهم مطامح الرجال يا ابنتي، الطموح... الطموح هو ذلك الدافع الذي أرسل بنا إلى الحروب والمعارك، وفتح جبهات القتال، إلى تشييد المصانع وبناء الأبراج وطرق الحديد على الحديد من أجل السكك وبناء السفن وموانئها، ما الذي دفع الملك ريتشارد إلى التفكير في غزو مملكة الشرق يا ترى؟

بادرت هديل بالإجابة على الفور:

- الطمع والجشع طبعًا.

- بالنسبة لنا هو طمعٌ وجشع، بالنسبة لهم هو طموح... لقد قطعنا الأشجار في قنليجيا ودمرنا أعشاش الطيور من أجل تشييد المدن، وأحرقنا وقتلنا وأهلكنا أنواعًا كاملة من الحيوان والنبات من أجل بناء مزيدٍ من المدن، ماذا نسمي ذلك؟ طموح، ما الذي قد تسميه الأشجار والطيور لو أمكنها النطق؟ أليست كائنات حيَّة؟ ألم يبعث الروح فيها ذلك الذي بعث الروح فينا؟ أم يحق لنا أن نُدمر هذه الطبيعة فقط لأنها لا تقوى على النطق والدفاع عن نفسها بالمنطق والكلام؟ هذا ما يريدونه بالضبط معنا يا هديل، يريدون أن يحتلوا أرضنا، ويسرقوا ماضينا وحاضرنا، ويقرروا مصيرنا ومستقبلنا، ويطمسوا حقيقة وجودنا وتاريخنا العريق دون أن يسمحوا لنا بالكلام حتى، أو تعلمين يا حفيدتي الجميلة؟

سحقًا للكلام إذن... لا يفل الحديد إلا الحديد، وما جرى عليه الدم في الصوارم لكي يأخذوه لن يعود إلا إذا جرت دمًا عليه الصوارم.

ارتشف قنوع بعضًا من الشاي، كانت حفيدته تنظر إليه بحدقتيها الواسعتين وعينيها السوداوين، ثم قال أمغار متنحنحًا في تلك اللحظة:

- لقد خسرنا الجولات السابقة من هذه الحرب، وكانت خسائرنا فظيعة، وسنستمر في خسارة المزيد إذا استمرينا برؤية الأمور من هذه الزاوية الوردية الناعمة، جدُّكِ قنوع على حقٍّ يا ابنتي... ما أُخِذَ بالقوة لا يُسترد بالتفاوض، وما جرى عليه الدم عندما ضاع لا يعود إلا بالدماء الزاكيات الطاهرات.

ارتمت هديل في حضن جدِّها، فابتسم أمغار لذلك المنظر، دسَّت وجهها بين ثيابه ولم تفعل شيئًا آخر غير ذلك... قال أمغار وهو يمسح على ظهرها:

- لقد جرَّنا العدو بحمقه إلى مضمار السباق، سيرسلون مايوركا مرةً أخرى من أجل استكمال البحث الذي بدأته أمه، وإذا أصابه أي مكروه من قبلنا فسيخرجون إلى نخبهم الأمنية والاستخباراتية معلنين أننا قتلناه من أجل حماية الكنز ويكون ذلك تأكيدًا دامغًا بأن الكنز الذي تنكر دولتنا وجوده بشكلٍ رسمي موجود، وسيزهقون مزيدًا من الأرواح في سبيل البحث عنه، لكن لو ينهزم مايوركا في المضمار ويموت في أثناء السباق... فلن يُشكك في مقتله أحد، وسيخرصون إلى الأبد... هل فهمت لماذا نريد لعُقاب أن ينافسه؟ إنه أملنا الوحيد، مايوركا سائق بارع وحامل لقب جائزة قنليجيا الكبرى، إنه أعظم سائق في العالم حاليًّا ولا مجال لمقارعته هو أو سيَّارته، ليس لدينا إلا سائق واحد ليؤدي هذه

المهمة، وللمصادفة القتَّالة فإن هذا السائق الوحيد هو آخر فرد في العائلة التي نريد جميعًا حمايتها من الزوال.

سعل أمغار قليلًا وبدا على وجهه وجوم وجفاف، وتوجَّه إليه الإسكافي بالكلام في تلك اللحظة:

- لقد بذلت جهدك يا سيد أمغار، وفعلت ما هو أكثر من وسعك بأضعاف، لم يكن سهلًا خوض حربٍ تمتدُّ تراكماتها لآلاف السنين، ومعرفة قيمة التاريخ والتراث لا يدركها إلا قلة قليلة من الرجال، ستظل هذه البلاد مدينةً لك إلى الأبد.

ضمَّ أمغار حفيدته لصدره بقوة وهو يقول:

- ما فعلنا إلا ما هو واجبنا.

رفعت هديل رأسها، وأشرقت ابتسامتها الفاتنة من تحت لحية الحكيم وهي تقول:

- لقد حكيت لنا ذات يوم قصةً تُدعى «العطر والنار»، إذا كانت كل قصصك مستوحاة من التاريخ ووقائعها حقيقية، فهل العطر والنار كانت حقيقية أيضًا؟

ابتسم قنوع... بينما كان أمغار ينظر إليها مدهوشًا، قال الإسكافي مفسِّرًا وهو يطلق ضحكة خفيفة:

- حفيدتك تغيِّر الموضوع لأنها تريد أن تقول لك بشكلٍ غير مباشِر إنها فهمت أخيرًا كل ما أردت قوله لها... هكذا كان أبوها رحمة الله عليه.

ابتسم أمغار بدوره وهو يرد عليها:

- هذا سؤالٌ تعرفين جوابه يا حلوة.

وضعت هديل رأسها على صدره مرة أخرى وأغمضت عينيها مبتسمة وبدا أنها تشعر بالأمان... وقال قنوع متسائلًا في تلك اللحظة:

- الرجل الذي نزل إلى السرداب لمرافقة البروفيسور ماجد بن هبَّار في رحلته الأخيرة هو الرجل اللغز والذي يعرف بلقب العم المحترم، أين هو الآن؟ وهل أنت على تواصل معه؟

سعل أمغار وهو يومئ برأسه بقوة قائلًا:

- أجل... إنه هو...

ثم انقطع عن الكلام وسعل أكثر وجحظت عيناه وانتفضت هديل في حضنه وهي تصيح بأعلى صوتها:

- قلبه... قلبه توقف... جدي... جدي نبض قلبه سمعته يتناقص!

وقفز قنوع من مكانه مرعوبًا وهو يقترب منه، كان القيء قد بدأ يخرج من فمه وعيناه جاحظتان... ودخلت عديلة في تلك اللحظة مسرعة إلى الغرفة وهي تفحص نبضه ثم قالت بصوتٍ مرتعد:

- إنها الأزمة القلبية عاودته مرة أخرى... يجب أن نأخذه إلى المشفى.

حمله قنوع بمساعدة هديل، كان يرتعش بقوة وشعر الإسكافي أن وزن أمغار قد أصبح أثقل مع كل خطوة يخطوها نحو الأمام.

- إنه يفقد الوعي أسرعي!

نزل الثلاثة إلى الطابق السفلي، وخرجوا من الباب الرئيسي للبناية مسرعين نحو سيارة الإسكافي، كانت هديل تحاول التماسك لكن الدموع غلبتها وهي ترى جدها يلفظ روحه أمامها... وصاحت عديلة في تلك اللحظة:

- إلى المشفى بأقصى سرعة... بأقصى سرعة يا سيد قنوع أرجوك.

ووصل عُقاب الذي كان يتمشى في مكانٍ قريب بعد وجبة العشاء، وشعر بالذهول لما رآه غير مستوعب أن الهدوء الذي ترك عليه البيت للحظات قد استحال إلى مصيبةٍ صاخبة.

- عُقاب، ساعدني على وضعه في السيارة... الحكيم يموت يا عُقاب... سنأخذه إلى المشفى.

ارتعدت فرائصه وهو يفتح الباب غير قادر على النظر إلى وجه أمغار الذي تلطخت لحيته بالقيء الدامي... وركبت عديلة بجواره وهم الإسكافي بإغلاق الباب حين أمسكه عُقاب وهو يقول:

- سوف أقود أنا.

صعد الإسكافي بجانب أمغار وعديلة، وصعدت هديل في المقعد الأمامي باكية وركب عُقاب في المقعد الأمامي خلف المقود، عدَّل مرآة النظر وسحب عصا السرعة نحو الخلف ودارت العجلات إلى الوراء ثم أدار المقود في أجزاء من الثانية فلم يفهم قنوع كيف استدارت السيارة في لحظتين، ودعس على دواسة التسارع وأعطاها المستوى الأول من محوِّل السرعة وانطلقت السيارة مطلقة أزيزًا لم يسمعها الإسكافي تصدره من قبل، ثم أعطاها المستوى الثاني وقد وصلت إلى السرعة الستين في لحظاتٍ معدودة... وصلوا إلى المنعرج الرئيسي للخروج من الطريق الفرعي للمزرعة نحو الطريق العام فاستدار بسلاسة وسرعة رهيبة وأعطى السيارة المستوى الثالث فنسيت هديل بكاءها وهي تنظر إلى لوحة السرعة غير مصدقة أنهم قد تجاوزوا حاجز المئة وعشرين كيلومترًا في الساعة وهتف عُقاب بالجميع: «تماسكوا»، ثم منحها المستوى الرابع ودعس على دواسة التسارع أكثر فلم يصدق قنوع أن سيارته تسير بهذه السرعة، مئة وستين كيلومترًا في الساعة وتجاوز شاحنة كانت تسير بسرعة متوسطة ثم انحرف يسارًا متفاديًا الارتطام

ببقرة كانت تقطع الطريق وقد شهقت هديل رعبًا معتقدةً أنها النهاية... وضع يده على يدها التي كانت قريبة من محول السرعة بينما يمسك المقود بيده الأخرى، فنظرت إليه مدهوشة وقال في تلك اللحظة: «ضعي حزام الأمان، وتماسكي جيدًا».

لم تتعرف عليه في تلك اللحظة، أكان هذا هو عُقاب صديق طفولتها؟ ذلك الولد الشقي المدلل؟ أم أنه ذلك الشاب الهزيل الضعيف المسكين؟ إنه لا هذا ولا ذاك، لقد كان عُقاب في تلك اللحظة شيئًا آخر لم يسبق لها رؤيته من قبل، وأصدر أمغار شخيرًا ضعيفًا مسترسلًا فانبعجت بطن قنوع رعبًا والتفتت إليه هديل مذعورة، دعس ابن الهبَّار على الدواسة أكثر واقتربت السيارة من حاجز المئة والثمانين كيلومترًا في الساعة، كان يتمتم في تلك اللحظة:

- لا تمت أيها العجوز... لا تتركني كما فعلوا جميعًا.

التفتت هديل إليه فرأت حمرةً في عينيه وهما تنظران إلى الطريق نظرة لم تَرَ في حياتها نظرة أكثر حدَّة منها...

- تماسكوا.

هتف مرة أخرى وأعطاها المستوى الأخير من محول السرعة وخفق قلب هديل بقوة وهي لا تكاد تصدق أنها تركب سيارة تسير بهذه السرعة... كانت الروح في حلق أمغار تتلاعب كما يتلاعب مؤشر السرعة عند درجة المئتي كيلومترًا في الساعة، وراح يتجاوز السيارات والشاحنات وأي شيء في طريقه إلى المشفى كأنه يخيط الأرض بمخرز الإسكافي في الجلد... ولاحت أضواء المشفى من بعيد، في مدخل المدينة التي كان يقف عندها شرطي مرور لم يفهم ماذا مرَّ عليه بالضبط حين تطايرت قبعته في الهواء ولم يَرَ إلا الضوء البرتقالي الخلفي يغمزه مبتعدًا... كان بوَّاب المشفى بصدد إغلاق البوابة الحديدية حين تجاوزه بسرعة

ورفع الفرامل اليدوية ثم داس الفرامل واستدار فصاحت الإطارات على أرض المشفى جعلت جميع الممرضين في جناح الاستعجالات يخرجون مرعوبين معتقدين أن حادث مرور وقع في فناء المستشفى!

فتح قنوع الباب ونزلت هديل مسرعة وهي تصيح بهم: «جدي معه أزمةٌ قلبية... أحضروا حمَّالة بسرعة».

أخرجته عديلة وقنوع من السيارة ووصلت عربة طبية يقودها ثلاثة ممرضين ومعهم طبيب تغيَّرت ملامح وجهه حين تفحص نبض الحكيم وهم يهمُّون بوضعه على العربة، وركضت هديل خلفهم ومعهم قنوع وعديلة... وبينما كان الجميع يركض نحو الداخل لم ينتبه أحد إلى سائق تلك السيارة التي أحضرت أمغار إلى المشفى وهو يضع جبينه بحزن لاهثًا على المقود والرب عز وجل وحده يعلم ما الذي كان يدور برأسه في تلك اللحظة.

عُقاب

(بعد نحو شهر)

رمى الميكانيكي «باهي» سيجارته على الأرض وسحقها بقدميه، ونفث دخانها في الهواء قائلًا:

- ما تطلبه مني يا عُقاب مستحيل... مستحيل تمامًا، مممستحيل.

شعر عُقاب بقلبه يتحطَّم من كلمات الميكانيكي الذي كان يمضغ علكته بنهم، قال قنوع محاولًا أن يوصل الفكرة إليه بشكلٍ أفضل:

- سيد باهي، هذا المحرك قوي جدًّا كما يقول عُقاب، وقد صرف عليه أموالًا طائلة من أجل صيانته وقوته و...

قاطعه الميكانيكي بسأم:

- أنتما تعيقان تفكيري وعملي، محرك سيارتك انتهى يا سيد، لقد تفحصت كل أجزائه بنفسي، السقوط القوي جعله ينفجر من الداخل ولولا ستر المولى عز وجل لانفجرت السيارة كلها.

قال عُقاب وقد بدا على وجهه أثر التذمر:

- يا عم باهي هذا النوع من الانفجارات.

- يا عُقاب لا تنادني بعمي فأنا لستُ كبيرًا في السن لتلك الدرجة، ومحرك سيارتك انتهى، أنت تريد أن تكسب سباق قنليجيا؟ عليك أن تُزيل ذلك الخردة من قلب سيارتك... ليس لديَّ كلام آخر، هل تفحصته؟ أم أنك تتكلم بالعاطفة؟

قال عُقاب وهو يلكم الطاولة التي عليها معدَّات الصيانة بقوة:

- اللعنة لو كان عامر هنا لما جعلني أدخل في كل هذه التفاصيل، الدامغة هي ذلك المحرك وذلك المحرك هو الدامغة، سيارتي من دون محركها الرئيسي ليست هي نفسها سيارتي... ألا تفهم؟
- ما زلت تتحدث بعواطفك يا فتى، العواطف لا تشقُّ لك طريقًا.

لهث عُقاب وهو ينظر إلى بقية العاملين في فريق باهي للصيانة، كانوا ينظرون إليه والحيرة والدهشة على وجوههم، اثنان منهم كانا قد بدآ العمل على الهيكل الخارجي، أُصلِحَ وأُعِيد صقله جيدًا، واستمر الآخرون في إعداد السيارة من الداخل.

- أشكركم على كل ما تقومون به يا سادة وأشكرك أيها الميكانيكي، أنا... فقط، أحاول أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، هذه السيارة يا باهي قد أنقذت حياتي في وقتٍ مضى، ضمَّتني بداخلها وهي تهوي بي إلى الوادي السحيق فتحطمت هي بينما لم أُصب أنا بمكروه.

وضع باهي مفتاح الصيانة الذي كان يحمله وأشار إلى فريقه بأن يستمروا في العمل، ثم اقترب من عُقاب وأمسكه من يده وهو يقول:

- تعالَ معي... سأريك شيئًا.

قبل أسبوع كانت شاحنة كبيرة قد وصلت إلى المزرعة، يتقدمها العم قنوع بسيارته وبجانبه ركب شخصٌ غريب الأطوار لطيف الملامح سريع الحركة لم يستطع عُقاب أن يميِّز ما إن كان عجوزًا أم شابًّا، شعره أبيض وجسمه رشيق للغاية، كثير التدخين قليل الكلام، قصير القامة، ذو يدين قلما تراهما غير ملطختين بدهن التشحيم، ذاك هو الميكانيكي «باهي»، وأما على ظهر الشاحنة الكبيرة فقد كانت كومة من الركام موضوعة هناك، راقبها عُقاب من نافذة الطابق العلوي للبيت، هيكل ممزق وإطارات منفجرة، زجاج النوافذ محطَّم تمامًا والطين المتحجِّر

يكسو مقاعدها الداخلية، وقفت خلفه هديل في تلك اللحظة دون أن تنبس ببنت شفة، شعر بوجودها فزاده ذلك وجعًا، إذ لم يكن يريد لها أن تراه في هذه الحالة من المعنويات المحطَّمة فقد آلمه منظر سيارته، كانت تلك المرة الأولى التي يراها فيها بعد ذلك الحادث المأساوي، قال محدثًا هديل دون أن يلتفت إليها:

- هذه هي سيارتي يا هديل... بهذه الخردة سأنتصر على مايوركا.
- باهي ميكانيكي بارع يا عُقاب، إنه أحد أقدم أصدقاء جدي، حتى إني أتذكر أنه كان يزورنا في هذا البيت منذ أيام طفولتي، وهو ابن خالة جدتي عديلة، يستحيل أن يخيب ظنَّك فيه.
- ها هي يا هديل... انظري إليها وأخبريني ماذا ترين؟

وأشار إلى السيارة المحطمة في الشاحنة وهو يلتفت إليها.

قالت هديل في تلك اللحظة وهي تنظر من النافذة:

- أرى عنقاء على وشك النهوض من رمادها.

وبدأت أشغال الصيانة وإعادة البناء طيلة الأسبوع التالي، عمل فريق باهي ليل نهار من أجل السيارة وكانوا يشتغلون بالتناوب في مجموعتين، اثنتا عشرة ساعة للفريق الأول طيلة اليوم، ثم يلتحق الفريق الثاني بالجراج في المساء ليستمرَّ في العمل ليلًا، وهكذا كانت السيارة تحت إشراف باهي وفريقه التقني ليل نهار من أجل إعادة بعثها من جديد، وفي صباح اليوم السابع، وبينما كان عُقاب يتناول فطور الصباح مع هديل وقنوع سمع هذا الأخير يتحدث عن مشكلة خطِرة في المحرِّك، فالتحق بالجراج وهناك أخبره الميكانيكيُّ بالحقيقة المؤلمة... المحرِّك القديم لم يعد صالحًا للاستخدام، حاول الميكانيكي شرح الأسباب وقال إن طريقة سقوط السيارة من المنحدر كانت السبب في دمار المحرك

لكن عُقاب قاطعه بالرفض القاطع إذ لم يكن يريد لكل ذلك أن يحدث فقد تعوَّد على محرِّكه القديم.

دلف الميكانيكي إلى الغرفة الداخلية للجراج حيث يقع مكتبه واستمرَّ عُقاب في محاولة إقناعه لكن باهي فاجأ عُقاب بأن أغلق الباب بسرعة وأمسك به من تلابيب ثيابه وهو يضغطه نحو الباب مزمجرًا:

- أتريد أن تفوز بذلك السباق اللعين أم لا؟

نظر عُقاب إلى عينَي الرجل، وقد ذكرته الغضبة فيهما بشيءٍ من أبيه... فحنى رأسه وقال مستسلمًا:

- افعل ما بدا لك يا عم، هذه السيارة لن تحمل اسم الدامغة بعد اليوم، إذ لن تكون هي نفسها إذا غيَّرت محرِّكها.

قال الميكانيكي بسأم:

- مَن قال لك إنني أريد لها أن تبقى هي نفسها؟ لكي تبني مجدًا جديدًا يجب أن تنسى أحزان الماضي وأفراحه، إنني أنوي بناء وحش يا عُقاب، وحش يجب أن تكون رجلًا بأتم معنى الكلمة لكي تستطيع قيادته، إذا استمررت في دلالك القديم هذا فلا أحسبك ستكون قادرًا على فعل شيء في المضمار.

ثم أفلته، وتوجَّه إلى مكتبه... كانت أصوات الصيانة مستمرة في الخارج حين ساد الصمت المكان قليلًا، نظر عُقاب إلى الصورة المعلقة في الجدار خلف الميكانيكي، ورآه فيها أصغر سنًّا، كان يقف بجوار سائق يعرفه جيدًا، فقال مدهوشًا:

- أكنت تعرف نفيس الفيل؟

التفت باهي إلى الخلف، ونظر إلى تلك الصورة، ثم أشعل سيجارة وقال وهو يفتح دفترًا ما...

- دعك من الذكريات القديمة الآن، انظر... هذا ما أردتك أن تراه، هذا هو لون الطلاء القديم لسيارتك وهو ليس أسود، الأسودُ إن صحَّ تعريفه هو عدم وجود أي لون من الأساس، والألوان عمومًا هي مجموعة أضواءٍ تعكسها الأشياء على العين وتستقبلها هذه الأخيرة بمستشعراتٍ خاصة تمنحها الصبغة التي نراها نحنُ عليها، اللون الأسود الحقيقي هو عدم انعكاس أي ضوء إلى العين... والآن لاحِظ الفرق بين اللون القديم لسيارتك... وهذا اللون.

قلب الميكانيكي الصفحة وهو يدخن سيجارته وأشار إلى لونٍ آخر، ففغر عُقاب فاهُ من الدهشة، قال باهي مفسرًا:

- تسمى هذه النوعية من الطلاء «صفوف الأنابيب الكربونية السوداء المرتبة عموديًّا»، والآن مجهريًّا، هذه الأنابيب عندما تستقبل أي ضوء فإنها تمتصه تمامًا ولا تعكس منه إلا نسبة قليلة مهملة، هذا الطلاءُ سيجعل سيارتك تبدو كالعدم، سوف نصبغها به لنجعلها غير قابلة لعكس أي ضوءٍ آخر، سوف تكون سيارة أشباح على المضمار.

رفع عُقاب ناظريه ورمق الميكانيكي بذهول، فاستمرَّ باهي في الكلام:

- قبل يومين طلبت مني أن أجعل الطلاء الجديد لسيارتك يتماهى مع الضباب أليس كذلك؟

قال عُقاب والدهشة تستولي عليه تمامًا:

- تتماهى... وليس... يا إلهي، بهذه الطريقة سوف...

وضع الميكانيكي يده على كتف عُقاب، وقال مبتسمًا:

- بهذه الطريقة سوف تكون لك أفضلية في القتال في الظلام.

ابتسم عُقاب بمكر... وصافح الميكانيكي بحرارة...

* * *

بعد أسبوع آخر، وبينما كان عُقاب يساعد الخالة عديلة في تعديل الهوائي على سطح البيت هتف قنوع به أن السيارة الجديدة قد باتت جاهزة وأن أعمال صيانتها قد تمَّت، فنزل من السطح مهرولًا حتى نبَّهته الخالة ضاحكة أن يحذر من السقوط على السلالم، وخرج من البيت راكضًا نحو الجراج، وفتحت البوَّابة الكبرى للمستودع فبدت بالداخل مركونة كأنها أسطورة حيَّة قد وُلدت للتو من جديد، ووصلت هديل في تلك اللحظة وهي على صهوة فرسها فنزلت منه ونظرت إلى التحفة المخيفة المركونة في الجراج وفريق باهي للصيانة واقفون حولها... عكس زجاجها الصافي المزرعة وأوراق الأشجار الكثيفة فيها في الخارج، أما هيكلها، فقد كان مطليًّا بالعدم... كان باهي جالسًا خلف المقود حين قام بتشغيل المحرك ففرقع هذا الأخير في الأرجاء مصدرًا أزيزا مروِّعًا وقد كان عُقاب يسير نحوها في تلك اللحظة فتوقف مكانه، لقد شعر بالخوف منها... وإن كان هو قد خافها فماذا سيكون شعور منافسيه، وضع قنوع يده على كتفه وربت عليها قائلًا:

- ما رأيك يا بني؟ هل أعجبتك؟

لمعت الدمعة في عينَي عُقاب وهو يقول:

- أذهلتني... لم تعجبني فحسب... وسأدعوها من اليوم فصاعدًا «الأرملة الحسناء».

وقف باهي خلفها وراح يُعدد مميزاتها الميكانيكية من سرعة وقوة، وختم كلامه بجملة واحدة: «لقد وضعت فيها كامل براعتي وعصارة خبرتي على مر السنين، كان الرب في عون مَن قرر أن يخوض سباقًا ضد شيءٍ كهذا».

نجمي

(بعد ثلاثة أشهر)

كان البرد شديدًا في الخارج والثلوج تركت آثارها على شوارع وطرقات مدينة سيزيف الصناعية، هذه المدينة التي تعرف بحرارتها الشديدة صيفًا تتحول إلى قفرٍ موحشٍ باردٍ في الشتاء، ويعود ذلك إلى ارتفاعها على مستوى سطح البحر حيث تعرف بهضابها العليا، في القديم كانوا يقولون إن المتأهل عن منطقة سيزيف مرشح فوق العادة للتتويج بالجائزة الكبرى لسباق قنليجيا نظرًا إلى صعوبة الطرقات في هذه المدينة الوعرة، أوصد نجمي جميع الأبواب والنوافذ وجلس خلف شاشة التلفاز في بهو شقته يشاهد برامج متنوعة على القناة الرياضية الرابعة، وكما كان متوقعًا في كامل أرجاء مدينة سيزيف فقد تأهل مايوركا بصفةٍ رسمية إلى السباق النهائي، وتأهل نجمي أيضًا عن منطقة رشد حيث تفوق على جميع منافسيه في التصفيات، وكان أن واجه خصمًا وحيدًا في النصف نهائي وبالكاد بدأ السباق حتى انسحب هذا الأخير بسبب مشكلات تقنية في سيارته، كان تأهلًا سهلًا لكنه محفوف بالأخطار إذ كان نجمي يعي جيدًا أنا «ابن الرومية» سيستهدف الوصول إليه بشتى الطرق قبل المباراة النهائية، ولذلك قرر أن يغالط الجميع معلنًا بأنه سيتنقل إلى قنليجيا للاستعداد للسباق النهائي، لكنه في الواقع استأجر هذه الشقة في قلب المدينة الصناعية هنا في سيزيف واختبأ فيها، وها هو الآن يجلس إلى جوار تلفازه الصغير منتظرًا إعادة

بث السباق نصف النهائي عن مقاطعة قنليجيا، بينما كانت عفاف مستلقية على الفراش في غرفة النوم، وفي حدود الساعة الثانية وعشر دقائق ليلًا سمع نجمي صوت مفتاح الباب يتحرك، بث ذلك قشعريرة في جسده لكنه ثبت في مكانه وتجاهل الأمر كأنه لا يحدث، وتدثر جيدًا بغطائه لكي لا يبدو عليه الخوف. *«إنه ككلب البرية المتوحش إذا شمَّ رائحة الخوف فيك افترسك»*. حاول تهدئة نفسه أكثر والثبات على أريكته عندما سمع وقع أقدام في الرواق بعدما فتح الباب، وانسابت نسمة بردٍ قارصة من الخارج، بينما يتسلل هذا الوافد الخطِر إلى الداخل شيئًا فشيئًا، قبل أن يهتف نجمي بصوتٍ مسموع:

- تعالَ يا مايوركا تعالَ... لقد كنت في انتظارك يا عزيزي.

أشعل ضوء البهو، ونظر إليه نظرة حادة بعينيه الخضراوين من خلف خصلات شعره الخضراء، اقترب من الأريكة المجاورة له ومدَّ يده إليها حتى يعدِّلها قبل أن يجلس عليها بحذر شديد وهو يقول:

- لا أُنكر أنني تفاجأت، أيعقل أنك كنت في انتظاري حقًّا؟

- ومَن عساه يفكِّر فيَّ بوقت متأخر كهذا؟ حتى عشيقتي تخلت عني كما ترى.

ثم أشار إليها وهي بغرفة النوم. أخرج مايوركا مسدسه من خصره ونزع منه زر الأمان، ثم وجهه صوبه قبل أن يقول نجمي مبتسمًا بمكر:

- أنت أذكى من أن تفعل ذلك صحيح؟ لا أستطيع أن أتصور أنك قد تقتل الرجل الوحيد الذي يعرف كيفية الوصول إلى الكنز.

تبدَّلت ملامح مايوركا وقال بدهشةٍ مصطنعة:

- كنز؟ عن أي كنزٍ تتحدث؟

بتهكُّمٍ شديد قال نجمي وهو يضع الساق فوق الأخرى:

- أيعقل أنك لا تعرف عمَّا تبحثُ يا مايوركا؟

- لا تختبر صبري يا نجمي، أنا أعرف أنك تعرف كل شيء... الرجل الثالث، مَن يكون؟ أين يمكنني أن أجده؟

قال نجمي ضاحكًا:

- يا لك من أحمق يا مايوركا، ألا تزال مثل أمك؟ تخدم أسيادك ككلب الحراسة الأمين، يرمون لك الكرة فتلهث خلفها باحثًا عنها ثم تعود إليهم بها لاهثًا منتظرًا أن يلقوا بها من جديد؟

وجَّه مايوركا سلاحه نحو نجمي وقد كان محشوًّا بالذخيرة بالفعل حين قال:

- مرة أخرى وأخيرة، لا تختبر صبري يا نجمي.

حرَّك نجمي عينيه تجاه التلفاز، ثم قال مشيرًا إليه:

- هل رأيت هذا؟ لا يعقل أن أشغالك في التجسس قد أنستك الاهتمام بالتفاصيل المتعلقة بنهائي قنليجيا الذي سيجمعنا معًا بعد يومين... انظر إلى التلفاز يا مايوركا، إنهم يُعيدون بث السباق نصف النهائي عن مقاطعة قنليجيا العاصمة وضواحيها.

التفت مايوركا بسرعة نحو التلفاز، ثم عاد بناظريه نحو نجمي وهو يوجه سلاحه نحوه قائلًا:

- لمَ قد يهمني أمر هذا السباق برمته يا نجمي؟

- انظر إليه... إنه ينطلق وحيدًا في المقدمة، سائقٌ غامضٌ لا يعرف أحدٌ شيئًا عنه، يصل إلى مكان السباق فيركن سيارته في خط البداية، لا يفتح نافذته ولا يُلقي التحية على الجماهير، ينطلق ويقود ببراعة ويتفادى الجميع في المضمار ويصل إلى خط النهاية قبلهم، ثم يتوارى عن الأنظار، يُطلق على سيارته لقبًا

غريبًا... «الأرملة الحسناء» وإنها لأرملةٌ حسناءُ فعلًا... دودج تشارجر في مواصفاتها، وتشالنجر في هيكلها.

ثم استند إلى الأريكة وهو يفرقع أصابع يديه قائلًا في هدوء شديد:

- ألا تذكرك هذه الطريقة في القيادة بأحدٍ ما؟

أنزل مايوركا مسدسه، وأمعن النظر في التلفاز كأنه انتبه للتو إلى خطورة ما يلمح له نجمي... ثم قال بصوتٍ مذهول:

- نجمي؟ أهذا... عُقاب بن هبَّار؟

كان مايوركا قد بحث عن عُقاب في كل مكان لدى عودته إلى الشرق لكنه لم يعثر عليه، لا في قصره الذي وجده خرابًا، ولا في الحانات التي كان يقصدها... إنها لمصيبةٌ حقيقية بالنسبة له أن يعثر عليه في المضمار في السباق النهائي، أنى له أن يختطفه ساعتها؟

- دعك مما قد يكون هذا السائق، فسوف تواجهه في كل الأحوال أيًّا كانت هويته، لأنه تأهل للنهائي معنا... الآن قل لي، كيف أقنعت عفاف بالعمل معك؟

التفت مايوركا إليه وقال بغضب مكتوم:

- بالطريقة نفسها التي أقنعتُها بها أن تعمل معك.

ابتسم نجمي بتهكم وهو يرد:

- كلانا قذرٌ إذن؟ أهذا ما تريد أن تُقنع نفسك به؟ أهذا ما تقوله لنفسك كل يوم حين تضع رأسك على الوسادة لتنام؟ كل الناس قذرين فلا بأس أن أكون مثلهم؟ لقد أوهمتها بالزواج، وبالسفر إلى الخارج والعيش هناك، لذلك لبَّت جميع مطالبك... الغبية، أتعرف يا مايوركا، لقد كنتُ أحبها حقًّا، يعلم الرب أنني أحببتها، ويعلم الرب أنك ضربتني بها...

قاطعه مايوركا وهو يغمغم:

- عجيبة وقاحتك ودياثتك يا رجل، وعجيب هذا الحب الذي تدعيه، تحب عُقاب فتحفر تحته، وتحب عفاف فترسلها لممارسة الرذائل خدمةً لأهدافك وطمعك، لم أكن أعرف هذه الفتاة يومًا، قد يكون خداعي لها معقولًا بناء على ذلك، لكنك كنت تعرفها وتحبها كما تقول.

أومأ نجمي برأسه وقد استحالت ملامحه إلى وجه واجم بارد كأنه جثة متحركة وقال بهدوء شديد:

- لقد كانت الوحيدة التي تعرف هذا المكان، لم أخبر غيرها به... سمعتها تحدِّثك في الهاتف وترسل إليك إحداثيات المنزل ومكان وجوده، ففهمت كل شيء، لقد كانت هي التي ثقبت علبة زيت الفرامل في سيارة عُقاب، هي وليس عامر... ذلك الرجل الشهم الذي أنهيتُ حياته بيديَّ، أنت لا تملك أدنى فكرة عما فعلته بنا يا مايوركا.

- ليس أنا يا نجمي... إنه طمعك مَن فعل بك كل ذلك.

- أجل، ربما هذا هو الشيء الوحيد الذي أوافقك عليه، إنه الطمع في الكنز منذ البداية... سبب كل شيء.

ردَّ عليه نجمي. ثم قام من مكانه، والتقط معطفًا كان يضعه بالقرب من الأريكة، وقال وهو يتوجه نحو المخرج:

- اذهب وتب إلى ربِّك واطلب منه الصفح على كل الذنوب والآثام التي ارتكبتها يا مايوركا، لأنك ستموت بعد يومين.

«الكنز مجددًا... لا أهمية للكنز بعد اليوم». كان نجمي يخاطب نفسه وهو ينزل السلالم مخمنًا حيال كل ما جرى... بينما قام مايوركا من

الأريكة متوجهًا نحو غرفة النوم التي كان بابها مفتوحًا قبالة البهو، وعندما أشعل الضوء رأى منظرًا جعله يُفرغ ما في معدته من الصدمة والقرف، هناك على الفراش، كانت عفاف مستلقية على ظهرها في الفراش الذي أصبح بركةً من الدماء... لم تكن عفاف نائمة عليه، بل كانت مذبوحة من الوريد إلى الوريد!

النهاية

كانت الشمس قد غربت منذ ساعتين تقريبًا، في الفناء الخلفي للمزرعة وضع عُقاب كومة من الأخشاب فوق بعضها البعض وترك فسحة صغيرة تحتها حيث ألقى فيها بعض العيدان الرقيقة، ثم أشعل عود ثقاب ودسَّه وسط العيدان الرقيقة فأخذت تشتعل شيئًا فشيئًا، وبعد لحظات بدأ الدخان ينبعث من قلب كومة الأخشاب وأخذت النار تنتشر فيها حتى استحالت إلى لهيب بعد ثوانٍ، وضع يده في جيب سترته وجلس قبالة النار ليتدفَّأ قليلًا وهو ينظر إلى اللوح الرخامي الجاثم أمامه، كان قد حلق شعره وشذَّب لحيته فحسَّن من منظرها قليلًا، وسمع صهيل الخيول داخل المزرعة فلم يُعِرها اهتمامًا كبيرًا، إنها تستمتع بما قدمه العامل لها من طعام قبل قليل فلا داعي لتفقدها مرة أخرى، استمرَّ في النظر إلى اللوح الرخامي الأبيض، وانعكاس ضوء اللهيب عليه... وتلك المشكاة العتيقة ذات الزجاج اللازوردي الموضوعة عند الشاهدة البيضاء حتى سمع صوتًا من خلفه:

- كما أوصى تمامًا، قبرٌ بلا عنوان... لا اسم عليه ولا تاريخ ولادة، ولا تاريخ وفاة.

التفت إلى الخلف فوجد هديل تقف مرتدية عباءة صوفية سوداء مع سترةٍ جلدية وشالٍ أخضر داكن، اقتربت منه وهي تحمل كوبين من القهوة، قدَّمت له واحدًا وتركت لنفسها الآخر «شكرًا» (هتف وهو يلتقط منها الكوب)، ثم جلست على كرسي حجري قريب من النار بينما كان

عُقاب يرتشف قهوته متعجبًا من قدرة هذه الفتاة في الحفاظ على جمالها بعد كل ما مرَّ عليها من أحزان. «*أو ربما يزيدها الحزن جمالًا*». وضع كوب قهوته جانبًا وقال متنهدًا:

- قد يكون هذا القبر بشاهدة بيضاء ناصعة لا كلمات فيها، لكننا نعرف صاحبه جيدًا يا هديل... ونعرف أيَّ رجلٍ عظيم كان ذات يوم، نعرف صاحب تلك المشكاة، التي كانت تسافر بنا عبر الأماكن والأزمنة بضوئها الذي يصبغ بلونه باطن الذاكرة فلا يفلت منها أبدًا، لعل أقدار العظماء في هذا الزمن أن يموتوا وحدهم، ويُدفنوا وحدهم، فلا يكتب التاريخ عنهم شيئًا لأنهم هم الذين كانوا يكتبون التاريخ... لقد كان جدُّكِ أمغار الحكيم رحمه الله واحدًا منهم.

مدَّت هديل يديها نحو اللهيب لتدفئهما قليلًا، ثم قالت بعدما نفخت فيهما:

- هل باشرت بالفعل أشغال ترميم بيت عائلتك في قنليجيا؟

أومأ برأسه إيجابًا وهو يرد عليها:

- أجل، لقد صرفت كل عائدات سباقات التصفية في نفقات ترميمه، غيرت كل شيء تقريبًا، النوافذ والستائر القديمة والأثاث الذي سكنته الصراصير والفئران، والفراش الذي بات مَرتعًا للبق والعناكب، كل ذلك أُحرِقَ في الباحة الرئيسية للقصر.

بدت متعجبة، ويفتنُ هو بها حين تبدو كذلك لأنها ترسم ملامح بريئة للغاية على وجهها فقالت والذهول يتملكها:

- أحرقت كل الأثاث القديم؟ غريب، ألا تجد فيه ذكريات أهلك؟

تنهد عُقاب وهو يُلقي بجذعٍ خشبي في النار:

- لا معنى للذكريات إذا رحل أصحابها، إنه بيتي، المكان الذي نشأت فيه وسأظل جزءًا منه حتى لو أحرقته حرقًا... الحبُّ هو ما يبني البيوت يا هديل... وليست الذكريات!

ساد الصمت بينهما للحظات، ثم قالت بنبرة بالكاد تكون مسموعة:

- إذن... فبعد نهاية السباق... ستتركنا مرة أخرى؟

نظر إلى عينيها وهما تنظران إليه بكآبة من خلف ليهب النار، وشعر بقلبه يحترق مكان الأخشاب إذ كانت عيناها تعاتبانه بنظراتهما، لكنه تمالك نفسه وقال مترددًا:

- أترككم؟ لا، ستأتون للعيش معي.

- ماذا؟ أعِد ما قلت؟

قالت مدهوشة، فردَّ على الفور:

- لا تسيئي فهمي... أنا، لا أريد أن أعيش وحدي طبعًا، لقد أوصيت العمال بأن ينظِّفوا كل أجنحة البيت القديمة كما كلَّفتُ شركة خاصة بتأثيثه، ستعيش معنا الخالة عديلة والعم قنوع، وأنتِ أيتها الأميرة المدللة، سأمنحكِ جناحًا خاصًّا في قصري.

ضحكت لجملته الأخيرة وقالت وهي تقحم يديها الناعمتين في جيوب سترتها:

- وماذا عن المزرعة؟ والخيول؟ مَن سيتكفل بها؟

- سنزورها في عطلة كل أسبوع، كما أن عمَّال جدِّكِ أمغار رحمه الله موجودون فيها وسيتكفلون برعايتها.

سكتت للحظات، وظل عُقاب يترقب ردة فعلها حول الموضوع... لكنها فاجأته بأن قامت من مكانها وهتفت بنشاط وحيوية:

- تعالَ معي!

قام عُقاب وتبعها محاولًا تجاهُل خصرها المنحوت تحت عباءتها الصوفية، سارا عبر العشب الأخضر نحو الإسطبل ودخلا إلى هناك أين كانت الأحصنة نائمة في صمت، همست وهي تشير إلى الأول على اليمين:

- هذا هو باولو، ولقد سميته بهذا الاسم تيمنًا ببطل قصة العطر والنار.

ألقى عُقاب النظر إلى الداخل فرأى حصانًا أسود يلمع سواده كبحرٍ مهيب هادئ يعكس ضوء القمر في الليلة الحالكة... وتبع عبيرَ هديل وهي تسير بخطاها الخفيفة نحو المرقد الثاني وأشارت إليه:

- وهنا فرسي الجميلة داليدا.

كانت الفرس التي ركبتها في ذلك الصباح بعدما خرجت من المطبخ، تذكر رعشة الخلخال في ساقها في تلك الصبيحة، ثم تذكر منظرها حين دخل عليها المطبخ بغتة فكاد يخرُّ مغشيًّا عليه لولا أن تناسى ذلك عمدًا لينقذ نفسه في آخر لحظة وهمس مبتسمًا وهو يطل إلى الداخل:

- لم تنم بعد؟

- أجل، إنها تحب السهر كما ترى.

قالت ضاحكة وهي تشير إلى المرقد الثالث:

- وهذا مكان حصانك.

التفت إليها مدهوشًا، وكرر متسائلًا:

- ماذا قلتِ؟ حصاني؟

وضعت يديها خلفها وقالت مبتسمة:

- لقد سمَّيته نارمر... لطالما كنت أُمني نفسي برؤيتك تركبه، أطعمته كل هذه السنين وأشرفت على ترويضه.

ثم وفي حركة سريعة فتحت باب مرقده فتوقف الحصان على الأكل والتفت إليهما، كان لونه بنيًّا داكنًا مع نظراتٍ هزيلة كسولة وشعرٍ خفيف على ظهره، قالت هديل ممازحة بلؤم:

- أنت مدينٌ لي لأنني اعتنيتُ لك به كل هذه السنين.

ونظر عُقاب إلى الحصان نظرة عميقة وهو يقترب منه ثم التفت فجأة إلى هديل وقال وقد بدا أنه استدرك شيئًا ما:

- الدامغة؟ أين الدامغة؟

والتفت يمينًا وشمالًا في الإسطبل... فابتسمت هديل بحسرة وقالت وهي تمسح على رأس الجواد:

- لقد ماتت الدامغة منذ زمنٍ بعيد يا عُقاب، وكان فرسك هذا آخر ما أنجبت... عندما عرفت أنك أسميت سيارتك بالدامغة كنت أعتقد أنك فعلت ذلك تيمنًا بها، لكن تبين لي فيما بعدُ أنك نسيتها... ونسيت هذا المكان كله... ونسيتني.

قالت عبارتها الأخيرة بصوتٍ منخفض فلم يسمعها عُقاب الذي شرد متذكرًا تلك اللحظة التي سأله فيها مندوب التسجيلات في سباقات التصفية الأولى لجائزة قنليجيا لما تقدم لكي يشارك أول مرة قبل سنوات:

- ما اسم سيارتك؟

- دودج تشالنجر سيدي.

أجاب عُقاب بحماس، فتنهد المندوب وقال بسأم:

- أنا لا أسألك عن نوعها وطرازها، بل عن اسمها، لكل سيارة هنا اسم تنافسي تمتاز به.

نطق عُقاب بلا تفكير:

- الدامغة... سيكون اسمها هو الدامغة.

تعجَّب ساعتها كيف قفز هذا الاسم إلى عقله فجأة، لكنه فهم الآن من أين جاء... إنها تلك الخيل التي لطالما رآها في ذلك الحلم الأخضر، ذلك المشهد البريء من ماضيه، حين كان يلاعب الخيل هنا رفقة فتاة تقاسمه الحب ذاته نحوها، أطلقا عليها لقب الدامغة، وكانا ينتظران مولودها الأول بفارغ الصبر، كان هناك رهان بينهما أن المولود لو كان مهرًا فسيكون من نصيب عُقاب وسيسميه نارمر، وإن كانت مهرة أنثى فستكون من نصيب هديل التي عزمت على تسميتها داليدا، لكن عُقاب سافر عائدًا إلى قنليجيا دون أن يعرف ماذا أنجبت الدامغة.

التفت إلى مرقد داليدا، وقال وهو ينظر مرة أخرى إلى نارمر:

- إذًا كان نارمر آخر ما أنجبت.

طبعت هديل قبلة ناعمة على خد الجواد وهي تنظر إلى عُقاب هامسة:

- إنهما توأم، داليدا ونارمر.

ثم توجهت إلى طاولة خشبية وحملت سرجًا وألقت به على ظهر الحصان، وفتحت مرقد داليدا وأسرجتها هي الأخرى، وارتمت على ظهرها وقالت وهي تقلد صوت الفرسان في العصور الوسطى ساخرة:

- آن لك أن تعتلي صهوة جوادك سيدي.

- أنا؟

قال عُقاب مذهولًا، فهتفت وهي تخرج من الإسطبل على ظهر داليدا:

- إلحق بي عند النهر.

نظر عُقاب في عينَي نارمر، فبادله هذا الأخير نظرة لئيمة كأنه يقول له: «لا تعوِّل عليَّ»، فردَّ عُقاب سئِمًا:

- الفتاتان تسبقاننا؟ ماذا سيقول عنا الشرق؟

ثم أمسك بالسرج ووضع قدمه على الدوَّاسة وارتقى بصعوبة واستوى على ظهره وشعر بوخزة خفيفة من الألم في مكان إصابته القديمة في أعقاب ذلك، وأرخى اللجام لجواده فراح يتحرك متراقصًا فكاد عُقاب يقع من ظهره.

- مهلًا... مهلًا... مهلًا... يا إلهي هذه البنت تريد أن تكسر ظهري قبل السباق النهائي هذه المرة وليس في أثنائه.

ولفحته موجة برد خفيفة حين خرج من الإسطبل الدافئ إلى المرج في الخارج وقد لمح هديل تبتعد بفرسها، فغمز جواده بأن يسرع قليلًا، تحرَّك نارمر بسرعة أكبر وما هي إلا لحظات حتى بدأ يعدو بسرعة فتمسك عُقاب به وبدأت الدموع تتطاير من عينيه من البرد وهو يرتعش خوفًا ورعبًا:

- حبًّا بالله لا تسقطني من ظهرك... حبًّا بالله ورحمةً بي يا نارمر.

بعد لحظات مجنونة كان قد لحق بها فأمسك اللجام قليلًا وسيطر عليه ليقلل من سرعته، كان سيقول إنه سبقها لكنهما كانا قد وصلا إلى النهر وقد كانت هناك قبله بالفعل، وقفا قبالة المياه الصافية وانحنت خيلُ هديل لتشرب بعضًا من الماء الذي ملأ خريره المكان، قالت هديل وهي تراقب انعكاس صورتيهما فيه:

- لقد آمن بك جدي، وقد آمنتُ بك بدوري يا عُقاب... أنت قادر على هزيمة هذا المدعو يوركا.

قال عُقاب متنهدًا:

- مايوركا... وليس يوركا.

كانت هديل تعتقد أنه يتنهد حسرةً على ما هو قادم، لكن لا شيء خلَّف في قلبه حسرة أكثر من انعكاس عينيها في الماء.

- ماذا سيحدث لو خسرت؟

- مايوركا سيقتلني على الأرجح، أو سيختطفني ليعرف مني مكان الكنز، وسيستهدفكم أنتم لكي يبتزني بكم ويُجبرني على الكلام، سيعذبون الخالة عديلة وقد يقتلون العم قنوع أيضًا.

سكت عُقاب ولم يكمل كلامه... فقالت بصوت هادئ لطيف:

- وأنا؟ ماذا سيفعلون بي لو خسرت السباق؟

قال وقد لمع ضوء القمر في سواد عينيه:

- يبدو أنه ليس أمامي سوى خيارٍ وحيد، إنه إما الفوز وإما الفوز.

ابتسمت هديل قليلًا ثم قالت متسائلة:

- أقلت لي إنك تحب قراءة الشعر قبل انطلاق السباق؟

ضحك عُقاب وهو يحكُّ شعره:

- إنه تقليدٌ سخيف، لا تلقي له بالًا...

نظرت إليه بلؤم وهي تلمِّح بخبث والغيرة تعصرها عصرًا:

- يبدو أنك كنت تقوم بالكثير من «التقاليد السخيفة» قبل السباقات يا سيد عُقاب.

فهم أنها كانت تلمِّح إلى نوم عفاف عنده ليلة النهائي السابق فسكت مبتسمًا ولم يجبها بشيء.

ثم دسَّت يدها بداخل صدرها من تحت عباءتها الصوفية في تلك الأثناء، ووقعت أعيُن عُقاب سهوًا على جارات القمر في السماء الصافية وقد داعبت حمرة خفيفة وجنتيها حياء، ثم أخرجت من هناك قصاصة مطوية بعناية وقالت وهي تمد بها إليه:

- لا تفتحها إلا عند بدء العد التنازلي، ساعتها اقرأها بصوتٍ مرتفع.

استلمها عُقاب منها ونظر إليها، ولفحته نفحة من عطرها الأنثوي الذي انبعث من القصاصة التي كانت تخبِّئها بحضنها قبل قليل فكاد يقع من صهوة جواده وما أوقع السلاطين من هناك إلا الغرام... اقتربت داليدا من نارمر بإيحاء من صاحبتها التي قالت وهي تقف أمامه تمامًا الآن.

- أتعدني بأنك ستفعل؟

- أفعل ماذا؟

قال كالأبله وهو ينظر إلى القصاصة ثم إلى وجهها الفاتن، وكفتاةٍ صغيرة رمقته بعينين ضعيفتين قائلة بإصرار مرة أخرى:

- عدني يا عُقاب.

- أعدك بماذا؟

قاطعته بصوت أكثر حدَّة:

- قلت لك عدني!

نظر إلى عينيها، فرأى فيهما فضولًا جميلًا وقد تعلَّقت الحياة فيهما بجوابه، وساد الصمت بينهما فلم تقطعه إلا أصوات الخرير... واستسلم عُقاب لجمالها فمدَّ يده إلى سرج فرسها ووضع أصابعه على أناملها ومسح عليها ليهدِّئ الروع في دقات قلبها المتسارعة وقال وهو يقطع وعدًا لا يدري ماهيته:

- أعدكِ يا هديل.

* * *

بعد 24 ساعة

توارى القمر عن الأنظار في السماء وقد ازدحمت من فوقه السحب كأنها تريد أن تشهد هذا الذي سيحدث هناك بعيدًا على الأرض... في الباحة الرئيسية لمضمار قنليجيا الأفعواني لسباق السيارات بللت زخات الندى ورذاذ المطر أرضية المكان فجعلته يلمع تحت أضواء السيارات وقد غرقت باحات المدينة في الضباب كأنها سفينة عملاقة تدفَّقت إليها المياه من كل فجٍّ عميق... وعمَّ الصمت كل الشوارع والساحات الرئيسية في الأحياء والدوائر المجاورة، فالناس في المدينة نوعان، أولئك الذين أسعفهم الحظ للتنقل إلى المضمار لكي يعيشوا الحدث من عين المكان، وأولئك الذين جلسوا خلف شاشات التلفاز لكي يشاهدوه من هناك، سلَّطت الأضواء على عنَّابية نجمي الذي كان أول مَن وصل وقد صدح محرِّك الشيفروليه كورفيت وسط الساحة بلا أي منازع آخر، كان يشعر بالتوتر وقد قضم أظفاره كلها وكاد أن يمضغ أصابعه في أطول اثنتي عشرة ساعة مرَّت عليه على الإطلاق وهو ينتظر الليل، صاحت الجماهير مُرحِّبة به من كل جانب وكان يحاول تجاهل كل تلك الصيحات بأن أغلق نوافذ سيارته وظل جالسًا هناك وحيدًا منتظرًا وصول خصميه، فكَّر في الكثير من الأشياء في الأيام القليلة الماضية... في نفسه، وفي مستقبل عائلته، وتوصَّل إلى نتيجة واحدة حاسمة، إنه لن يستطيع العيش في دنيا يعيش فيها مايوركا... أما عُقاب، فقد كان عذاب الضمير ينهش فؤاده كلما فكر فيه، إننا لا نستطيع الاعتذار أحيانًا على ما فعلنا، لقد كان يلمع في باله سؤالٌ واحد كلما تذكَّر عُقاب: «*هل يفكر في الانتقام مني كما أفكر أنا في الانتقام من مايوركا يا ترى؟ لا أظن، لم أكن أنا مَن قتل أباه وأمه، ولم أكن أنا مَن هدَّد وجود عائلته كلها*». ثم تعود عصارة معدته إلى شق صدره مرة أخرى حين يتذكر ما يتذكره. «*أتتحدث بكل*

قواك العقلية؟ مَن تآمر عليه؟ مَن سلَّط عليه المخدرات ورمى به في الإدمان؟ أليس أنت؟ أليس أنت مَن باع سر الخزنة لمايوركا وأمه الرومية العاهرة؟». خبط نجمي مقود سيارته بقوة غضبًا وصاح بأعلى صوته وهو بداخلها: «ولكني لم أكن أدري أنهم سيقتلون والده لم أكن أدري... سأقتلك يا مايوركا... سأقتلك!».

في تلك اللحظة سمع نجمي الجماهير في الخارج تصيح باستهجان، فرفع عينيه إلى مدخل الباحة ولمح صقر الجديان وهي تصل إلى المكان، كانت أضواؤها الفاقعة واللمعان في هيكلها الخارجي يبثَّان في الأجواء رعبًا وهيبةً جعلت الجماهير تبتلع استهجانها في حلقها، إنه مايوركا حامل اللقب، مايوركا الذي هزمه شرَّ هزيمة في آخر مرة تقابلا فيها على المضمار، هناك خلف مقود التويوتا سوبرا كان الأشقر ينظر إلى الدنيا بعينين خضراوين، حاد الملامح شديد الوسامة وقد نبتت لحيته بشكلٍ خفيف بعض الشيء، نظر يمينًا وشمالًا ولم يَرَ بجانبه إلا سيَّارة نجمي، فتجاهلها تمامًا وهو ينفث أنفاسه الدافئة في قمرة قيادته. «*لم يصل بعد، ذلك الولد الذي يرفض أن يموت، ستكون نهايته اليوم على يديَّ، فإن لم يكن بالإمكان الحصول على كنز، فلا كنز في هذه الحياة أكثر قيمة من الثأر، لقد كانت أمي قاسيةً معي، لم أعش معها حنان الابن وأمه، ولا أعرف مَن يكون والدي، ولكنني أعرف مَن أكون حين أجلس خلف هذا المقود وهذا يكفيني، أمي بالنهاية ستظل أمي، ما عاشت من أجله وما ماتت من أجله، يجب ألا يذهب سدى*».

في تلك الأثناء عمَّ الصمت التام مدرجات المضمار وسكت الجميع بمَن فيهم المعلِّق «هاني العدل» الذي كان يثرثر كعادته عند وصول مايوركا ونجمي، نظر هذان الأخيران إلى مدخل المضمار كما كان يفعل الجميع في تلك اللحظة التي زحفت فيها الإطارات السوداء على الأرض

مندفعة بالهيكل الظلامي الأسود إلى الداخل، لم تكن النوافذ تظهر شيئًا مما يوجد بداخلها لكن العالم بأسره كان يعرف السائق جيدًا، إنه «العائد من الموت» كما بات يطلق عليه الآن في الصحف والإذاعات... لم يعد للدامغة وجود الآن، فالدودج تشالنجر أصبحت دودج تشارجر بفعل عبقرية الميكانيكي الوغد باهي، وبات اسمها التنافسي الرسمي «الأرملة الحسناء»، وها هي تتألق ماشيةً وسط السيارتين المنافستين ببطءٍ شديد كأن سائقها يريد أن يطمئن الجميع بأنها لن تكون مؤذية في هذا المساء الطويل...

وصاح «هاني العدل» بأعلى صوته قاطعًا الصمت الجنائزي الذي عمَّ المدرجات فجأة:

- إنه النهائي الثمانين إذن أيها السادة الأفاضل، خط البداية هو خط النهاية، والقوانين معروفة للسائقين الثلاثة ما دام أنهم خاضوا النهائي من قبل، قاتِلوا من أجل الجائزة الكبرى، سابِقوا وتسابقوا، انتصِروا بشرف أو انهزِموا بشرف، في خط النهاية سيعرف كلُّ واحد في هذه الحياة إذا كان الأمر يستحق فعلًا أم أنها كانت هلوسات الواهمين خلف أضغاث الأحلام الضائعة.

وهتفت الجماهير خلفه بأعلى صوتها...

حرَّك عُقاب عينيه يمينًا وشمالًا فرأى صقر الجديان والعنابية على يمينه ويساره بينما كانت الأرملة تتوسطهما، أخرج في تلك الأثناء القصاصة التي أعطته هديل إياها، وفتحها، ووضعها على مقود سيارته، ثم التقط شريطًا لاصقًا من صندوقٍ صغير بجانب مقعده وقام بتثبيتها على المقود.

وصاح المعلِّق الصوتي في تلك اللحظة:

- 3.

وقرأ عُقاب بصوتٍ مرتفع كما طلبت منه الفتاة:

- إليك حبيبي، رسمت بأوراقي الأحلام... كخيول تنام... في مرجٍ فتَّان.

- 2.

- فأنت طريقي، أمضي بها سرًّا وخيالي، أرخى لي العنان، فنثرت الألوان.

- 1.

- وأنت نصيبي، بقية ما تُبقي الأيام، في هذا الزمان، فارجع لي بأمان.

- انطلقوا!!!!.

صاح المعلق بأعلى صوته، ومن ورائه صاحت السيَّارتان صقر الجديان والعنَّابية وهما تنطلقان بسرعةٍ رهيبة وتسارُع مرعب واندفعت من خلفهما الأرملة الحسناء مصدرةً فحيحًا غريبًا اقشعرَّت له الأبدان...

جلست هديل في حضن جدها مرتعدةً وهي تشاهد السباق على شاشة التلفاز إذ طلب منها عُقاب عدم المجيء للمضمار حيث فضَّل الذهاب وحده..

وفي الدقائق الأربع الأولى لبداية السباق كانت السيارات الثلاث قد بلغت سرعة جنونية وبات يصعب رؤيتهم في جنح الظلام لذلك استُعمِلت كاميرات خاصة في تغطية السباق مع طائرات مروحية إعلامية وأخرى أمنية لتأمين السباق وضمان عدم تدخل أي عنصر خارجي يؤثر على نتيجته ونزاهته، وكما كان متوقعًا بدأ مايوركا بالمناورة الهجومية باكرًا لبثِّ الرعب في نجمي الذي ردَّ عليه بهجوم مباشر واحتكَّ الهيكل بالهيكل فخدشه، ووصلت السيارات الثلاث إلى المنعرج الأول فتقدَّمت

العنابية السباق وسط دهشة الجميع إذ قاد نجمي بشجاعة غير مكترث لمايوركا وصقره الذي كان يطارده من الخلف بشغب ومشاكسة بينما خفَّض عُقاب سرعته لأسباب مجهولة.

نظرت هديل إلى العم قنوع في تلك الأثناء وقالت مدهوشة: «ماذا يفعل؟».

لم يجبها قنوع، كان ينظر إلى سيارة عُقاب التي تقبع في المركز الأخير وشعر برعشة التوتر تسري في كامل أنحاء جسده، إنه يواجه هواجس الماضي الآن حتمًا وهو يقف وجهًا لوجه مع المنعرج الذي أجهز عليه في وقتٍ مضى وخرج فيه من المضمار نحو الوادي السحيق...

وتقدم نجمي وسط الطريق الضيِّق نحو المنعرج الحاد الذي يُعرف باسم «العقدة» وهو أحد أخطر منعرجات المضمار على الإطلاق إذ يلتفُّ الطريق في شكلٍ دائريٍّ وتحته الوادي السحيق الذي كان عُقاب قد وقع فيه في السباق الماضي... وبينما كان نجمي ومايوركا يتقاتلان على الصدارة وهما يتجاوزان المنعرج حدث شيءٌ لم يكن بالحسبان إذ لمح مايوركا شيئًا أسود كأنه وطواط عملاق يطير في الهواء... وسكت الجمهور والمعلق والعالم بأسره ممن يتابعون السباق غير مصدقين لهذا الذي حدث للتو، حيث طارت الأرملة الحسناء فوق نقطة الانعطاف متجاوزة المنعطف في الهواء منتقلة إلى الضفة الأخرى من المضمار وفي لحظةٍ من الزمن باتت في المركز الأول.

- سيصيبني بالجنون هذا العُقاب وسيارته... ما الذي رأيته للتو يا إلهي؟

صاح المعلق وهتفت خلفه الجماهير بهستيريا عظمى... وقفزت هديل في مكانها فرحًا بينما ظلَّ قنوع يراوح مكانه مصدومًا، هل... هل... هل حلَّق للتو؟

تجاوز نجمي المنعرج وخلفه مايوركا الذي حلَّ في المركز الثالث لأول مرة لكنه ابتسم بمكر وهو يقود منعطفًا نحو اليمين وضاعف سرعته في محاولة لتجاوز نجمي الذي قطع عليه الطريق ففتح على نفسه النار حين ضرب الصقر العنابية في الهيكل الخلفي حتى كادت تطير من مكانها واهتزَّت بنجمي واندلع القتال بينهما بينما يتقدم عُقاب وحيدًا في المقدمة مبتعدًا عنهم بفارقٍ بات الآن طفيفًا حيث كان عُقاب مضطرًّا إلى خفض سرعته بعض الشيء بعد القفزة الجنونية التي قام بها، وسمع صوت ارتطام الحديد بالحديد وتطايرت شظايا اللهب في الخلف لكنه ثبت في مكانه وهو ينظر إلى رسم مخطط المضمار في الشاشة الزرقاء بجانبه، ثم كبس زرًّا أسفل الشاشة فانخفض ارتفاع الأرملة بعض الشيء وفي تلك الأثناء ارتطمت العنابية به من الخلف إذ دفعها الصقر بقوة.

- نجمي في ورطة حقيقية، إنه يواجه أقوى سيارة مقاتلة في العالم ويبدو مايوركا مصرًّا على الإطاحة به ورميه من المضمار.

قال قنوع في تلك اللحظة:

- لقد بدأت الحرب الحقيقية الآن.

وصلت السيارات إلى منعطفٍ واسع فتجاوزه عُقاب بأريحية بينما استمرَّ الصقر في ضرب العنابية، عضَّ نجمي على شفته السفلى غضبًا وفي اللحظة التي كان فيها مايوركا على وشك ضربه بقوة من خلف تحرك يسارًا فتقدم الصقر نحو الأمام بشكل فاجأ مايوركا نفسه ثم وفي اللحظة نفسها تحرك نجمي بقوة يمينًا فخبط هيكل العنابية هيكل الصقر بقوة حتى كاد يطيح به في الهواء لكن مايوركا كان يحمل مسدسًا في تلك اللحظة التي اقتربت فيها سيارة نجمي من سيارته وأطلق عليه النار فلم يسمع أحد صوت العيار الناري بسبب صوت ارتطام الهيكلين،

اخترقت الرصاصة زجاج سيارة نجمي واستقرت في دماغه... وضع مايوركا مسدسه مبتسمًا وبين غمضة عين وانتباهتها انقلبت العنابية في الهواء أمام صدمة الجميع وارتطمت بالأرض منفجرة، نظر عُقاب عبر المرآة العاكسة إلى الخلف وعرف أن نجمي قد لقي حتفه، وأن المعركة قد باتت بينه وبين مايوركا الآن.

ارتعشت هديل وهي ترى صقر الجديان المرعب يتقدم نحو الأرملة الحسناء وقد اقتربت من المنعطف الثاني الذي هو أخطر من الأول.

- يا إلهي الرحيم لقد غادرنا نجمي باكرًا، لكني أرى نهائيًّا حقيقيًّا الآن بين عُقاب ومايوركا وهما يقتربان من منعطف العنق، ثاني أخطر منعطف مضمار سيارات في العالم بأسره.

قال المعلق وهو يصيح واللعاب يتطاير من فمه.

وأدار عُقاب مقوده نحو اليمين فاستدارت الأرملة تحت جنح الظلام وهي لا تبدي من شكلها إلا اللون الذهبي وسط الإطارات مع الأضواء الفاقعة، وابتسم مايوركا وهو يقترب منه بعدما تجاوزا معًا الجزء الأول من المنعطف، ثم مالت سيارتاهما وهما ينعطفان مع الجزء الثاني إلى أقصى اليسار، وأمسكت هديل بقلبها في تلك اللحظة، وصاح المعلق منبهرًا:

- مَن قال إن نقطة ضعف عُقاب هي المنعرجات فهو مخطئ... مخطئ تمامًا.

وتجاوزا العنق بأعجوبة وباتت الطريق منبسطة أمامهما الآن، وقد كان لذلك كله معنى واحد، القتال حتى الموت...

- تذكر أن وظيفتك الأسمى والأهم هي أن تجلب لنا عُقاب حيًّا يا مايوركا، بهذه الطريقة فقط سنبتزُّ الرجل الثالث فنُجبره على الظهور ومساومتنا على عُقاب... أيًّا كان الشخص الثالث فحياة

عُقاب مهمة جدًّا بالنسبة له... هذا إن لم يكن عُقاب نفسه يعرف مكان الكنز، إن عُقاب سليل عائلة الهبَّار ورقتنا الأخيرة فإياك أن يعميك الحقد فتحرقها!

كانت تلك آخر وأهم أوامر جاك هيكتور لمايروكا حين أوفده إلى هنا، لكن مايوركا لم يكن يكترث لتلك الأوامر الآن. «*سحقًا للكنز، وللرجل الثالث، ولجاك هيكتور، وللشرق والغرب إن لم أتمكن من هزيمة هذا الولد والدوس على عنقه بعجلات سيارتي*». في السيارة الأخرى كانت أعيُن عُقاب تراقب المضمار على الشاشة، وأصدر محرِّك الأرملة الحسناء ضبيحًا هائلًا وصل صداه إلى أسماع المشاهدين في المدرجات وشاشات التلفاز حين انطلقت الأرملة بالسرعة القصوى وخلفها الصقر الذي أطلق مايوركا محركه نحو الأمام فمنحته دفعة قوية لكي يتمكن من التصدي للسرعة الجنونية التي كانت الأرملة تهيم بها في المقدمة، وحاول مايوركا لأول مرة أن يصدم عُقاب ويستفزه فتطاير الرذاذ الملتهب بين الهيكلين وهما يحتكَّان ببعضهما بعضًا لكن عُقاب أدار مقوده بعيدًا وكبس الزر الأزرق أسفل مقود سيارته فدارت التوربينات من الخلف ورأى مايوركا زرقةً فيها.

قال مايوركا مدهوشًا:

- اللعنة... النيتروجين... الآن؟ ماذا يريد أن يفعل؟

وتحرَّكت الأرملة الحسناء نحو الأمام بسرعةٍ عجيبة كأن كل السرعة التي كانت فيها لم تكن إلا حركة متباطئة... وتماوجت الدنيا وتماهت بين عينَي عُقاب وهو يتقدم بتلك السرعة السيريالية.

- لا تكبس هذا الزر إلا عندما تلوح أمامك رايات خط النهاية يا عُقاب.

كان هذا ما أخبره به باهي... لكن ابن الهبَّار كانت شياطينه قد أوحت له بشيءٍ آخر حين جرَّب قيادة السيارة في المضمار الأفعواني في أثناء تجارب الأداء، وذهل مايوركا حين لمح الأرملة تبتعد عنه بتسارع جبَّار كأنها الزمن في أيام الشباب.

قال قنوع مدهوشًا:

- ما الذي يفعله؟ لا يزال الوقت مبكرًا على استعمال النيتروجين.

ابتعدت الأرملة الحسناء بمسافة أميال عن مايوركا وسيارته، وفي اللحظة التي نفد فيها مخزون النيتروجين توقف تسارعها المرعب وتباطأت من جديد وفي تلك الأثناء حرَّك عُقاب عصا القيادة وأدار المقود وفي اللحظة الأخيرة رفع الفرامل اليدوية فدارت الأرملة واستدارت نحو الخلف في مكانها، كان خط النهاية على بُعد كيلومتر تقريبًا بينما كان هناك تسعمائة متر بالتمام والكمال بينها وبين صقر الجديان، صعق مايوركا في تلك الأثناء وصعق معه العالم بأسره.

- ألا ينوي هذا الولد أن يفوز بالسباق؟ إنها المرة الأولى التي أرى فيها سائقًا متسابقًا يدير ظهره للطريق التي تقود نحو خط النهاية، ما هذا العجب الذي أراه، عُقاب ومايوركا وجهًا لوجه الآن، صقر الجديان والأرملة الحسناء في أحد أمتع وأعظم نهائيات جائزة قنليجيا الكبرى... ما الذي تفعله بعقولنا يا ابن الهبَّار؟ احترِم عقولنا يا رجل.

ابتسم مايوركا ساخرًا: «إنه يقصدني إذن... إنه شجاع، لكنه شجاع غبي».

وفتح كبسة زر النيتروجين بدوره، وهتف وهو يكبس عليها:

- أنا قادم يا عُقاب.

وفي تلك الأثناء، أطفأ عُقاب جميع أضواء سيارته، بما في ذلك الأضواء الأمامية، فلم تعد تظهر وسط الظلام والضباب، لم تتمكن أي كاميرا من تصويرها والوحيدين الذين كانوا قادرين على رؤيتها هم مراقبو السباق من خلال الرادارات الحرارية.

- اللون الذي كانت سيارتك السابقة مصبوغة به ليس الأسود، هذا الطلاء باهظ الثمن، وهو السواد الحقيقي، إنه يمتصُّ كل ذرة ضوء ولا يعكس منه إلا نسبة قليلة مهملة.

تذكر عُقاب في تلك الأثناء كلام باهي حول طلاء السيارة بعد إعادة تصنيعها...

«من عتمة الليل ترجلنا وحملنا الأحلام، لتكون حقائق عجَّلنا جابهنا الأوهام».

تمتم عُقاب وهو يضغط دوَّاسة السرعة فدارت الإطارات الخلفية في مكانها.

- الأرملة الحسناء لا تظهر الآن ولكني أستطيع سماع صوت محركها، يا إلهي عُقاب يقود نحو مايوركا، وهذا الأخير أشعل زر النيتروجين وهو يقود بسرعةٍ جنونية في اتجاه عُقاب.

غمرت هديل رأسها في حضن جدِّها وشهقت مرعوبة بينما تمتم قنوع وهو ينظر إلى الشاشة بأسى:

- أظن أن عُقاب قد خسر السباق.

وتعاظمت دقَّات قلب الإسكافي حتى كاد يتوقف خوفًا، «*ها أنت أمامي الآن، ها أنت قبالتي، أراك ولا تراني، أستطيع أن أستشعر برودة الدم في عروقك والخوف في أنفاسك يا فتى، أستطيع سحب الحزن مع*

شهيق أنفاسي لكنني لن أرد الزفرة إلى هذا العالم مرة أخرى، أنا قادم إليك ولا تملك أدنى فكرة عما هو قادم إليك يا ابن الرومية».

وقف الناس من مقاعدهم، واستولت الصدمة والذهول على كل مَن يشاهد السباق، لقد اختفت الأرملة الحسناء تمامًا ولم يعد لها وجود، كان صوت المحرك مسموعًا لكنها لم تعد مرئية على الإطلاق، اقتربت السيَّارتان من بعضهما بعضًا، بدا فوز مايوركا سهلًا الآن، كل ما عليه فعله هو تفادي سيارة عُقاب والتوجُّه نحو خط النهاية لحسم الفوز، لقد كان هو الذي يسير بسرعته القصوى نحو الأمام، وعُقاب الغبي هو الذي يعود إلى الوراء بسرعته القصوى هو الآخر، وفي اللحظة الأخيرة خرجت الأرملة من خلف الضباب فأدار مايوركا المقود نحو اليسار لتفاديها لكن عُقاب ضغط زرًّا ما فانفتح صندوق سيارته الخلفي ونزل منه درع فولاذي ضخم وأدار المقود بدوره في اللحظة الأخيرة نحو اليمين فاستدارت الأرملة وفغر مايوركا فاهُ من الصدمة حيث ظهر قبالته فجأة درعٌ ضخم من الفولاذ المطروق، ولأن الأرملة كانت على ارتفاعٍ منخفض مقارنة بصقر الجديان فقد ارتطم الدرع الفولاذي بأسفل سيارته فطارت «صقر الجديان» في الهواء وانقلبت مُصدرةً دويًّا هائلًا عمَّ أرجاء المضمار، سكت العالم بأسره، الجمهور والمشاهدين، المعلقين على الراديوهات بمختلف لغات العالم، هديل وقنوع وعديلة، جاك هيكتور وجميع رجال المخابرات الأجنبية وكل مَن كان يشاهد المباراة من قريبٍ أو بعيد، لم يصدقوا ما شاهدوه للتو... ومن خلف الضباب المنقشع اشتعلت أضواء الأرملة الحسناء من جديد ولمع اللون الذهبي وسط إطاراتها وهي تسير وحدها في المضمار بلا منافس، انفجرت سيارة مايوركا وتطاير هو في الهواء ممزقًا إلى أشلاء مثلما حدث مع

سيارته، وتقدمت الدودج تشارجر وحيدةً في المقدمة بلا منافس ولا خصم ولا مسابق، مشت الهوينى بأقل سرعة يمكنها أن تسير بها.

- عشرة كيلومترات في الساعة... بهذه السرعة يتوجَّه عُقاب بن هبَّار لحسم أشرس سباق سيارات في التاريخ، جائزة قنليجيا الكبرى، التي تسابَق عليها أعتى السائقين في العالم وأزهقت الأرواح على مضاميرها وتطايرت الرقاب على أعتاب خط نهايتها، يحسمها هذا الفتى وحيدًا بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة، شاهت الوجوه... وأتلفت العقول... لن نعيش لنشاهد سهرةً كهذه مرة أخرى يا أيها السيدات والسادة.

قال المعلق بصوتٍ مهزوز أمام صمت ودهشة المشاهدين، وتجاوزت الأرملة الحسناء خط النهاية.

***

(بعد شهر تقريبًا)

انسلَّ من تحت دثارهما بحذرٍ شديد لكي لا يوقظها، وعزَّ عليه أن يتركها تنام وحيدة، بل عزَّ عليه أن يترك ذلك الفراش الدافئ الوثير، كانت الغرفة هادئة لطيفة رتَّبتها هي بنفسها واختارت كل غرضٍ فيها من أكبر قطعة أثاثٍ إلى أصغر غلاف وسادة، وكان عطرها الأنثوي ينتشر في الأرجاء مانحًا المكان مزيدًا من الطمأنينة والحنان، مسح على خصلات شعرها فانسدلت من بين أنامله كثوبٍ حريري شديد النعومة وتقلبت في الفراش وهي تموء كقطةٍ صغيرة نائمة ثم أمسكت بذراعه واحتضنتها، فسحبها من حضنها بهدوء شديد وقام فارتدى ملابس دافئة ثم فتح باب الغرفة بحذرٍ شديد ونزل السلالم نحو بهو القصر، هناك في الأريكة المقابلة للتلفاز جلس العم قنوع الإسكافي يطالع جريدة اليوم

وأمامها قهوته الصباحية، لم يغيِّر هذا الرجل عادته منذ أكثر من ثلاثين عامًا، إذ يستيقظ باكرًا وينام باكرًا ولا يبدأ نهاره قبل أن يقرأ الجريدة.

- أأنت جاهز يا عمَّاه؟

وقف الإسكافي والتقط معطفه ثم ارتداه وأغلق أزراره بعناية، ونظر إلى عُقاب مبتسمًا وهو يقول: «الآن أصبحتُ جاهزًا تمامًا».

خرجا من البناية الرئيسية وسارا عبر الفناء الخارجي متوجهَين نحو الحديقة، حيث مرَّا عبر طريق معشوشب لمسافة ثلاثين مترًا بين الأحراش وأشجار اللوز والمشمش والصنوبر البري، كان الظلام دامسًا في الخارج والشمس لم تُشرق بعد، وأفعمت أنفيهما رائحة الخبز المنتشرة في الجو، مع الهواء النقي البارد الذي يكاد يجرح تجويف الأنف من شدة برودته، واستمرَّ الرجلان في المشي إلى أن وصلا إلى برج المعدَّات القديمة، نظرا إلى أعلى قمته، ثم تبادلا النظرات، وأخرج عُقاب يده من جيبه، وقد أخرج معها ورقة قديمة مكتوبة بخط يد أبيه أسعد، فتحها ونظر إليها، ثم قال على مضض:

- بُرج المعدات القديمة... أو برج العشب كما كانت تسمِّيه أمي، هنا في أعلى هذا البرج بالذات طلب مني أبي أن أنفذ وصيته الأخيرة، وهي أن أنتحر شنقًا هنا في هذا المكان.

نظر إليه قنوع وقال وهو يمسح على ضهره:

- هيَّا يا بني، توكَّل على الله.

استمرَّ عُقاب في مراقبة البرج ولم يجب بكلمة حيث بدا أن شلَّالًا من الذكريات قد انساب على فؤاده في تلك اللحظة، ثم دلفا من الباب، وصعدا السلالم الحجرية نحو الأعلى، كانت الطريق طويلة لذلك توقفا أكثر من مرة بسبب تعب العم قنوع وإنهاكه من كثرة السلالم، بعضها كان متآكلًا، وبعضها الآخر لم يكن متناسقًا، وفي كل أركانها نبتت

الأعشاب والطحالب، وظلَّا يصعدان عليها درجة تلو الأخرى حتى وصلا إلى أعلى البرج، وقابلتهما بوابة خشبية عتيقة دفعاها بقوة فأصدرت صريرًا عظيمًا وهي تنفتح إلى الداخل رويدًا رويدًا، ودلفا من الباب نحو الحجرة العلوية لبرج العشب وهناك قابلهما مشهدٌ تقشعر له الأبدان، حيث كان حبل المشنقة متدليًا من السقيفة الخشبية للحجرة، اقترب عُقاب منه... ومدَّ يده إليه، وسحب الحبل بقوة نحو الأسفل للتأكد من متانته فنزل قليلًا نحو الأسفل، ثم سحبه سحبةً أخرى فسقط الحبل على الأرض وسمع عُقاب صوتَ صرير قادمًا من أعلى حيث انفتحت دفَّة بوابة خشبية صغيرة في السقيفة العلوية... وعلى الأرضية المفروشة بالتبن ولفائف الكتَّان سقط من السقيفة صندوق أسود قديم بين قدمَي عُقاب، فنظر إليه... ثم نظر إلى العم قنوع متعجبًا، وبلهفةٍ شديدة جثى على ركبتيه والتقط الصندوق، وسحب مغلاقه ثم فتحته، وأشرقت الشمس في تلك اللحظة فتسللت أشعتها من النافذة العتيقة للحجرة العلوية القديمة في البرج، وتحت شعاع الشمس لمعت الكهرمانة بلونها العسلي، وبرزت بداخلها الفراشة السوداء فاتحةً جناحيها الفارعين يمينًا وشمالًا وهي ترقد في نومتها السريالية الممتدة عبر ملايين السنين، كانت الكهرمانة بحجم بيضة بطة، وفي الصندوق نفسه عثر عُقاب على الجواهر السبع الكبيرة، اقترب منه قنوع، ونظر إلى محتوى الصندوق... فخرَّ ساجدًا لله شاكرًا له، واحتضن عُقاب... وبكيا بكاءً شديدًا!

***

كانت الساعة الخامسة إلا ربع مساءً، الجو لطيفٌ معتدل والطيور أخذت تزقزق من جديد في الحديقة المجاورة للباحة، بات القصر صالحًا للحياة الآن وزُوِّدَ بكل مستلزمات العيش، في الباحة الخلفية للقصر جلست الخالة عديلة ومعها قنوع وعُقاب، وضعت على الطاولة

المصنوعة من جذع شجرة قديمة بعض الحلويات التي طبختها هديل، والتي كانت قد وصلت للتو حاملةً صينية عليها فناجين القهوة، قال عُقاب ممتعضًا:

- لا أفهم لماذا لا تريدون العيش معي في القصر هنا؟ لم يعد لي أحدٌ غيركم، أنتم عائلتي الآن وقد قاتلتُ لكي تعيشوا بسلام.

وضعت هديل فنجان قهوة بجانب كل واحد من الثلاثة، وحرصت أن يكون أحد الفناجين بالتحديد هو الذي يشرب منه عُقاب دون غيره فوضعته أمامه دون أن ينتبه إليها أحد حيث كانت عديلة ترد على الشاب:

- لا تسئ فهمنا يا بني، نحن لا ننفر من العيش هنا، لكننا بعد كل هذا العمر لن نكون أكثر سلامًا وهدوءًا إلا في الأماكن التي عشنا وكبرنا فيها، عمُّك قنوع لا يمكنه أن يترك السوق ومعمله القديم لصناعة الأحذية، لا بدَّ أن يعود هناك، وأنا لا أستطيع ترك مزرعتي العزيزة وأنت تعرف جيدًا مدى تعلُّقي بذلك المكان... ولكننا بكل تأكيد لن نتركك وحدك.

التقط عُقاب فنجان القهوة وراح يشرب منه شاعرًا بالخيبة من قرار العجوزَين لكن القهوة تطايرت من فمه فجأة وانكمشت ملامح وجهه وهو يصيح ساعلًا:

- ما هذا؟ يا ربي القدير ما هذا؟ ملح؟

شرعت هديل عينيها وقالت وهي تضع يدها على فمها متظاهرةً بالدهشة والتعجب:

- يا إلهي هل وضعت الملح مكان السكر؟

ثم التقطت فنجانًا من الصينية وارتشفت رشفة منه، ووضعتها مرة أخرى على الطاولة وقد احمرَّت وجنتاها خجلًا، ارتشفت عديلة وقنوع

من الفنجانين فكان مذاقهما حلوًا عاديًّا، ففهم عُقاب أنها كانت تقصده بوضع الملح في قهوته، نظرت إليه بلؤم وهمست:

- هذا لأنك كدت أن تودي بحياتك في تلك الحركة الغبية في أثناء السباق... ثم إنني لم أنسَ بعد تقاليدك السخيفة قبل كل سباق ها.

بسأمٍ شديد قال عُقاب وهو يضع الفنجان جانبًا:

- أيها العم قنوع هل أنتم متأكدون من قدرتي على تحمل هذه البنت؟

انفجر الجدَّان ضاحكَين، ثم ضحك الجميع...

وفي أعقاب ذلك الضحك قال الإسكافي مربِّتًا على كتف عُقاب:

- الآن باتت لديك مهمَّتان يا بني، مهمة حماية أمانة عائلتك، وأمانة حماية زوجتك... إنها تحت عهدتك الآن ولعلك تعرف جيدًا ماذا يعني أن تكون المرأة في حماية الرجل.

طأطأت هديل رأسها حياءً، وقال عُقاب وهو ينظر إلى عينيها:

- سأصونها بمحبَّتي ودمائي... أعدك يا عماه.

ضربت ساقه من تحت الطاولة فكتم ألمه، ثم نظر إليها فأشارت إليه بأن يتوقف عن قول كلامٍ يشعرها بالحياء والخجل من جدها وجدتها.

كانت هديل ترتدي خاتمًا ذهبيًّا في إصبع يدها، الإصبع ذاتها التي كان يرتدي عُقاب فيها خاتمًا من الفضَّة، لقد بات كل واحدٍ منهما ينتمي إلى الآخر الآن.

الخاتمة

كانت الساعة الثانية وست دقائق بعد منتصف الليل عندما نزل جاك هيكتور من سيَّارته الليموزين بعدما وضع كأس الشامبانيا في مكانها مرة أخرى، كان يشعر بالإحباط الشديد بعد توالي هزائم جهازه الاستخباراتي مؤخرًا وبات يفكِّر جديًّا في إعادة تعيين طاقم جديد من الكوادر لأن الطاقم الحالي أثبت محدوديته تمامًا في التعامل مع أهم قضية حسَّاسة يسعى وراءها، «كنز الكهرمان»، ودخل إلى فندق «الدمى الراقصة» في الجادة الرئيسية الكبرى لمدينة «نيرون» عاصمة القارة الوسطى، ذهب السائق لكي يركن السيارة في الموقف، بينما دخل جاك إلى بهو الفندق وتأكد من رقم البطاقة مرة أخرى، الجناح رقم 4007، هناك كانت تنتظره عشيقته كما كان الاتفاق بينهما، إنه في حاجة ماسة إليها الليلة فقد مرَّ بأسبوع قاسٍ للغاية وقبله كانت أشهر سوداء لم يعش في حياته ما هو أكثر نحسًا وبؤسًا منها.

انفتح باب المصعد عند الطابق الرابع فخرج منه ومشى عبر الرواق المفروش بالسجاد الأزرق الداكن حتى وصل إلى الغرفة المنشودة، فتح الباب دخل إلى هناك وقد نزع معطفه وعلَّقه على الخطاف الذهبي خلف الباب، ثم وضع حقيبته اليدوية عند الطاولة الجانبية المرتفعة التي في المدخل، ونزع ساعة يده وربطة عنقه ومسدسه، ووضعهم جميعًا أمام الحقيبة، وتنهد وهو يرمى بفردتَي حذائه عند الباب، وتوجه

مباشرةً نحو الحمام حيث وضع رأسه الأصلع تحت ماء الحنفية وترك المياه الباردة تنساب عليه لعلها تهدِّئ من فوران الأفكار وغليانها بداخل دماغه، خرج من هناك وهو يحمل فوطة يجفف بها مؤخرة عنقه ثم رمى بها على رأس النسر المنحوت من الفضة، وتوجه نحو غرفة النوم وهو يقول على مضض: «شيرين؟ لقد وصلت حبيبتي... هل نمت؟».

أشعل الضوء وهمَّ بالتقدم إلى داخل الغرفة لكنه تسمَّر في مكانه تماما ولم يزد خطوة واحدة، وجمدت ملامح وجهه وهو ينظر إلى أحد الكرسيين في غرفته، واللذين تتوسطهما طاولة خشبية صغيرة كان عادةً يضع عليها بعض مستنداته لما ينهي إلقاء نظرة عليها ليلًا.

هناك على أحد الكرسيين كان يجلس رجل ممتلئ الجسم شديد الأناقة يرتدي طقمًا كلاسيكيًّا أسود وقبعة سوداء، وفي اللحظة التي وقعت فيها نظرة كل منهما على عينَي الآخر أشعل الرجل الغامض لفافة تبغ تحمل ماركة «كوهيبا» وحملها بين أنامله التي كانت مغطاة بقفازات جلدية سوداء. «*إنه هنا لكي لا يترك بصمات خلفه*». قال جاك لنفسه وهو يبتلع ريقه، بينما نفخ الرجل دخانه في الهواء بعد لحظتين وهو يقول مشيرًا إلى الكرسي الآخر:

- هلم يا جاك، هلم اجلس قبالتي.

كان هيكتور يشعر أن هيئة الرجل ليست غريبة عليه... ظلَّ يرمقه بعينين بارزتين دون أن ينبس ببنت شفة، حاول أن يتذكر بشكلٍ سريع أين يضع أسلحته الاحتياطية هنا في الغرفة، وتضاربت مشاعره بين الخوف والحيرة، والرغبة الملحة في معرفة مَن يكون هذا الرجل لأنه كلما كان يقترب منه يشعر أنه رآه من قبل...

قال وهو يجلس على الكرسي قبالته:

- مَن أنت؟

كان الرجل يرتدي معطفَ كشمير طويل وأخرج يده الأخرى من جيبه، ثم أزاح كل الأوراق والمستندات التي كانت على الطاولة الخشبية، ووضع مكانها علبة خشبية شديدة الفخامة، وقال وهو يفتحها:

- أيعقل أنك لا تعرفني وأنت رئيس أقوى جهاز مخابرات في العالم؟ ألستم تراقبون الناس من فتحات مراحيضهم؟ ألا تقولون إنه ليست هنالك نملة تدبُّ فوق هذه الأرض إلا وتعرفون متى يحين موعد دورتها الشهرية؟

- هندامك وألفاظك متضادتان، أأنت من الشرق؟

ابتسم الرجل نصف ابتسامة، وفتح العلبة الخشبية بهدوءٍ شديد وبدت بداخلها بيادق الشطرنج، سحب البيادق واحدًا تلو الآخر من داخل العلبة ووضعهم على الطاولة، تذكر جاك في تلك اللحظة أن له مسدسًا بحجم كفِّ اليد معلق تحت الطاولة الخشبية ففكر في سحبه وألقى بنظرة خاطفة بعينيه إلى أسفل الطاولة دون أن يحرك رأسه، لم يتمكن من التحقق مما إذا كان المسدس هناك أم لا، رفع عينه فوقعت على عينَي الرجل الذي كان يراقبه وقال وهو يضع آخر بيدق على الطاولة قبل أن يقلب دفَّتَي العلبة الخشبية:

- لا تفكر في أي فعلٍ أحمق يا جاكي، تعرف جيدًا أن الذي يتجاوز كل حواجزك الأمنية ويدخل إلى غرفة نومك هكذا لن يفوته أبدًا أنك قد تخفي مسدسًا أو اثنين هنا وهناك، أنصحك أن تنسى أمرهم الآن وتركز في ما هو أهم.

بدأت أوصال جاك ترتعش، لكنه حاول التمسك بقوة بذراعَي كرسيه لكي لا يبدو عليه الخوف، وبينما كان الرجل يصفُّ البيادق السوداء في

جهته من الرقعة كانت ملامح وجه جاك هيكتور الآن قد تحولت إلى الذعر الشديد وتفصَّد عرقًا في لحظتين حتى لمعت صلعته كأنه خرج من حمَّامٍ بخاري لتوه، وقال وهو يرجف بشكلٍ واضح هذه المرة:

- تذكرت... تذكرت أين رررر رأأأيتك... أأأ... أنت رررر... رر... رشدي حريص؟ مستحيل... أأنت شيطان؟ محال... تيرا سممتك بيدها، ورأتك ميتًا أمام عينيها، ودفنتك في جنازةٍ مهيبة وورثتك... مَن تكون أنت؟ يستحيل أن تكون رشدي حريص... لا لا يستحيل.

ابتسم الرجل وقال وهو يحكُّ الهالة تحت عينه اليسرى بإصبعه الإبهام:

- فلتخلد في الجحائم أنت، وكلابك... وعاهرتك الغبية تيرا راميريز، التي اعتقدت أن بإمكانها خداعي.

هتف جاك وقد أضحى على أعتاب الجنون:

- مَن تكون بحق الجحيم؟

كان الرجل حينها قد انتهى من ترتيب جميع البيادق على رقعة الشطرنج وهو يقول ببرودٍ شديد:

- عندما أدرك ماجد بن هبَّار أن حياته وتراث عائلته الملكية سيكونان في خطر إن هو اكتشف مكان كنز الكهرمان، استعان بضابط مخابرات شاب لكي يساعده على حماية هذا الإرث فور الحصول عليه، لقد كنا نعرف أنكم تسعون وراء الكنز منذ الوهلة الأولى، منذ اللحظة التي طلب فيها المعهد القومي للآثار من حكومتكم التعاون مع إحدى شركاتكم من أجل التنقيب عرفنا أنكم ستمنحون الترخيص لسايمون راميريز، ذلك اللص الوغد

هو أفضل خيارٍ لديكم، إنه طماع يسعى خلف المال ولا يهمه أي قيمة معنوية للكنوز والآثار التي يسرقها، ولا يهمه التاريخ ولا صفحاته... إنه عيِّنة قذرة عنكم.

نظر إلى رقعة الشطرنج، وحرَّك الجندي الرابع الأسود إلى اليسار خطوة نحو الأمام ثم قال بنبرةٍ آمرة:

- العب.

مدَّ جاك يده مرتعشةً نحو الجندي الأبيض المقابل للجندي الذي حركه رشدي، وحرَّكه بدوره نحو الأمام، فحرَّك رشدي وزيره بقدر أربع مربعات مائلة نحو الأمام وهو يقول:

- ولم تخيِّب أملي يومًا يا جاكي... منحت الترخيص لسايمون... وسايمون قادني إليك... لكني لم أكن أعرف هويتك بعد.

حرَّك جاك جنديه الذي بأقصى اليمين مسافة خطوة نحو الأمام وهو يراقب حركات الرجل وسكناته، فحرَّك هذا الأخير الملكة نحو الأمام بقدر مربَّعين مائلين، ليردَّ عليه جاك ويحرك حصانه الأيمن.

- ماذا عن ابنك مايوركا؟ هل هان عليك أن ترمي به إلى الموت هكذا؟

- ستخيِّب أملي، وستكون أغبى مما تصورت لو كنت تعتقد أنني أحببت تيرا أو وضعت بذرتي بداخلها، مايوركا ليس ولدي، إنه لقيطٌ من علاقةٍ ما، حين اكتشفت أن تيرا تنوي قتلي تركتها تنفذ مخططها، وفي اللحظة التي تواصلتْ معك فيها لتستشيرك في قتلي تمكنتُ من تحديد هويَّتك.

- وتركتها تقتل سلمى؟ أي قسوة قلبٍ تملك؟

تنهد الرجل، ورفع حاجبيه إلى الأعلى متحسرًا وقال:

- ما كنت أحسب أنها ستقتل سلمى، لقد فاجأتني بقذارتها، ولكني لو تدخلت لحماية سلمى لكنتم كشفتهم هويتي... لقد ضحت سلمى عاصف بدمها ولا بدَّ لتضحيتها من ثمن، كان لزامًا عليَّ أن أقوم بواجبي تجاه الرجل الذي وثق بي لحماية إرث عائلته، عندما قصدني من أجل الذهاب معه في آخر خرجةٍ استكشافية له في حياته.

انتفض جاك هيكتور من كرسيه بقوة وهتف وعيناه جاحظتان كجرذ مطعون:

- أنت؟... الشخص الثالث؟ العمُّ المحترم؟ أنت الرجل الذي كان برفقة ماجد بن هبَّار وسايمون راميريز في تلك الليلة التي نزلا فيها إلى حجرة الدفن حيث ضريح الأمير نارمر بن رمسيس وحرمه السيدة داليدا؟

- ليس مهمًّا أن تعرف أجوبة هذه الأسئلة يا جاكي، المهم أنك بتَّ تعرف أن صبيحة اليوم كانت آخر صبيحة ترى فيها ضوء الصباح.

قال رشدي وهو يُحرك ملكته أربع خطوات نحو الأمام وكسب اللعبة... فأضاف بهدوءٍ شديد: «كش ملك».

انهار جاك على الكرسي مصعوقًا، وأمسك بذراعي الكرسي بكلتا يديه وقال وهو يحاول التحدث فخانته الكلمات وتلعثم.

- ليكن... أنن... ليس... اسمع أنا... لماذا لا نتفاوض؟ يمكننا التعاون يمكنني أنا أن أعرض...

وما كاد ينهي كلامه حتى شاهد رشدي يمد يده بحركةٍ خاطفة نحو جيب معطفه الداخلي، ثم رأى الفوهة السوداء قبالة عينيه وسمع صوت طلقٍ ناري فقد بعده البصر وكان آخر ما استشعرت حواسه صداعٌ خفيف ونقرة حادة بين عينيه تلاها سيلانٌ سائل لزج دافئ، ورائحة تبغ كوهيبي عتيق في أنفه... حلَّ الظلام من حواليه واشتدَّ البرد فجأة وكان ذلك الشلال الدافئ بين عينيه هو آخر ما شعر به من حميم.

-وهذا ما سمعنا، وهذا ما قُلنا-

telegram @yasmeenbook

الأرملة الحسناء

حروب ملحمية خضَّبت الخريطة بالدم ورسمت ملامح عالمٍ مرعب.. فهل الدفاع عن قيم الخير والشرف كذبةٌ غربية أم خرافة مشرقية؟ لم يفلح التاريخ في إخبارنا الحقيقةَ فالذي ينتصر في الحرب هو من يكتب التاريخ، شيء واحد فقط بإمكانه أن يحتفظ بالحقيقة على مر العصور، كنزٌ غابرٌ نادرٌ مدفون في رمال الصحراء.. سيبقى العلامة الوحيدة للحقيقة المندثرة عبر آلاف السنين.

أعمال أخرى للكاتب

telegram @yasmeenbook

غلاف: محمود هشام

9 789776 972834

مكتبة ياسمين

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb